سـورة الأعـراف

سـورة الأعـراف وهي مـكيـة، إلا ثمـان آيات، وهي قـولـه تعـالى: ﴿وَاسْـَٔلْهُمْ عَنِ الْقَـرْيَةِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] إلى قوله ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧١]، وروى النسائي عن عـائشة أن رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف، فرَّقها في ركعتين (١). صححه أبو محمد عبدالحق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ﴾ تقدم في أول «البقرة» ومـوضعه رفع بالابتداء. و﴿كِتَـٰبٌ﴾ خبره. كأنه قال: ﴿الٓمٓصٓ﴾ حروف ﴿كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وقال الكسائي: أي هذا كتاب.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿حَرَجٌ﴾ أي ضيق؛ أي لا يضيق صـدرك بالإبلاغ؛ لأنه روي عنه عليه السلام أنه قال: «إني أخاف أن يثلغوا رأسي فيـدعوه خبزة» (٢) الحديث. خرجه مـسلم. قال الكيا: فظاهره النهي، ومعناه نفي الحرج عنه؛ أي لا يضـيق صدرك ألا يؤمنوا به، فإنما عليك البلاغ، وليس عليك سـوى الإنذار به من شيء من إيمانهم أو كـفـرهم، ومثلـه قوله تعـالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف: ٦] الآية. وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]. ومذهب مجـاهد وقتادة أن الحرج هنا الشك (٣)، وليس هذا شك الكفر إنما هو شك الضيق. وكـذلك قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧]. وقيل: الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته. وفيـه بعد. والهاء في ﴿مِّنْهُ﴾ للقـرآن. وقيل: للإنذار؛ أي أنزل إليك الكتـاب لتنذر به فـلا يكن في صـدرك حـرج منه. فالكلام فيه تقديم وتأخير. وقيل للتكذيب الذي يعطيه قوة الكلام. أي فلا يكن في صدرك ضيق من تكذيب المكذبين له. **الثانية**: قوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ يجوز أن يكون في موضع رفع ونصب وخفض. فالرفع من وجهين؛ قال البصريون: هي رفع على إضمار مبـتدأ. وقال الكسائي: عطف على «كتاب» والنصب من وجهين؛ على المصدر؛ أي وذكر به ذكرى؛ قـاله البصريون. وقال الكسائي: عطف على الهاء في «أنزلناه». والخفض حـملا على موضع ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ والإنذار للكافرين، والذكرى للمؤمنين؛ لأنهم المنتفعون به.

---

(١) صحيح: النسائي (٢/ ١٦٩، ١٧٠) في الافتتاح وصححه الألباني هناك.

(٢) صـحيح: قطعـة من حديث رواه مـسلم (٢٨٦٥) في الجنة عن عـياض بن حـمار رضى الله عنه. ويثلغـوا: يشدخوا (النهاية).

(٣) صحيح إليهم: الطبري (٨/ ١٢٢) في تفسيره، ورضيه الطبري هناك.

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني الكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. وقالت فرقة: هذا أمر يعم النبي ﷺ وأمته، والظاهر أنه أمر لجميع الناس دونه، أي: اتبعوا ملة الإسلام والقرآن، وأحلوا حلاله وحرموا حرامه، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، ودلت الآية على ترك اتباع الآراء مع وجود النص.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ ﴿مِن دُونِهِ﴾ من غيره. والهاء تعود على الرب سبحانه، والمعنى: لا تعبدوا معه غيره، ولا تتخذوا من عدل عن دين الله وليا، وكل من رضي مذهبا فأهل ذلك المذهب أولياؤه، وروي عن مالك بن دينار أنه قرأ: «ولا تبتغوا من دونه أولياء» أي ولا تطلبوا. ولم ينصرف ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ لأن فيه ألف التأنيث، وقيل: تعود على «ما» من قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿مَّا﴾ زائدة، وقيل: تكون مع الفعل مصدرا.

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ «وَكَم» للتكثير؛ كما أن «رب» للتقليل. وهي في موضع رفع بالابتداء، و«أهلكنا» الخبر. أي وكثير من القرى - وهي مواضع اجتماع الناس - أهلكناها. ويجوز النصب بإضمار فعل بعدها، ولا يقدر قبلها؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، ويقوي الأول قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧] ولولا اشتغال «أهلكنا» بالضمير لانتصب به موضع ﴿وَكَم﴾. ويجوز أن يكون «أهلكنا» صفة للقرية، ﴿وَكَم﴾ في المعنى هي القرية؛ فإذا وصفت القرية فكأنك قد وصفت كم. يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٦] فعاد الضمير على ﴿كَم﴾. على المعنى؛ إذ كانت الملائكة في المعنى. فلا يصح على هذا التقدير أن يكون ﴿كَم﴾ في موضع نصب بإضمار فعل بعدها ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ فيه إشكال للعطف بالفاء. فقال الفراء: الفاء بمعنى الواو، فلا يلزم الترتيب. وقيل: أي وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا؛ كقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]. وقيل: إن الهلاك، واقع ببعض القوم؛ فيكون التقدير: وكم من قرية أهلكنا بعضها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع، وقيل: المعنى وكم من قرية أهلكناها في حكمنا فجاءها بأسنا. وقيل: أهلكناها بإرسالنا ملائكة العذاب إليها، فجاءها بأسنا وهو الاستئصال، والبأس: العذاب الآتي على النفس. وقيل: المعنى أهلكناها فكان إهلاكنا إياهم في وقت كذا؛ فمجيء البأس على هذا هو الإهلاك، وقيل: البأس غير الإهلاك؛ كما ذكرنا، وحكى الفراء أيضا أنه إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدمت أيهما شئت؛ فيكون المعنى: وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها؛ مثل دنا فقرب، وقرب فدنا، وشتمني فأساء، وأساء فشتمني؛ لأن الإساءة والشتم شيء واحد. وكذلك قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾

[القمر: ١]. المعنى - والله أعلم - انشق القمر فاقتربت الساعة. والمعنى واحد. ﴿بَيَاتًا﴾ أي ليلا؛ ومنه البيت، لأنه يبات فيه. يقال: بات يبيت بيتا وبياتا. ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي أو وهم قائلون، فاستثقلوا فحذفوا الواو؛ قاله الفراء، وقال الزجاج: هذا خطأ، إذا عاد الذكر استغني عن الواو، تقول: جاءني زيد راكبا أو هو ماش، ولا يحتاج إلى الواو، قال المهدوي: ولم يقل بياتا أو وهم قائلون لأن في الجملة ضميرا يرجع إلى الأول فاستغني عن الواو، وهو معنى قول الزجاج سواء، وليس أو للشك بل للتفصيل؛ كقولك: لأكرمنك منصفا لي أو ظالما، وهذه الواو تسمى عند النحويين واو الوقت. و﴿قَائِلُونَ﴾ من القائلة وهي القيلولة؛ وهي نوم نصف النهار، وقيل: الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر وإن لم يكن معها نوم، والمعنى جاءهم عذابنا وهم غافلون إما ليلا وإما نهارا. والدعوى الدعاء؛ ومنه قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ [يونس: ١٠]. وحكى النحويون: اللهم أشركنا في صالح دعوى من دعاك، وقد تكون الدعوى بمعنى الادعاء، والمعنى: أنهم لم يخلصوا عند الإهلاك إلا على الإقرار بأنهم كانوا ظالمين، و﴿دَعْوَاهُمْ﴾ في موضع نصب خبر كان، واسمها ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾. نظيره ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا﴾ [النمل: ٥٦] ويجوز أن تكون الدعوى رفعا، و﴿أَن قَالُوا﴾ نصبا؛ كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا﴾ [البقرة: ١٧٧] برفع ﴿البرُّ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا﴾ [الروم: ١٠] برفع ﴿عَاقِبَةَ﴾.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ دليل على أن الكفار يحاسبون. وفي التنزيل ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٦]. وفي سورة القصص ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] يعني إذا استقروا في العذاب، والآخرة مواطن: موطن يسألون فيه للحساب. وموطن لا يسألون فيه، وسؤالهم سؤال تقرير وتوبيخ وإفضاح. وسؤال الرسل سؤال استشهاد بهم وإفصاح؛ أي عن جواب القوم لهم. وهو معنى قوله: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨] على ما يأتي، وقيل: المعنى ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي الأنبياء ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي الملائكة الذين أرسلوا إليهم. واللام في ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾ لام القسم وحقيقتها التوكيد. وكذا ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾. قال ابن عباس: ينطق عليهم [1]. ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ أي كنا شاهدين لأعمالهم. ودلت الآية على أن الله تعالى عالم بعلم.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ ابتداء وخبر. ويجوز أن يكون ﴿الْحَقُّ﴾ نعته، والخبر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾.

(١) ذكره الطبري (٨/ ١٢٨) بلا سند ثم قال: هذا قول غير بعيد من الحق، غير أن الصحيح من الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربّه يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان، فيقول له: أتذكر يوم فعلت كذا وفعلت كذا؟ حتى يذكر ما فعل في الدنيا» ثم قال: والتسليم لخبر رسول الله ﷺ أولى من التسليم لغيره أ.هـ.

قلت: والحديث عند البخاري (١٤١٣) في الزكاة، مسلم (١٠١٦) في الزكاة عن عدي بن حاتم رضى الله عنه.

ويجوز نصب ﴿الْحَقُّ﴾ على المصدر، والمراد بالوزن وزن أعمال العباد بالميزان. قال ابن عمر: توزن صحائف أعمال العباد. وهذا هو الصحيح، وهو الذي ورد به الخبر على ما يأتي. وقيل: الميزان الكتاب الذي فيه أعمال الخلق، وقال مجاهد: الميزان الحسنات والسيئات بأعيانها (١). وعنه أيضا والضحاك والأعمش: الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء (٢)، وذكر الوزن ضرب مثل؛ كما تقول: هذا الكلام في وزن هذا وفي وزانه، أي يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن. قال الزجاج: هذا سائغ من جهة اللسان، والأولى أن يتبع ما جاء في الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان. قال القشيري: وقد أحسن فيما قال، إذ لو حمل الميزان على هذا فليحمل الصراط على الدين الحق، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد، والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة، والملائكة على القوى المحمودة. وقد أجمعت الأمة في الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل. وإذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظاهر، وصارت هذه الظواهر نصوصا. قال ابن فورك: وقد أنكرت المعتزلة الميزان بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها، إذ لا تقوم بأنفسها. ومن المتكلمين من يقول: إن الله تعالى يقلب الأعراض أجساما فيزنها يوم القيامة. وهذا ليس بصحيح عندنا، والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب التي فيها الأعمال مكتوبة، وبها تخف. وقد روي في الخبر ما يحقق ذلك، وهو أنه روي «أن ميزان بعض بني آدم كاد يخف بالحسنات فيوضع فيه رق مكتوب فيه «لا إله إلا الله» فيثقل» (٣). فقد علم أن ذلك يرجع إلى وزن ما كتب فيه الأعمال لا نفس الأعمال، وأن الله سبحانه يخفف الميزان إذا أراد، ويثقله إذا أراد بما يوضع في كفتيه من الصحف التي فيها الأعمال. وفي صحيح مسلم عن صفوان بن محرز قال قال رجل لابن عمر: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟قال سمعته يقول: «يدنى المؤمن من ربه يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول هل تعرف فيقول أي رب أعرف قال فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم فيعطي صحيفة حسناته وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله». فقوله: «فيعطى صحيفة حسناته» (٤) دليل على أن الأعمال تكتب في الصحف وتوزن.

وروى ابن ماجة من حديث عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «يصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر ثم يقول الله تبارك وتعالى هل تنكر من هذا شيئا فيقول لا يا رب فيقول: أظلمتك كتبتي الحافظون فيقول لا ثم يقول ألك عذر ألك حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنات، وإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟، فيقول: إنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة

---

(١) لم أجده موصولاً .

(٢) هذا خطأ بيّن ، لأنه لو أراد سبحانه (العدل) لذكره حقًا ، وانظر الكلام عن الميزان عند الآية (٤٧) من سورة الأنبياء .

(٣) هذا حديث البطاقة ، وانظر رقم (١) في الصفحة القادمة .

(٤) صحيح : البخاري (٥٧١٤) في التوحيد ، ومسلم (٢٧٦٨) في التوبة .

في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة »[١] . زاد الترمذي: «فلا يثقل مع اسم الله شيء» وقال: حديث حسن غريب. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في «الكهف والأنبياء» إن شاء الله تعالى. قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ موازينه جمع ميزان، وأصله موزان، قلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها. وقيل: يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله. ويمكن أن يكون ذلك ميزانا واحدا عبر عنه بلفظ الجمع؛ كما تقول: خرج فلان إلى مكة على البغال، وخرج إلى البصرة في السفن. وفي التنزيل ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] . ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣] . وإنما هو رسول واحد في أحد التأويلين. وقيل: الموازين جمع موزون، لا جمع ميزان. أراد بالموازين الأعمال الموزونة. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ مثله، وقال ابن عباس: توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفتان؛ فأما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة فيوضع في كفة الميزان فتثقل حسناته على سيئاته؛ فذلك قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ويؤتى بعمل الكافر في أقبح صورة فيوضع في كفة الميزان فيخف وزنه حتى يقع في النار. وما أشار إليه ابن عباس قريب مما قيل: يخلق الله تعالى كل جزء من أعمال العباد جوهرا فيقع الوزن على تلك الجواهر، ورده ابن فورك وغيره. وفي الخبر «إذا خفت حسنات المؤمن أخرج رسول الله ﷺ بطاقة كالأنملة فيلقيها في كفة الميزان اليمنى التي فيها حسناته فترجح الحسنات فيقول ذلك العبد المؤمن للنبي ﷺ :بأبي أنت وأمي! ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك فمن أنت؟ فيقول: أنا محمد نبيك وهذه صلواتك التي كنت تصلي على قد وفيتك أحوج ما تكون إليها»[٢] . ذكره القشيري في تفسيره. وذكر أن البطاقة «بكسر الباء» رقعة فيها رقم المتاع بلغة أهل مصر، وقال ابن ماجة: قال محمد بن يحيى: البطاقة الرقعة، وأهل مصر يقولون للرقعة بطاقة، وقال حذيفة: صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام، يقول الله تعالى: «يا جبريل زن بينهم فرد من بعض على بعض»[٣] . قال: وليس ثم ذهب ولا فضة؛ فإن كان للظالم حسنات أخذ من حسناته فرد على المظلوم، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتحمل على الظالم؛ فيرجع الرجل وعليه مثل الجبال. وروي عن النبي ﷺ : «أن الله تعالى يقول يوم القيامة يا آدم ابرز إلى جانب الكرسي عند الميزان وانظر ما يرفع إليك من أعمال بنيك فمن رجح خيره على شره مثقال حبة فله الجنة ومن رجح شره على خيره مثقال حبة فله النار حتى تعلم أني لا أعذب إلا ظالما»[٤] .

---

(١) صحيح : وهذا حديث البطاقة ، رواه الترمذي (٢٦٣٩) في الإيمان ، وابن ماجه (٤٣٠٠) في الزهد وصححه الألباني .

(٢) هذا الخبر نسبه المصنف للقشيري في تفسيره ، وكذا فعل في التذكرة (٢/ ٣٠٦) وعزاه السيوطي (٦/ ٣٢٧) لابن أبي الدنيا ، والنمري في الإعلام عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بسند أطول .

(٣) كذا عند الطبري (٨/ ١٢٨) وعند اللالكائي (٢٢٠٩) في السنة ، وانظر فتح الباري (١٣/ ٥٣٩) وفيه انقطاع بين بلال بن يحيى وحذيفة رضى الله عنه .

(٤) لم أجده هكذا .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

أي جعلناها لكم قرارا ومهادا، وهيأنا لكم فيها أسباب المعيشة، والمعايش جمع معيشة، أي ما يتعيش به من المطعم والمشرب وما تكون به الحياة. يقال: عاش يعيش عيشا ومعاشا ومعيشا ومعيشة وعيشة. وقال الزجاج: المعيشة ما يتوصل به إلى العيش، ومعيشة في قول الأخفش وكثير من النحويين مفعلة. وقرأ الأعرج: «معائش» بالهمز. وكذا روى خارجة بن مصعب عن نافع، قال النحاس: والهمز لحن لا يجوز؛ لأن الواحدة معيشة، أصلها معيشة، فزيدت ألف الوصل وهي ساكنة والياء ساكنة، فلا بد من تحريك إذ لا سبيل إلى الحذف، والألف لا تحرك فحركت الياء بما كان يجب لها في الواحد. ونظيره من الواو منارة ومناور، ومقام ومقاوم؛ كما قال الشاعر:

وَإِنّي لقوامُ مقاومِ لَمْ يكُنْ جَريرَ وَلا مَوْلى جرير يقُومهَا

وكذا مصيبة ومصاوب. هذا الجيد، ولغة شاذة مصائب. قال الأخفش: إنما جاز مصائب، لأن الواحدة معتلة. قال الزجاج: هذا خطأ يلزمه عليه أن يقول مقائم. ولكن القول أنه مثل وسادة وإسادة. وقيل: لم يجز الهمز في معايش، لأن المعيشة مفعلة؛ فالياء أصلية، وإنما يهمز إذا كانت الياء زائدة مثل مدينة ومدائن، وصحيفة وصحائف، وكريمة وكرائم، ووظيفة ووظائف، وشبهه.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ لما ذكر نعمه ذكر ابتداء خلقه. وقد تقدم معنى الخلق في غير موضع. ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي خلقناكم نطفا ثم صورناكم، ثم إنا نخبركم أنا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم. وعن ابن عباس والضحاك وغيرهما: المعنى خلقنا آدم ثم صورناكم في ظهره[(١)]. وقال الأخفش: «ثم» بمعنى الواو، وقيل: المعنى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني آدم عليه السلام، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، ثم صورناكم؛ على التقديم والتأخير. وقيل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني آدم؛ ذكر بلفظ الجمع لأنه أبو البشر. ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ راجع إليه أيضا. كما يقال: نحن قتلناكم؛ أي قتلنا سيدكم، ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ وعلى هذا لا تقديم ولا تأخير؛ عن ابن عباس أيضا. وقيل: المعنى ولقد خلقناكم، يريد آدم وحواء؛ فآدم من التراب وحواء من ضلع من أضلاعه، ثم وقع التصوير بعد ذلك. فالمعنى: ولقد خلقنا أبويكم ثم صورناهما؛ قاله الحسن. وقيل: المعنى خلقناكم في ظهر آدم ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق. هذا قول مجاهد، رواه عنه ابن جريج وابن أبي نجيح[(٢)]. قال النحاس: وهذا أحسن الأقوال. يذهب مجاهد إلى أنه خلقهم في ظهر آدم، ثم صورهم حين أخذ

---

(١) منقطع بين ابن أبي طلحة وابن عباس، وكذا روى من طريق العوفيين، وفي إسناده إلى الضحاك ضعف كما عند الطبري (٨/ ١٣٢، ١٣٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ٤٧٥).

(٢) رواية ابن جريج عن مجاهد فيها انقطاع، ورواية ابن أبي نجيح كلاهما عند الطبري (٨/ ١٣٣) في التفسير، ورواية ابن أبي نجيح عند ابن أبي حاتم (٥/ ٤٧٥) في تفسيره.

عليهم الميثاق، ثم كان السجود بعد، ويقوي هذا ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]. والحديث «أنه أخرجهم أمثال الذر فأخذ عليهم الميثاق» (١). وقيل: «ثم» للإخبار، أي: ولقد خلقناكم يعني في ظهر آدم ﷺ ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: في الأرحام، قال النحاس: هذا صحيح عن ابن عباس.

قلت: كل هذه الأقوال محتمل، والصحيح منها ما يعضده التنزيل؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢] يعني آدم. وقال ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١]. ثم قال ﴿وجعلناه﴾ أي جعلنا نسله وذريته ﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:١٣] الآية. فآدم خلق من طين ثم صور وأكرم بالسجود، وذريته صوروا في أرحام الأمهات بعد أن خلقوا فيها وفي أصلاب الآباء. وقد تقدم في أول سورة «الأنعام» أن كل إنسان مخلوق من نطفة وتربة؛ فتأمله. وقال هنا: ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ وقال في آخر الحشر: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:٢٤]. فذكر التصوير بعد البرء. وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى. وقيل: معنى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي خلقنا الأرواح أولا ثم صورنا الأشباح آخرا.

قوله تعالى ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ استثناء من غير الجنس، وقيل: من الجنس. وقد اختلف العلماء: هل كان من الملائكة أم لا ؟ كما سبق بيانه في «البقرة».

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾ ﴿مَا﴾ في موضع رفع بالابتداء؛ أي أي شيء منعك، وهذا سؤال توبيخ. ﴿أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ في موضع نصب، أي من أن تسجد. و﴿أَلاَّ﴾ زائدة. وفي ص ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص:٧٥] وقال الشاعر:

أبى جودُه لا البخلَ فاستعجلتَ بهِ نعَمَ من فتىً لا يمنعُ الجودَ نائلهُ

أراد أبى جوده البخل، فزاد ﴿لا﴾. وقيل: ليست بزائدة؛ فإن المنع فيه طرف من القول والدعاء، فكأنه قال: من قال لك ألا تسجد؟ أو من دعاك إلى ألا تسجد؟ كما تقول: قد قلت لك الا تفعل كذا. وقيل: في الكلام حذف، والتقدير: ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى ألا تسجد. قال العلماء: الذي أحوجه إلى ترك السجود هو الكبر والحسد؛ وكان أضمر ذلك في نفسه إذا أمر بذلك. وكان أمره من قبل خلق آدم؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص:٧١، ٧٢]. فكأنه دخله أمر عظيم من قوله : ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾. فإن في الوقوع توضيع الواقع وتشريفا لمن وقع له؛ فأضمر في نفسه ألا يسجد إذا أمره في ذلك الوقت. فلما نفخ فيه الروح وقعت الملائكة سجدا، وبقي هو قائما بين أظهرهم؛ فأظهر بقيامه وترك السجود ما في ضميره. فقال الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ أي ما منعك من الانقياد لأمري؛ فأخرج سر ضميره

(١) صحيح : وقد سبق بطوله .

فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ يدل على ما يقوله الفقهاء من أن الأمر يقتضي الوجوب بمطلقه من غير قرينة؛ لأن الذم علق على ترك الأمر المطلق الذي هو قوله عز وجل للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ وهذا بين.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي منعني من السجود فضلي عليه؛ فهذا من إبليس جواب على المعنى. كما تقول: لمن هذه الدار؟ فيقول المخاطب: مالكها زيد، فليس هذا عين الجواب، بل هو كلام يرجع إلى معنى الجواب. ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ فرأى أن النار أشرف من الطين؛ لعلوها وصعودها وخفتها، ولأنها جوهر مضيء. قال ابن عباس والحسن وابن سيرين: أول من قاس إبليس فأخطأ القياس. فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس [1]. قال ابن سيرين: وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس [2]. وقالت الحكماء: أخطأ عدو الله من حيث فضل النار على الطين، وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق. فإن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة:

أحدها: أن من جوهر الطين الرزانة والسكون، والوقار والأناة، والحلم، والحياء، والصبر. وذلك هو الداعي لآدم عليه السلام بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية، ومن جوهر النار الخفة، والطيش، والحدة، والارتفاع، والاضطراب. وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار؛ فأورثه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاء؛ قاله القفال.

الثاني: إن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مسك أذفر [3]، ولم ينطق الخبر بأن في الجنة نارا وأن في النار ترابا.

الثالث: أن النار سبب العذاب، وهي عذاب الله لأعدائه؛ وليس التراب سببا للعذاب.

الرابع: أن الطين مستغن عن النار، والنار محتاجة إلى المكان ومكانها التراب.

قلت: ومحتمل قولا خامسا وهو أن التراب مسجد وطهور؛ كما جاء في صحيح الحديث [4]. والنار تخويف وعذاب؛ كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال ابن عباس: كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس فعصى ربه، وهو أول من قاس برأيه [5]. والقياس في مخالفة النص مردود.

الرابعة: واختلف الناس في القياس إلى قائل به، وراد له؛ فأما القائلون به فهم الصحابة والتابعون، وجمهور من بعدهم، وأن التعبد به جائز عقلا واقع شرعا، وهو الصحيح. وذهب القفال من الشافعية وأبو الحسين البصري إلى وجوب التعبد به عقلا، وذهب النظام إلى أنه يستحيل التعبد به

(١) انظر الطبري (٨/ ١٣٧) دون ذكر ابن عباس رضى الله عنهما، وقد علقه عن ابن سيرين.
(٢) حسن إليه: السابق نفسه.
(٣) صحيح: وقد سبق تخريجه.
(٤) صحيح: وقد سبق تخريجه في الصحيحين.
(٥) انظر البحر المحيط (٤/ ٢٧٣) لأبي حيان.

عقلا وشرعا؛ ورده بعض أهل الظاهر، والأول الصحيح. قال البخاري في (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة): المعنى لا عصمة لأحد إلا في كتاب الله أو سنة نبيه أو في إجماع العلماء إذا وجد فيها الحكم فإن لم يوجد فالقياس. وقد ترجم على هذا (باب من شبه أصلا معلوما بأصل مبين ، قد بين الله حكمها ليفهم السائل). وترجم بعد هذا (باب الأحكام التى تعرف بالدلائل وكيف معنى الدلالة وتفسيرها). وقال الطبري: الاجتهاد والاستنباط من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وإجماع الأمة هو الحق الواجب، والفرض اللازم لأهل العلم. وبذلك جاءت الأخبار عن النبي ﷺ، وعن جماعة الصحابة والتابعين. وقال أبو تمام المالكي: أجمعت الأمة على القياس؛ فمن ذلك أنهم أجمعوا على قياس الذهب والورق في الزكاة. وقال أبو بكر: أقيلوني بيعتي. فقال علي: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، رضيك رسول الله ﷺ لديننا أفلا نرضاك لدنيانا[١]؟ فقاس الإمامة على الصلاة. وقاس الصديق الزكاة على الصلاة وقال: والله لا أفرق بين ما جمع الله [٢]. وصرح علي بالقياس في شارب الخمر بمحضر من الصحابة وقال: إنه إذا سكر هذى، وإذا هذى افترى؛ فحده حد القاذف. وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري كتابا فيه: الفَهْم الفهم فيما يختلج في صدرك مما لم يبلغك في الكتاب والسنة، أعرف الأمثال والأشباه، ثم قس الأمور عند ذلك، فاعمد إلى أحبها إلى الله تعالى وأشبهها بالحق فيما ترى [٣]. الحديث بطوله ذكره الدارقطني. وقد قال أبو عبيدة لعمر رضي الله عنهما في حديث الوباء، حين رجع عمر من سرغ [٤]: نفر من قدر الله؟ فقال عمر: نعم! نفر من قدر الله إلى قدر الله. ثم قال له عمر: أرأيت [٥] . . . فقايسه وناظره بما يشبه من مسألته بمحضر المهاجرين والأنصار، وحسبك. وأما الآثار وأي القرآن في هذا المعنى فكثير. وهو يدل على أن القياس أصل من أصول الدين، وعصمة من عصم المسلمين، يرجع إليه المجتهدون، ويفزع إليه العلماء العاملون، فيستنبطون به الأحكام. وهذا قول الجماعة الذين هم الحجة، ولا يلتفت إلى من شذ عنها. وأما الرأي المذموم والقياس المتكلف المنهي عنه فهو ما لم يكن على هذه الأصول المذكورة؛ لأن ذلك ظن ونزغ من الشيطان؛ قال الله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]. وكل ما يورده المخالف من الأحاديث الضعيفة والأخبار الواهية في ذم القياس فهي محمولة على هذا النوع من القياس المذموم، الذي ليس له في الشرع أصل معلوم. وتتميم هذا الباب في كتب الأصول.

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي من السماء. ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ لأن أهلها الملائكة المتواضعون. ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي من الأذلين، ودل هذا أن من عصى مولاه فهو ذليل. وقال أبو روق والبجلي: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي من صورتك التي أنت فيها؛ لأنه افتخر بأنه من النار

(١) انظر فضائل الصحابة (١/ ١٣١، ١٣٢، ١٥١) للإمام أحمد رضى الله عنه والرياض النضرة (٢/ ١٤٠) .

(٢) صحيح بغير هذا اللفظ : وقد سبق في الصحيحين .

(٣) رواه الدارقطني (٤/ ٢٠٦، ٢٠٧) في سننه ، والبيهقي (١٠/ ١١٥، ١٥٠) من طرق .

(٤) سرغ : بفتح السين ، وسكون الراء ، موضع أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك (معجم البلدان (٣/ ٢٣٩).

(٥) صحيح : وقد سبق في الصحيحين .

فشوهت صورته بالإظلام وزوال إشراقه، وقيل: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي انتقل من الأرض إلى جزائر البحار [١]؛ كما يقال: هبطنا أرض كذا أي انتقلنا إليها من مكان آخر، فكأنه أخرج من الأرض إلى جزائر البحار فسلطانه فيها، فلا يدخل الأرض إلا كهيئة السارق يخاف فيها حتى يخرج منها. والقول الأول أظهر. وقد تقدم في «البقرة».

﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥ ﴾

سأل النظرة والإمهال إلى يوم البعث والحساب. طلب ألا يموت لأن يوم البعث لا موت بعده؛ فقال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾. قال ابن عباس والسدي وغيرهما: أنظره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم [٢]. وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين؛ فأبى الله ذلك عليه. وقال: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ولم يتقدم ذكر من يبعث؛ لأن القصة في آدم وذريته، فدلت القرينة على أنهم هم المبعوثون.

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧ ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ الإغواء إيقاع الغي في القلب؛ أي فبما أوقعت في قلبي من الغي والعناد والاستكبار. وهذا لأن كفر إبليس ليس كفر جهل؛ بل هو كفر عناد واستكبار. قيل: معنى الكلام القسم، أي فبإغوائك إياي لأقعدن لهم على صراطك، أو في صراطك؛ فحذف. دليل على هذا القول قوله في «ص»: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] فكأن إبليس أعظم قدر إغواء الله إياه لما فيه من التسليط على العباد، فأقسم به إعظاما لقدره عنده، وقيل: الباء بمعنى اللام، كأنه قال: فلإغوائك إياي. وقيل: هي بمعنى مع، والمعنى فمع إغوائك إياي، وقيل: هو استفهام، كأنه سأل بأي شيء أغواه؟، وكان ينبغي على هذا أن يكون: فبم أغويتني؟، وقيل: المعنى فبما أهلكتني بلعنك إياي. والإغواء الإهلاك، قال الله تعالى ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] أي هلاكا. وقيل: فبما أضللتني، والإغواء: الإضلال والإبعاد؛ قال ابن عباس، وقيل: خيبتني من رحمتك؛ ومنه قول الشاعر:

وَمَنْ يَغْوَ لا يعدمْ عَلَى الغي لائماً

أي من يخب. وقال ابن الأعرابي: يقال غوى الرجل يغوي غيا إذا فسد عليه أمره، أو فسد هو في نفسه. وهو أحد معاني قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] أي فسد عيشه في الجنة. ويقال: غوي الفصيل إذا لم يدر لبن أمه.

الثانية: مذهب أهل السنة أن الله تعالى أضله وخلق فيه الكفر؛ ولذلك نسب الإغواء في هذا

(١) سبق توهين هذه الرواية الواردة بطرق منقطعة عن ابن عباس رضى الله عنهما.
(٢) رواه الطبري (٨/ ١٣٩) موصولاً عن السُّدي ـ رحمه الله ـ.

إلى الله تعالى. وهو الحقيقة، فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له، صادر عن إرادته تعالى. وخالف الإمامية والقدرية وغيرهما شيخهم إبليس الذي طاوعوه في كل ما زينه لهم، ولم يطاوعوه في هذه المسألة ويقولون: أخطأ إبليس، وهو أهل للخطأ حيث نسب الغواية إلى ربه، تعالى الله عن ذلك. فيقال لهم: وإبليس وإن كان أهلا للخطأ فما تصنعون في نبي مكرم معصوم، وهو نوح عليه السلام حيث قال لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤] وقد روي أن طاوسا جاءه رجل في المسجد الحرام، وكان متهما بالقدر، وكان من الفقهاء الكبار؛ فجلس إليه فقال له طاوس: تقوم أو تقام؟ فقيل لطاوس: تقول هذا لرجل فقيه! فقال: إبليس أفقه منه، يقول إبليس: رب بما أغويتني. ويقول هذا: أنا أغوي نفسي.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي بالصد عنه، وتزيين الباطل حتى يهلكوا كما هلك، أو يضلوا كما ضل، أو يخيبوا كما خيب؛ حسب ما تقدم من المعاني الثلاثة في ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾. والصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الجنة. و﴿صِرَاطَكَ﴾ منصوب على حذف ﴿على﴾ أو ﴿في﴾ من قوله: ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ كما حكى سيبويه «ضرب زيد الظهر والبطن». وأنشد:

لَدْن بِهزِّ الكف يعسل مَتنهُ فيه كَمَا عَسل الطريق الثعلَبُ

ومن أحسن ما قيل في تأويل ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ أي لأصدنهم عن الحق، وأرغبنهم في الدنيا، وأشككهم في الآخرة. وهذا غاية في الضلالة. كما قال ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩] حسب ما تقدم. وروى سفيان عن منصور عن الحكم بن عتيبة قال: ﴿مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من دنياهم. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من آخرتهم. ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني حسناتهم. ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ يعني سيئاتهم[1]. قال النحاس: وهذا قول حسن وشرحه: أن معنى ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من دنياهم، حتى يكذبوا بما فيها من الآيات وأخبار الأمم السالفة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من آخرتهم حتى يكذبوا بها. ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من حسناتهم وأمور دينهم. ويدل على هذا قوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٢٨] ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ يعني سيئاتهم، أي يتبعون الشهوات؛ لأنه يزينها لهم. ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أي موحدين طائعين مظهرين الشكر.

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة. ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾. ﴿مَذْءُومًا﴾ أي مذموما. والذأم: العيب، بتخفيف الميم. قال ابن زيد: مذؤوما ومذموما سواء؛ يقال: ذأمته وذممته بمعنى واحد[2]. وقرأ الأعمش: «مذوما». والمعنى واحد؛ إلا أنه خفف الهمزة. وقال مجاهد: المذؤوم المنفي[3]. والمعنيان متقاربان. والمدحور: المبعد المطرود[4]؛ عن مجاهد وغيره. وأصله الدفع. ﴿لَّمَن

(١) كذا عند الطبري (٨/ ١٤٢) وفيه ابن وكيع وهو متهم.
(٢) السابق (٨/ ١٤٥) وهو حسن أو صحيح إليه.
(٣، ٤) صحيح إلى مجاهد من طريق ابن أبي نجيح: الطبري (٨/ ١٤٤)، وابن أبي حاتم (٥/ ٤٨٢، ٤٨٣) في تفسيره.

تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ اللام لام القسم، والجواب ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾. وقيل ﴿لَمَن تَبِعَكَ﴾ لام توكيد. ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ لام قسم. والدليل على هذا أنه يجوز في غير القراءة حذف اللام الأولى، ولا يجوز حذف الثانية. وفي الكلام معنى الشرط والمجازاة؛ أي من تبعك عذبته. ولو قلت: من تبعك أعذبه لم يجز؛ إلا أن تريد لأعذبه. وقرأ عاصم من رواية أبي بكر بن عياش «لِمن تبعك منهم» بكسر اللام، وأنكره بعض النحويين. قال النحاس: وتقديره - والله أعلم - من أجل من تبعك. كما يقال: أكرمت فلانا لك. وقد يكون المعنى: الدحر لمن تبعك، ومعنى ﴿ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي منكم ومن بني آدم؛ لأن ذكرهم قد جرى إذ قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾[الأعراف: ١١] . خاطب ولد آدم.

﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

قال لآدم بعد إخراج إبليس من موضعه من السماء: اسكن أنت وزوجك وحواء الجنة. وقد تقدم في البقرة معنى الإسكان، فأغنى عن إعادته. وقد تقدم معنى ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥] هناك. والحمد لله.

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي إليهما. قيل: داخل الجنة بإدخال الحية إياه، وقيل: من خارج، بالسلطنة التي جعلت له. وقد مضى هذا في البقرة. والوسوسة: الصوت الخفي. والوسوسة: حديث النفس؛ يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة ووِسواسا «بكسر الواو». والوَسواس «بالفتح»: اسم، مثل الزلزال. ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحلي: وسواس. قال الأعشى:

تَسمعُ للحلي وَسْوَاسا إذَا انصرفَتْ ... كَمَا استعانَ بريح عِشْرق زَجِلُ(١)

والوسواس: اسم الشيطان؛ قال الله تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾[الناس: ٤] . ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ أي ليظهر لهما. واللام لام العاقبة؛ كما قال: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[القصص: ٨] . وقيل: لام كي. ﴿مَا وُورِيَ عَنْهُمَا﴾ أي ستر وغطي عنهما. ويجوز في غير القرآن أوري، مثل أقتت و﴿مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ من عوراتهما وسمي الفرج عورة لأن إظهاره يسوء صاحبه. ودل هذا على قبح كشفها فقيل: إنما بدت سوآتهما لهما لا لغيرهما؛ كان عليهما نور لا ترى عوراتهما فزال النور، وقيل: ثوب؛ فتهافت، والله أعلم. ﴿ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ ﴿أَن﴾ في موضع نصب، بمعنى إلا، كراهية أن؛ فحذف المضاف، هذا قول البصريين، والكوفيون يقولون: لئلا تكونا. وقيل: أي إلا ألا تكونا ملكين تعلمان الخير والشر. وقيل: طمع آدم في الخلود؛ لأنه علم أن الملائكة لا يموتون إلى يوم القيامة، قال النحاس: وبين الله عز وجل فضل الملائكة على جميع الخلق في غير موضع من القرآن؛ فمنها هذا، وهو ﴿ إِلَّا أَن تَكُونَا

(١) العشرق: شجيرة مقدار ذراع لها أكمام فيها حبٌّ صغار إذا رجعت فمرّت عليها الريح تحرّك الحبّ فيُسمع له خشخشة على الحصا .

مَلَكَيْنِ﴾. ومنه ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١]. ومنه ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]. وقال الحسن: فضل الله الملائكة بالصور. والأجنحة والكرامة. وقال غيره: فضلهم جل وعز بالطاعة وترك المعصية؛ فلهذا يقع التفضيل في كل شيء. وقال ابن فورك: لا حجة في هذه الآية؛ لأنه يحتمل أن يريد ملكين في ألا يكون لهما شهوة في طعام. واختيار ابن عباس والزجاج وكثير من العلماء تفضيل المؤمنين على الملائكة وقد مضى في البقرة ؛ وقال الكلبي: فضلوا على الخلائق كلهم، غير طائفة من الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت؛ لأنهم من جملة رسل الله. وتمسك كل فريق بظواهر من الشريعة، والفضل بيد الله. وقرأ ابن عباس «ملِكين» بكسر اللام، وهي قراءة يحيى بن أبي كثير والضحاك. وأنكر أبو عمرو بن العلاء كسر اللام وقال: لم يكن قبل آدم ﷺ ملك فيصيرا ملكين. قال النحاس: ويجوز على هذه القراءة إسكان اللام، ولا يجوز على القراءة الأولى لخفة الفتحة. قال ابن عباس: أتاهما الملعون من جهة الملك؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]. وزعم أبو عبيد أن احتجاج يحيى بن أبي كثير بقوله: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ حجة بينة، ولكن الناس على تركها فلهذا تركناها. قال النحاس «إلا أن تكونا مَلِكين» قراءة شاذة. وقد أنكر على أبي عبيد هذا الكلام، وجُعل من الخطأ الفاحش. وهل يجوز أن يتوهم آدم عليه السلام أنه يصل إلى أكثر من ملك الجنة؛ وهي غاية الطالبين. وإنما معنى ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ المقام في ملك الجنة، والخلود فيه.

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي حلف لهما. يقال: أقسم إقساما؛ أي حلف. قال الشاعر :

وقاسمها بالله جهدا لأنتم ألذ من السلوى إذا ما نشورها

وجاء «فاعلت» من واحد. وهو يرد على من قال: إن المفاعلة لا تكون إلا من اثنين، وقد تقدم في «المائدة». ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ليس ﴿لَكُمَا﴾ داخلا في الصلة. والتقدير: إني ناصح لكما لمن الناصحين؛ قاله هشام النحوي. وقد تقدم مثله في «البقرة»، ومعنى الكلام: اتبعاني أرشدكما؛ ذكره قتادة.

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أوقعهما في الهلاك، قال ابن عباس: غرهما باليمين، وكان يظن آدم أنه لا يحلف أحد بالله كاذبا، فغرهما بوسوسته وقسمه لهما. وقال قتادة: حلف بالله لهما حتى خدعهما. وقد يخدع المؤمن بالله. كان بعض العلماء يقول: من خادعنا بالله خدعنا. وفي الحديث

عنه ﷺ: «المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم» (١). وأنشد نفطويه:

إنَّ الكريم إذا تشاءُ خَدَعتَهُ وَتَرى اللئيم مُجرباً لاَ يُخدعُ

﴿فَدَلاَّهُمَا﴾ يقال: أدلى دلوه: أرسلها. ودلاها: أخرجها، وقيل «دلاهما» أي دللهما؛ من الدالة وهي الجرأة، أي جرأهما على المعصية فخرجا من الجنة.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ أي أكلا منها وقد مض في «البقرة» الخلاف في هذه الشجرة وكيف أكل آدم منها. ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ أكلت حواء أولا فلم يصبها شيء؛ فلما أكل آدم حلت العقوبة؛ لأن النهي ورد عليهما كما تقدم في «البقرة». قال ابن عباس: تقلص النور الذي كان لباسهما فصار أظفارا في الأيدي والأرجل.

الثانية: قوله تعالى ﴿وَطَفِقَا﴾ ويجوز إسكان الفاء. وحكى الأخفش طفق يطفق؛ مثل ضرب يضرب. يقال: طفق، أي أخذ في الفعل. ﴿يَخْصِفَانِ﴾ وقرأ الحسن بكسر الخاء وشد الصاد. والأصل «يختصفان» فأدغم، وكسر الخاء لالتقاء الساكنين. وقرأ ابن بريدة ويعقوب بفتح الخاء، ألقيا حركة التاء عليها. ويجوز «يُخصِفَان» بضم الياء، من خصف يخصف. وقرأ الزهري «يُخْصِفان» من أخصف. وكلاهما منقول بالهمزة أو التضعيف والمعنى: يقطعان الورق ويلزقانه ليستترا به، ومنه خصف النعل. والخصاف الذي يرقعها. والمخصف المثقب. قال ابن عباس: هو ورق التين (٢). ويروى أن آدم عليه السلام لما بدت سوأته وظهرت عورته طاف على أشجار الجنة يسل (٣) منها ورقة يغطي بها عورته؛ فزجرته أشجار الجنة حتى رحمته شجرة التين فأعطته ورقة. فـ ﴿طَفِقَا﴾ يعني آدم وحواء ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ فكافأ الله التين بأن سوى ظاهره وباطنه في الحلاوة والمنفعة وأعطاه ثمرتين في عام واحد مرتين.

الثالثة: وفي الآية دليل على قبح كشف العورة، وأن الله أوجب عليهما الستر؛ ولذلك ابتدرا إلى سترها، ولا يمتنع أن يؤمرا بذلك في الجنة؛ كما قيل لهما ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾. وقد حكى صاحب البيان عن الشافعي أن من لم يجد ما يستر به عورته إلا ورق الشجر لزمه أن يستتر بذلك؛ لأنه سترة ظاهرة يمكنه التستر بها؛ كما فعل آدم في الجنة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ. قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي قال لهما: ألم أنهكما. قالا ربنا نداء مضاف. والأصل يا ربنا. وقيل. إن في حذف «يا» معنى التعظيم. فاعترفا بالخطيئة وتابا صلى الله عليهما وسلم وقد مضى في «البقرة». ومعنى قوله ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ تقدم أيضا إلى آخر الآية.

---

(١) صحيح: الترمذي (١٩٦٤) في البر والصلة، وأبو داود (٤٧٩٠) في الأدب وصححه الألباني في الوصفين من حديث أبي هريرة رضى الله عنه، والغر: قليل الفطنة للشر لكرمه، والخب: الخداع والإفساد بين الناس.

(٢) صححه الحاكم (٢/ ٣٥٠) في المستدرك ووافقه الذهبي، ورواه الطبري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس به، كما في التفسير (٨/ ١٤٨).

(٣) السلّ: في اللسان: انتزاع الشيء وإخراجه في رفق.

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

الضمائر كلهـا للأرض. ولم يذكر الواو في «قال»، ولو ذكرها لجاز أيضـا، وهو كقولك: قال زيد لعمرو كذا قال له كذا.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ قال كثير من العلماء: هذه الآية دليل على وجـوب سترِ العورة؛ لأنه قال: ﴿يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾. وقال قوم : إنه ليس فـيها دليل على ما ذكروه، بل فيها دلالة على الإنعام فقط.

قلت : القول الأول أصح. ومن جملة الإنعام ستر العورة؛ فـبين أنه سبحانه وتعالى جعل لذريته ما يسترون به عـوراتهم، ودل على الأمر بالستر. ولا خلاف بين العلماء في وجـوب ستر العورة عن أعين الناس. واختلفـوا في العورة ما هي؟ فـقال ابن أبي ذئب: هي من الرجل الفرج نفـسه، القبل والدبر دون غيرهما. وهو قول داود وأهل الظاهر وابن أبـي عبلة والطبري؛ لقوله تعالى: ﴿لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾، ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢] ، ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧] . وفي البخاري عن أنس فأجرى رسول الله ﷺ في زقاق[(١)] خيبر - وفيه - ثم حسر الإزار[(٢)] عن فخذه حتى إني أنظر إلى بياض فـخذ نبي الله ﷺ[(٣)]. وقال مالك: السرة ليست بعـورة، وأكره للرجل أن يكشف فخذه بحضرة زوجـته. وقال أبو حنيفة: الركبة عورة، وهو قـول عطاء، وقال الشافعي: ليست السرة ولا الركبـتان من العورة على الصـحيح. وحكى أبو حـامد الترمـذي أن للشافعي في السـرة قولين. وحجة مالك قـوله عليه السلام لجرهد: «غط فخذك فإن الـفخذ عورة»[(٤)]. خرجه البخـاري تعليقا وقال: حديث أنس أسند، وحديث جرهد أحوط حتى يخرج من اختلافهم. وحديث جرهد هذا يدل على خلاف ما قال أبو حنيفـة، وروي أن أبا هريرة قبل سرة الحسن بن علي وقال: أقبل منك ما كان رسول الله ﷺ يقبل منك[(٥)]. فلو كانت السرة عورة ما قبلها أبو هريرة، ولا مكنه الحسن منها. وأما المرأة الحرة فعورة كلها إلا الوجـه والكفين.. على هذا أكثر أهل العلم. وقد قال النبي ﷺ: «من أراد أن يتزوج امرأة فلينظر إلى وجههـا وكفيها»[(٦)]. ولأن ذلك واجب كشفه في الإحرام. وقال أبو بكر

(١) الزقاق : بضم الزاي : الطريق. (النهاية (٢/ ٣٠٦) لابن الأثير ـ رحمه الله ـ .

(٢) حسر الإزار : يعني كشفه .

(٣) صحيح : البخاري (٣٧١) في الصلاة ، ومسلم (١٣٦٥) في الجهاد .

(٤) صـحيح : علقـه البخـاري (١/ ٥٧) في الصـلاة ، ووصله أبو داود (٤٠١٤) في الأدب، الترمـذي (٢٨٠٤ ـ ٢٨٠٦) في الأدب وجرهد الأسلمي صحابي من أهل الصُّفة ، وانظر الإصابة (١/ ٢٣١) .

(٥) رواه البيهقي (٢/ ٢٣٢) في سننه وانظر التمهيد (٦/ ٣٨١) لابن عبد البر ـ رحمه الله ـ والكلام كله منقول عنه .

(٦) لم نر هذا الحديث بهذا اللفظ .

ابن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام: كل شيء من المرأة عورة حتى ظفرها. وروي عن أحمد بن حنبل نحوه. وأما أم الولد فقال الأثرم: سمعته - يعني أحمد بن حنبل - يسأل عن أم الولد كيف تصلي؟ فقال: تغطي رأسها وقدميها؛ لأنها لا تباع، وتصلي كما تصلي الحرة. وأما الأمة فالعورة منها ما تحت ثديها، ولها أن تبدي رأسها ومعصميها. وقيل: حكمها حكم الرجل. وقيل: يكره لها كشف رأسها وصدرها. وكان عمر رضي الله عنه يضرب الإماء على تغطيتهن رؤوسهن ويقول: لا تشبهن بالحرائر. وقال أصبغ: إن انكشف فخذها أعادت الصلاة في الوقت. وقال أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام: كل شيء من الأمة عورة حتى ظفرها. وهذا خارج عن أقوال الفقهاء؛ لإجماعهم على أن المرأة الحرة لها أن تصلي المكتوبة ويداها ووجهها مكشوف ذلك كله، تباشر الأرض به. فالأمة أولى، وأم الولد أغلظ حالا من الأمة. والصبي الصغير لا حرمة لعورته. فإذا بلغت الجارية إلى حد تأخذها العين وتشتهى سترت عورتها. وحجة أبي بكر بن عبدالرحمن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. وحديث أم سلمة أنها سئلت: ماذا تصلي فيه المرأة من الثياب؟ فقالت: تصلي في الدرع والخمار السابغ الذي يغيب ظهور قدميها[1]. وقد روي مرفوعا. والذين أوقفوه على أم سلمة أكثر وأحفظ؛ منهم مالك وابن إسحاق وغيرهما. قال أبو داود: ورفعه عبد الرحمن بن عبدالله بن دينار عن محمد بن زيد عن أمه عن أم سلمة أنها سألت رسول الله ﷺ. قال أبو عمر: عبدالرحمن هذا ضعيف عندهم؛ إلا أنه قد خرج البخاري بعض حديثه. والإجماع في هذا الباب أقوى من الخبر. **الثانية**: قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ يعني المطر الذي ينبت القطن والكتان، ويقيم البهائم الذي منها الأصواف والأوبار والأشعار؛ فهو مجاز مثل ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦] على ما يأتي. وقيل: هذا الإنزال إنزال شيء من اللباس مع آدم وحواء، ليكون مثالا لغيره. وقال سعيد بن جبير ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ أي خلقنا لكم؛ كقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أي خلق. على ما يأتي. وقيل: ألهمناكم كيفية صنعته.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾ قرأ أبو عبدالرحمن والحسن وعاصم من رواية المفضل الضبي، وأبو عمرو من رواية الحسين بن علي الجعفي «ورياشا». ولم يحكه أبو عبيد إلا عن الحسن، ولم يفسر معناه. وهو جمع ريش. وهو ما كان من المال واللباس. وقال الفراء: ريش ورياش، كما يقال: لبس ولباس. وريش الطائر ما ستره الله به. وقيل: هو الخصب ورفاهية العيش. والذي عليه أكثر أهل اللغة أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة. وأنشد سيبويه:

فَرِيشي مِنكُمْ وَهَوَاي مَعَكُمْ ... وَإِنْ كَانَتْ زِيَارَتُكُمْ لِمَامَا

وحكى أبو حاتم عن أبي عبيدة: وهبت له دابة بريشها؛ أي بكسوتها وما عليها من اللباس.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ بين أن التقوى خير لباس؛ كما قال:

إِذَا المرءُ لَم يَلْبَسْ ثيابا مِنْ التقى ... تَقَلَّبَ عُريانا وإِنْ كانَ كَاسِيَا

وَخَيرُ لباس المرء طاعَةُ ربهِ ... وَلاَ خَيرَ فِيمَنَ كَانَ لله عَاصِيَا

(١) ضعيف: وقد رواه أبو داود (٦٣٩) موقوفًا، و(٦٤٠) مرفوعًا في كتاب الصلاة وضعفه الألباني هناك.

وروى قاسم بن مـالك عن عوف عن معبد الجـهني قال ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ الحياء [١]. وقال ابن عباس: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ هو العمل الصالح [٢]. وعنه أيضا: السمت الحسن فـي الوجه. وقيل: ما علمه عز وجل وهدى به. وقيل: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ لبس الصوف والخشن من الثـياب، مما يتواضع به لله تعالى ويتعبد له خـير من غيره. وقال زيد بن علي: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ الدرع والمغفر؛ والساعدان، والساقان، يتقى بهما في الحرب [٣]. وقال عروة بن الزبير: هو الخشية لله [٤]. وقيل: هو استشعار تقوى الله تعالى فيما أمر به ونهى عنه.

قلت: وهو الصـحيح، وإليـه يرجع قول ابن عـباس وعروة، وقـول زيد بن علي حسـن، فإنه حـض على الجهاد. وقال ابن زيد: هو ستر العورة [٥]. وهذا فيه تكرار، إذ قال أولا: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾. ومن قال: إنه لبس الخشن من الثياب فـإنه أقرب إلى التواضع وترك الرعونات فدعوى؛ فقـد كان الفضلاء من العلماء يلبسـون الرفيع من الثياب مع حصول التـقوى، على ما يأتي مبـينا إن شاء الله تعالى. وقـرأ أهل المدينة والكسائي و«لبـاس» بالنصب عطفا على «لبـاسا» الأول. وقيل: انتصب بفعل مضمر؛ أي وأنزلنا لبـاس التقوى. والباقون بالرفع على الابتداء. و﴿ذَٰلِكَ﴾ نعته و﴿خَيْرٌ﴾خبر الابتداء. والمعنى: ولباس التقوى المشار إليه، الذي علمتموه، خير لكم من لباس الثياب التي تواري سوآتكم، ومن الـرياش الذي أنزلنا إليكم؛ فألبسـوه. وقيل: ارتفع بإضمار هو؛ أي وهو لباس التقوى؛ أي هو ستر العورة. وعليه يخرج قول ابن زيد. وقيل: المعنى ولباس التقوى هو خير؛ فـ«ذلك» بمعنى هو. والإعراب الأول أحسن ما قيل فيه. وقرأ الأعمش «ولباس التقوى خير» ولم يقرأ «ذلك». وهو خلاف المـصحف. ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي مما يدل على أن له خـالقا. و﴿ذَٰلِكَ﴾ رفع على الصفة، أو على البدل، أو عطف بيان.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

فيه مسألتان : الأولى : قوله تعالى: ﴿لا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ أي لا يصرفنكم الشيطان عن الدين؛ كما فتن أبويكم بالإخـراج من الجنة. «أب» للمـذكر، و«أبة» للمـؤنث. فعلى هذا قـيل: أبوان ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ في موضع نصب على الحال. ويكون مستـأنفا فيوقف على ﴿مِّنَ الْجَنَّةِ﴾. ﴿لِيُرِيَهُمَا﴾ نصب بلام كي. ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ الأصل « يرءاكم » ثم خففت الهمزة . ﴿قبيله﴾ عطف على المضمر وهو توكيب ليـحسن العطف كـقوله : ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ وهذا يدل على أنه يـقبح رأيتك وعمـرو، وأن المضمـر كالمظهر. وفي هذا أيضـا دليل على وجوب سـتر العـورة؛ لقوله﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾. قال الآخرون: إنما فيه التـحذير من زوال النعمة؛ كـما نزل بآدم ﷺ. هذا أن لو ثبت أن

(١) لو كان معبد الجهنى القائل بالقدر فـهو عدو من أعداء الله ، والخبر عند الطبري (٨/ ١٥٢) وابن أبي حاتم (٦/ ١) في تفسيره .

(٢) ضعيف جدًا : الطبري (٨/ ١٥٥) في تفسيره من طريق العوفيين وكذا ابن أبي حاتم (٥/ ٥٠٠) .

(٣) انظر تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ٥٠٠) .

(٤) ضعيف : فيه جهالة المحدث عن عروة كما عند الطبري (٨/ ١٥٥) . (٥) الطبري (٨/ ١٥٥) .

شرع آدم يلزمنا، والأمر بخلاف ذلك.

الثانية: قوله تعالى ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ «قبيله» جنوده. قال مجاهد: يعني الجن والشياطين [١]. ابن زيد «قبيله» نسله [٢]. وقيل: جيله. ﴿مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ قال بعض العلماء: في هذا دليل على أن الجن لا يرون؛ لقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ قيل: جائز أن يروا؛ لأن الله تعالى إذا أراد أن يريهم كشف أجسامهم حتى ترى. قال النحاس ﴿مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ يدل على أن الجن لا يرون إلا في وقت نبي؛ ليكون ذلك دلالة على نبوته؛ لأن الله جل وعز خلقهم خلقا لا يرون فيه، وإنما يرون إذا نقلوا عن صورهم. وذلك من المعجزات التي لا تكون إلا في وقت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. قال القشيري: أجرى الله العادة بأن بني آدم لا يرون الشياطين اليوم. وفي الخبر «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» [٣]. وقال تعالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥]. وقال عليه السلام: «إن للملك لمة وللشيطان لمة - أي بالقلب - فأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق وأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق» [٤]. وقد جاء في رؤيتهم أخبار صحيحة. وقد خرج البخاري عن أبي هريرة قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، وذكر قصة طويلة، ذكر فيها أنه أخذ الجني الذي كان يأخذ التمر، وأن النبي ﷺ قال له: «ما فعل أسيرك البارحة» [٥]. وقد تقدم في البقرة.. وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «والله لولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة» [٦] - في العفريت الذي تفلت عليه. وسيأتي في «ص» إن شاء الله تعالى. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي زيادة في عقوبتهم وسوينا بينهم في الذهاب عن الحق.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

الفاحشة هنا في قول كثر المفسرين طوافهم بالبيت عراة. وقال الحسن: هي الشرك والكفر. واحتجوا على ذلك بتقليدهم أسلافهم، وبأن الله أمرهم بها. وقال الحسن ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ قالوا: لو كره الله ما نحن عليه لنقلنا عنه. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ بين أنهم متحكمون، ولا دليل لهم على أن الله أمرهم بما ادعوا. وقد مضى ذم التقليد وذم كثير من جهالاتهم. وهذا منها.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

(١، ٢) ذكرهما الطبري (٨/ ١٥٩) في تفسيره، والإسناد إلى مجاهد - رحمه الله - ضعيف للانقطاع بين ابن جريج وبينه.
(٣) صحيح: البخاري (٢٠٣٥) في الاعتكاف، مسلم (٢١٧٥) في السلام عن صفية رضي الله عنها.
(٤) ضعيف: الترمذي (٢٩٨٨) في التفسير عن ابن مسعود، وضعفه الألباني هناك.
(٥) صحيح: وقد سبق.
(٦) صحيح: مسلم (٥٤٢) في المساجد ومواضع الصلاة، وتفلت عليه: أي تعرض له فجأة كما في النهاية (٣/ ٤٦٧) لابن الأثير.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ قال ابن عباس: لا إله إلا الله (١). وقيل: القسط العدل؛ أي أمر: العدل فأطيعوه. ففي الكلام حذف. ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي توجهوا إليه في كل صلاة إلى القبلة. ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي في أي مسجد كنتم. ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي وحدوه ولا تشركوا به. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ نظيره ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤] وقد تقدم. والكاف في موضع نصب؛ أي تعودون كما بدأكم؛ أي كما خلقكم أول مرة يعيدكم. وقال الزجاج: هو متعلق بما قبله. أي ومنها تخرجون كما بدأكم تعودون.

قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ «فريقا» نصب على الحال من المضمر في ﴿تَعُودُونَ﴾ أي تعودون فريقين: سعداء، وأشقياء. يقوي هذا قراءة أبي «تعودون فريقين فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة»؛ عن الكسائي. وقال محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ قال: من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيره إلى الضلالة، وإن عمل بأعمال الهدى. ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى، وإن عمل بأعمال الضلالة. ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة، وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة، ثم رده الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه (٢). قال: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] وفي هذا رد واضح على القدرية ومن تابعهم. وقيل ﴿فَرِيقًا﴾ نصب بـ ﴿هَدَىٰ﴾، «وفريقا» الثاني نصب بإضمار فعل؛ أي وأضل فريقا.

وأنشد سيبويه:

أصبحتُ لا أحمل السلاح ولا ... أملك رأس البعير إن نفرا

والذئب أخشاه إن مررت به ... وحدي وأخشى الرياح والمطرا

قال الفراء: ولو كان مرفوعا لجاز. ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وقرأ عيسى بن عمر «أنهم» بفتح الهمزة، يعني لأنهم.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ هو خطاب لجميع العالم، وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عريانا؛ فإنه عام في كل مسجد للصلاة، لأن العبرة للعموم لا! للسبب. ومن العلماء من أنكر أن يكون المراد به الطواف؛ لأن الطواف لا يكون إلا في مسجد واحد، والذي يعم كل مسجد هو الصلاة. وهذا قول من خفي عليه مقاصد الشريعة. وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة وتقول: من يعيرني تطوافا؟ تجعله على فرجها. وتقول:

اليومُ يبدُو بعضُه أوْ كلهُ ... وَما بَدا منه فَلا أحِلُّهُ (٣)

---

(١) رواه البغوي (٣/ ٢٢٣) في تفسيره، وأبو حيان (٤/ ٢٨٧) في البحر المحيط.

(٢) ضعيف جدًا: الطبري (٨/ ١٦٢) في تفسيره وفيه موسى بن عبيدة وهو الرَّبذي: ضعيف.

(٣) صحيح: مسلم (٣٠٢٨) في التفسير، وانظر الطبري (٨/ ١٦٦) في تفسيره.

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. التطواف «بكسر التاء». وهذه المرأة هي ضباعة بنت عامر بن قرط؛ قاله القاضي عياض، وفي صحيح مسلم أيضا عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس [١]، والحمس قريش وما ولدت، كانوا يطوفون بالبيت عراة إلا أن تعطيهم الحمس ثيابا فيعطي الرجال الرجال والنساء النساء، وكانت الحمس لا يخرجون من المزدلفة، وكان الناس كلهم يقفون بعرفات [٢]. في غير مسلم [٣]: ويقولون: نحن أهل الحرم، فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا. فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوبا ولا يسار يستأجره به كان بين أحد أمرين: إما أن يطوف بالبيت عريانا، وإما أن يطوف في ثيابه؛ فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه فلم يمسه أحد. وكان ذلك الثوب يسمى اللقى؛ قال قائل من العرب:

كَفَى حُزنًا كَري عَليهِ كَأنهُ ... لقى بينَ أيدي الطائفينَ حريمُ

فكانوا على تلك الجهالة والبدعة والضلالة حتى بعث الله نبيه محمدا ﷺ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ الآية. وأذن مؤذن رسول الله ﷺ: لا يطوف بالبيت عريان [٤].

قلت: ومن قال بأن المراد الصلاة فزينتها النعال؛ لما رواه كرز بن وبرة عن عطاء عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال ذات يوم: «خذوا زينة الصلاة» قيل: وما زينة الصلاة؟ قال: «البسوا نعالكم فصلوا فيها» [٥].

الثانية: دلت الآية على وجوب ستر العورة كما تقدم. وذهب جمهور أهل العلم إلى أنها فرض من فروض الصلاة. وقال الأبهري: هي فرض في الجملة، وعلى الإنسان أن يسترها عن أعين الناس في الصلاة وغيرها. وهو الصحيح؛ لقوله عليه السلام للمسور بن مخرمة: «ارجع إلى ثوبك فخذه ولا تمشوا عراة» [٦]. أخرجه مسلم. وذهب إسماعيل القاضي إلى أن ستر العورة من سنن الصلاة، واحتج بأنه لو كان فرضا في الصلاة لكان العريان لا يجوز له أن يصلي؛ لأن كل شيء من فروض الصلاة يجب الإتيان به مع القدرة عليه، أو بدله مع عدمه، أو تسقط الصلاة جملة، وليس كذلك. قال ابن العربي [٧]: وإذا قلنا إن ستر العورة فرض في الصلاة فسقط ثوب إمام فانكشف دبره وهو راكع فرفع رأسه فغطاه أجزأه؛ قاله ابن القاسم. وقال سحنون: وكل من نظر إليه من المأمومين أعاد. وروي عن سحنون أيضا: أنه يعيد ويعيدون؛ لأن ستر العورة شرط من شروط الصلاة، فإذا ظهرت بطلت الصلاة. أصله الطهارة. قال القاضي ابن العربي [٨]: أما من قال، إن صلاتهم لا تبطل فإنهم

---

(١) الحُمس: هم قريش وكنانة وجديلة قيس سُموا بذلك لأنهم تحمسوا لدينهم أي تشددوا كما في النهاية (١/ ٤٤٠) لابن الأثير.

(٢) صحيح: مسلم (١٢١٩) في الحج.

(٣) صحيح: الترمذي (٨٨٤) في الحج.

(٤) صحيح: البخاري (٤٦٥٦) عن أبي هريرة رضى الله عنه.

(٥) ضعيف: أبو نعيم (٥/ ٨٣) في حلية الأولياء.

(٦) صحيح: مسلم (٣٤١) في الحيض.

(٧، ٨) أحكام القرآن للقاضي ابن العربي المالكي الأندلسي (٢/ ٧٨٠).

لم يفقدوا شرطا، وأمـا من قال: إن أخذه مكانه صحت صلاته، وتبطل صلاة من نظر إليه فـصحيفة يجب محوها ولا يجوز الاشتغال بها. وفي البخاري والنسائي عن عمرو بن سلمة قال: لما رجع قومي من عند النبي ﷺ قالـوا: قال: «ليؤمكم أكـثركم قراءة للقـرآن»، قال: فدعـوني فعلمـوني الركوع والسجـود؛ فكنت أصلي بهـم وكانت علي بردة مفـتوقة، وكـانوا يقولون لأبي: ألا تغطي عنا است ابنك [١]. لفظ النسائي. وثبت عن سهل بن سعد قال: لقد كانت الرجال عاقدي أزرهم في أعناقهم من ضيق الأزر خلف رسول الله ﷺ في الصلاة كأمـثال الصبيان؛ فـقال قائل: يا معشر النساء، لا ترفعن رؤوسكن حتى ترفع الرجال [٢]. أخرجه البخاري والنسائي وأبو داود.

-**الثالثة** : واختلفوا إذا رأى عورة نفسه؛ فقال الشافعي: إذا كان الثوب ضيقا يزره أو يخلله بشيء لئلا يتجافى القميص فترى من الجيب العـورة، فإن لم يفعل ورأى عورة نفسه أعاد الصلاة، وهو قول أحمـد. ورخص مالك في الصلاة في القمـيص محلول الأزرار، ليس عليه سـراويل. وهو قول أبي حنيفة وأبي ثور. وكان سالم يصلي محلول الأزرار. وقال داود الطائي: إذا كان عظيم اللحية فلا بأس به. وحكى معناه الأثرم عن أحمـد، فإن كان إماما فـلا يصلي إلا بردائه؛ لأنه من الزينة. وقيل: من الزينة الصلاة في النعلين؛ رواه أنس عن النبي ﷺ ولم يصح [٣]. وقيل: زينة الصلاة رفع الأيدي في الركوع وفي الرفع منه. قال أبو عمر: لكل شيء زينة وزينة الصلاة التكبيـر ورفع الأيدي. وقال عمر رضي الله عنه: إذا وسع الله عليكم فـأوسعوا على أنفـسكم، جمع رجل عليـه ثيابه، صلى في إزار ورداء، في إزار وقمـيص، في إزار وقبـاء ، في سراويل ورداء، في سـراويل وقميـص، في سراويل وقبـاء - وأحسـبه قـال: في تبـان وقمـيص - في تبان ورداء، في تبـان وقبـاء [٤]. رواه البـخاري والدارقطني.

الرابعة : قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ قال ابن عباس: أحل الله في هذه الآية الأكل والشرب مـا لم يكن سرفا أو مـخيلة [٥]. فأمـا ما تدعو الحاجـة إليه، وهو ما سد الجـوعة وسكن الظمأ، فـمندوب إليه عقلا وشـرعا، لما فيه مـن حفظ النفس وحراسة الحـواس؛ ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال؛ لأنه يضـعف الجسد ويميت النفس، ويضعف عن العبـادة، وذلك يمنع منه الشرع ويـدفعه العقل. وليس لمن منع نفسه قدر الحـاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد؛ لأن ما حرمها من فعل الطاعة بالعـجز والضعف أكثـر ثوابا وأعظم أجرا. وقد اختلف في الزائد على قـدر الحاجة على قولين: فقـيل: حرام، وقـيل: مكروه. قال ابن الـعربي: وهو الصـحيح؛ فإن قـدر الشبع يخـتلف

(١) صحيح : وقد سبق وأصله في الصحيحين .

(٢) صحيح : البخاري (٣٦٢) في الصلاة ، مسلم (٤٤١) في الصلاة ، أبو داود (٦٣٠) في الصلاة ، النسائي (٢/ ٧٠) .

(٣) ضعـيف : الطبراني في الأوسط وفيه علي بن عـاصم وقد تكلم فيـه النحاس كما في مـجمع الزوائد (٢/ ٥٤) للهيثمي .

(٤) صحيح : البخاري (٣٦٥) في الصلاة .

(٥) إسناد رجاله ثقات : الطبري (٨/ ١٦٩) في تفسيره ، وابن أبي حـاتم (٦/ ١٢) في تفسيره ، والبيهقي (٦٥٧٢) في الشعب ، وعبد الرزاق (١/ ٢٢٨) .

باختلاف البلدان والأزمان والأسنان والطعمان. ثم قيل: في قلة الأكل منافع كثيرة؛ منها أن يكون الرجل أصح جسما وأجود حفظا وأزكى فهما وأقل نوما وأخف نفسا. وفي كثرة الأكل كظ المعدة ونتن التخمة، ويتولد منه الأمراض المختلفة، فيحتاج من العلاج أكثر مما يحتاج إليه القليل الأكل. وقال بعض الحكماء: أكبر الدواء تقدير الغذاء. وقد بين النبي ﷺ هذا المعنى بيانا شافيا يغني عن كلام الأطباء فقال: «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» (١). خرجه الترمذي من حديث المقدام بن معدي كرب. قال علماؤنا: لو سمع بقراط هذه القسمة لعجب من هذه الحكمة. ويذكر أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال لعلي بن الحسين: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان. فقال له علي: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابنا. فقال له: ما هي؟ قال: قوله عز وجل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾. فقال النصراني: ولا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب. فقال علي: جمع رسول الله ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة. قال: ما هي؟ قال: «المعدة بيت الأدواء والحمية رأس كل دواء وأعط كل جسد ما عودته» (٢). فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا (٣).

قلت: ويقال إن معالجة المريض نصفان: نصف دواء ونصف حمية: فإن اجتمعا فكأنك بالمريض قد برأ وصح. وإلا فالحمية به أولى؛ إذ لا ينفع دواء مع ترك الحمية. ولقد تنفع الحمية مع ترك الدواء. ولقد قال رسول الله ﷺ: «أصل كل دواء الحمية» (٤). والمعنى بها - والله أعلم - أنها تغني عن كل دواء؛ ولذلك يقال: إن الهند جل معالجتهم الحمية، يمتنع المريض عن الأكل والشراب والكلام عدة أيام فيبرأ ويصح.

الخامسة: روى مسلم عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معىً واحد» (٥). وهذا منه ﷺ حض على التقليل من الدنيا والزهد فيها والقناعة بالبلغة. وقد كانت العرب تمتدح بقلة الأكل وتذم بكثرته. كما قال قائلهم:

تَكفيه فلذةُ كبدٍ إنْ ألمَّ بهَا ... مِنْ الشواءِ ويروي شُربَهُ الغمرُ

وقالت أم زرع في ابن أبي زرع: ويشبعه ذراع الجفرة. وقال حاتم الطائي يذم بكثرة الأكل:

فَإنَّكَ إنْ أعطيتَ بطنكَ سُؤْلَه ... وَفرجَكَ نالا مُنتهى الذم أجمَعَا

وقال الخطابي: معنى قوله ﷺ: «المؤمن يأكل في معى واحد» أنه يتناول دون شبعه، ويؤثر على نفسه ويبقي من زاده لغيره؛ فيقنعه ما أكل. والتأويل الأول أولى والله أعلم. وقيل في قوله عليه السلام: «والكافر يأكل في سبعة أمعاء» ليس على عمومه؛ لأن المشاهدة تدفعه، فإنه قد يوجد كافر

---

(١) صحيح: الترمذي (٢٣٨٠) في الزهد، ابن ماجه (٣٣٤٩) في الأطعمة، صححه الألباني هناك.

(٢) لا أصل له: كذا قال الألباني ـ رحمه الله ـ (٢٥٢) في الضعيفة.

(٣) انظر البحر المحيط (٤/ ٢٩٠) لأبي حيان.

(٤) باطل: انظر قبل السابق، ورجح ابن قيم الجوزية في زاد المعاد أنه من قول الحارث بن كلدة طبيب العرب.

(٥) صحيح: البخاري (٥٣٩٤) في الأطعمة، مسلم (٢٠٦٠) في الأشربة عن ابن عمر رضي الله عنهما.

أقل أكلا من مؤمن، ويسلم الكافر فلا يقل أكله ولا يزيد. وقيل: هو إشارة إلى معين. ضاف النبي ﷺ ضيف كافر يقال: إنه الجهجاه الغفاري. وقيل: ثمامة بن أثال. وقيل: نضلة بن عمرو الغفاري. وقيل: بصرة بن أبي بصرة الغفاري. فشرب حلاب سبع شياه، ثم إنه أصبح فأسلم فشرب حلاب شاة فلم يستتمه؛ فقال النبي ﷺ ذلك[١]. فكأنه قال: هذا الكافر. والله أعلم. وقيل: إن القلب لما تنور بنور التوحيد نظر إلى الطعام بعين التقوى على الطاعة، فأخذ منه قدر الحاجة، وحين كان مظلما بالكفر كان أكله كالبهيمة ترتع حتى تثلط[٢].

واختلف في هذه الأمعاء، هل هي حقيقة أم لا؟ فقيل: حقيقة، ولها أسماء معروفة عند أهل العلم بالطب والتشريح. وقيل: هي كنايات عن أسباب سبعة يأكل بها النهم: يأكل للحاجة والخبر والشم والنظر واللمس والذوق ويزيد استغناما. وقيل: المعنى أن يأكل أكل من له سبعة أمعاء. والمؤمن بخفة أكله يأكل أكل من ليس له إلا معى واحد؛ فيشارك الكافر بجزء من أجزاء أكله، ويزيد الكافر عليه بسبعة أمثال. والمعى في هذا الحديث هو المعدة.

السادسة: وإذا تقرر هذا فاعلم أنه يستحب للإنسان غسل اليد قبل الطعام وبعده؛ لقوله عليه السلام: «الوضوء قبل الطعام وبعده بركة»[٣] وكذا في التوراة. رواه زاذان عن سلمان. وكان مالك يكره غسل اليد النظيفة. والاقتداء بالحديث أولى. ولا يأكل طعاما حتى يعرف أحارا هو أم باردا؟ فإنه إن كان حارا فقد يتأذى. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أبردوا بالطعام فإن الحار غير ذي بركة»[٤] حديث صحيح. ولا يشمه فإن ذلك من عمل البهائم، بل إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه، ويصغر اللقمة ويكثر مضغها لئلا يعد شرها، ويسمي الله تعالى في أوله ويحمده في آخره. ولا ينبغي أن يرفع صوته بالحمد إلا أن يكون جلساؤه قد فرغوا من الأكل؛ لأن في رفع الصوت منعا لهم من الأكل، وآداب الأكل كثيرة، هذه جملة منها، وسيأتي بعضها في سورة «هود» إن شاء الله تعالى. وللشراب أيضا آداب معروفة، تركنا ذكرها لشهرتها. وفي صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله»[٥].

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي في كثرة الأكل، وعنه يكون كثرة الشرب، وذلك يثقل المعدة، ويثبط الإنسان عن خدمة ربه، والأخذ بحظه من نوافل الخير. فإن تعدى ذلك إلى ما فوقه مما يمنعه القيام بالواجب عليه حرم عليه، وكان قد أسرف في مطعمه ومشربه. روى أسد بن موسى من

(١) صحيح: مسلم (٢٠٦٣) في الأشربة وليس فيه تسمية الشارب.

(٢) الثلط: في اللسان: هو سلح الفيل ونحوه من كل شيء إذا كان رقيقًا وثَلط الثور والبعير، والصبي يثلط ثلطًا: سلح سلحاً رقيقًا (يعني البعر).

(٣) ضعيف: الترمذي (١٨٥٣)، أبو داود (٣٧٦١) كلاهما في الأطعمة عن سلمان رضى الله عنه وضعفه الألباني هناك.

(٤) ضعيف جدًا بهذا اللفظ: الحاكم (٧١٢٤) عن جابر رضى الله عنه وفيه العزرمي متروك، ولكن ذكره الألباني فى الصحيحة (٣٩٢) بسند آخر عن أسماء صحيحًا.

(٥) صحيح: مسلم (٢٠٢٠) في الأشربة.

حديث عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال: أكلت ثريدا بلحم سمين، فأتيت النبي ﷺ وأنا أتجشأ؛ فقال: «اكفف عليك من جشائك أبا جحيفة فإن أكثر الناس شبعا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة» (١). فما أكل أبو جحيفة بملء بطنه حتى فارق الدنيا، وكان إذا تغدى لا يتعشى، وإذا تعشى لا يتغدى.

قلت: وقد يكون هذا معنى قوله عليه السلام: «المؤمن يأكل في معى واحد» (٢) أي التام الإيمان؛ لأن من حسن إسلامه وكمل إيمانه كأبي جحيفة تفكر فيما يصير إليه من أمر الموت وما بعده؛ فيمنعه الخوف والإشفاق من تلك الأهوال من استيفاء شهواته (٣). والله أعلم. وقال ابن زيد: معنى ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ لا تأكلوا حراما وقيل: «من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت» (٤). رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ، خرجه ابن ماجة في سننه. وقيل: من الإسراف الأكل بعد الشبع. وكل ذلك محظور. وقال لقمان لابنه: يا بني لا تأكل شبعا فوق شبع، فإنك إن تنبذه للكلب خير من أن تأكله. وسأل سمرة بن جندب عن ابنه ما فعل؟ قالوا: بشم البارحة. قال: بشم (٥)! فقالوا: نعم. قال: أما إنه لو مات ما صليت عليه (٦). وقيل: إن العرب في الجاهلية كانوا لا يأكلون دسما في أيام حجهم، ويكتفون باليسير من الطعام، ويطوفون عراة. فقيل لهم: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي: لا تسرفوا في تحريم ما لم يحرم عليكم.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ بين أنهم حرموا من تلقاء أنفسهم ما لم يحرمه الله عليهم. والزينة هنا الملبس الحسن، إذا قدر عليه صاحبه. وقيل: جميع الثياب؛ كما روي عن عمر: إذا وسع الله عليكم فأوسعوا (٧). وقد تقدم. وروي عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب شيخ مالك رضي الله عنهم أنه كان يلبس كساء خز بخمسين دينارا، يلبسه في الشتاء، فإذا كان في الصيف تصدق به، أو باعه فتصدق بثمنه، وكان يلبس في الصيف ثوبين من متاع بمصر ممشقين (٨) ويقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

---

(١) صحيح بنحوه: الترمذي(٢٤٧٨) في صفة القيامة، وابن ماجة (٣٣٥٠) في الأطعمة وصححه الألباني هناك.
(٢) صحيح: سبق قريبًا.
(٣) صحيح أو حسن: الطبري (٨/ ١٦٩) في تفسيره.
(٤) ضعيف: ابن ماجه (٣٣٥٢) في الأطعمة، وقال الألباني: موضوع.
(٥) بشم: في اللسان: تخمة على الدسم، وربما بشم الفصيل (ابن الناقة) من كثرة شرب اللبن حتى يدقى سلْحًا (بعرًا) فيهلك.
(٦) انظر مسند ابن الجعد (٨/ ٤٦٢).
(٧) صحيح: سبق قريبًا.
(٨) الممشق المصبوغ بالمشق وهو صبغ لونه أحمر (كما في اللسان).

الثانية: وإذا كان هذا فقد دلت الآية على لباس الرفيع من الثياب، والتجمل بها في الجمع والأعياد، وعند لقاء الناس ومزاورة الإخوان. قال أبو العالية: كان المسلمون إذا تزاوروا تجملوا. وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب أنه رأى حلة سيراء [١] تباع عند باب المسجد، فقال: يا رسول الله، لو اشتريتها ليوم الجمعة وللوفود إذا قدموا عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما يلبس هذا من لا خلاق له في الآخرة» [٢]. فما أنكر عليه ذكر التجمل، وإنما أنكر عليه كونها سيراء. وقد اشترى تميم الداري حلة بألف درهم كان يصلي فيها. وكان مالك بن دينار يلبس الثياب العدنية الجياد. وكان ثوب أحمد بن حنبل يشترى بنحو الدينار. أين هذا ممن يرغب عنه ويؤثر لباس الخشن من الكتان والصوف من الثياب. ويقول: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ٢٦] هيهات! أترى من ذكرنا تركوا لباس التقوى، لا والله! بل هم أهل التقوى وأولو المعرفة والنهى، وغيرهم أهل دعوى، وقلوبهم خالية من التقوى. قال خالد بن شوذب: شهدت الحسن وأتاه فرقد، فأخذه الحسن بكسائه فمده إليه وقال: يا فريقد، يا ابن أم فريقد، إن البر ليس في هذا الكساء، إنما البر ما وقر في الصدر وصدقه العمل. ودخل أبو محمد ابن أخي معروف الكرخي على أبي الحسن بن يسار وعليه جبة صوف، فقال له أبو الحسن: يا أبا محمد، صوفت قلبك أو جسمك؟ صوف قلبك والبس القوهي [٣] على القوهي. وقال رجل للشبلي: قد ورد جماعة من أصحابك وهم في الجامع، فمضى فرأى عليهم المرقعات والفوط، فأنشأ يقول:

أَما الخيامُ فَإنهَا كَخيامِهِم ... وَأرى نِسَاءُ الحيِّ غيرِ نِسَائِه

قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله: وأنا أكره لبس الفوط والمرقعات لأربعة أوجه: أحدها: أنه ليس من لبس السلف، وإنما كانوا يرقعون ضرورة. والثاني: أنه يتضمن ادعاء الفقر، وقد أمر الإنسان أن يظهر أثر نعم الله عليه. والثالث: إظهار التزهد؛ وقد أمرنا بستره. والرابع: أنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة. ومن تشبه بقوم فهو منهم وقال الطبري: ولقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان مع وجود السبيل إليه من حله. ومن أكل البقول والعدس واختاره على خبز البر. ومن ترك أكل اللحم خوفا من عارض شهوة النساء، وسئل بشر بن الحارث عن لبس الصوف، فشق عليه وتبينت الكراهة في وجهه ثم قال: لبس الخز والمعصفر أحب إلي من لبس الصوف في الأمصار. وقال أبو الفرج: وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة، لا المترفعة ولا الدون، ويتخيرون أجودها للجمعة والعيد وللقاء الإخوان، ولم يكن تخير الأجود عندهم قبيحا. وأما اللباس الذي يزري بصاحبه فإنه يتضمن إظهار الزهد وإظهار الفقر، وكأنه لسان شكوى من الله تعالى، ويوجب احتقار اللابس؛ وكل ذلك مكروه منهي عنه. فإن قال قائل: تجويد اللباس هوى النفس وقد أمرنا بمجاهدتها، وتزين للخلق وقد أمرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخلق. فالجواب ليس كل ما تهواه النفس يذم، وليس كل ما يتزين به للناس يكره، وإنما ينهى عن ذلك إذا كان الشرع قد

(١) سيراء : في النهاية : بكسر السين نوع من البرود (الثياب) يخالطه حرير كالسيور .
(٢) صحيح : البخاري (٨٨٦) في الجمعة ، مسلم (٢٠٦٨) في اللباس .
(٣) القوهي : منسوب إلى كوهستان (بلاد فارس) كما في اللسان .

نهى عنه أو على وجه الرياء في باب الدين. فإن الإنسان يجب أن يرى جميلا، وذلك حظ للنفس لا يلام فيه. ولهذا يسرح شعره وينظر في المرآة ويسوي عمامته ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى داخل وظهارته الحسنة إلى خارج. وليس في شيء من هذا ما يكره ولا يذم. وقد روى مكحول عن عائشة قالت: كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه على الباب، فخرج يريدهم، وفي الدار ركوة فيها ماء؛ فجعل ينظر في الماء ويسوي لحيته وشعره. فقلت: يا رسول الله، وأنت تفعل هذا؟ قال: «نعم إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال»(١). وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة. قال: «إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس»(٢). والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، تدل كلها على النظافة وحسن الهيئة. وقد روى محمد بن سعد أخبرنا الفضل بن دكين قال: حدثنا مندل عن ثور عن خالد بن معدان قال: كان رسول الله ﷺ يسافر بالمشط والمرآة والدهن والسواك والكحل(٣). وعن ابن جريج: مشط عاج يمتشط به. قال ابن سعد: وأخبرنا قبيصة بن عقبة قال حدثنا سفيان عن ربيع بن صبيح عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يكثر دهن رأسه ويسرح لحيته بالماء(٤). أخبرنا يزيد بن هارون حدثنا عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانت لرسول الله ﷺ مكحلة يكتحل بها عند النوم ثلاثا في كل عين(٥).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ الطيبات اسم عام لما طاب كسبا وطعما. قال ابن عباس وقتادة: يعني بالطيبات من الرزق ما حرم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي. وقيل: هي كل مستلذ من الطعام. وقد اختلف في ترك الطيبات والإعراض عن اللذات؛ فقال قوم: ليس ذلك من القربات، والفعل والترك يستوي في المباحات. وقال آخرون: ليس قربة في ذاته، وإنما هو سبيل إلى الزهد في الدنيا، وقصر الأمل فيها، وترك التكلف لأجلها؛ وذلك مندوب إليه، والمندوب قربة. وقال آخرون: ونقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: لو شئنا لاتخذنا صلاء وصلائق وصنابا، ولكني سمعت الله تعالى يذم أقواما فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]. ويروى «صرائق» بالراء، وهما جميعا الجرادق(٦). والصلائق «باللام»: ما يلصق من اللحوم والبقول. والصلاء «بكسر الصاد والمد»: الشواء. والصناب: الخردل بالزبيب. وفرق آخرون بين

---

(١) ضعيف: للإرسال، وإن كان اللفظ الأخير قد ثبت كما في الحديث التالي، وانظر تلبيس إبليس بتحقيقي صـ ٣٥١ لابن الجوزي ـ رحمه الله ـ.

(٢) صحيح: مسلم (٩١) في الإيمان.

(٣) مرسل ضعيف: ومندل هذا ضعيف كما في التقريب.

(٤) ضعيف: وفيه يزيد الرقاشي، ورواه الترمذي (٣٢) في الشمائل وفيه الربيع بن صبيح: وهو صدوق سيء الحفظ وضعفه العراقي في تخريجه على الإحياء (٢/ ٤١٤).

(٥) ضعف الألباني هذه الزيادة ضمن حديث رقم (١٧٥٧) في اللباس و (٢٠٤٨) في الطب عند الترمذي، وابن ماجه (٣٤٩٩) في الطب.

(٦) الجرادق: في اللسان: ج (جردقة) وهو الرغيف، فارسية معربة.

حضـور ذلك كله بكلفة وبغير كـلفة. قال أبو الحسن علي بن المفـضل المقدسي شيخ أشـياخنا: وهو الصحيح إن شاء الـله عز وجل؛ فإنه لم ينقل عن النبي ﷺ أنه امتنع من طعـام لأجل طيبه قط، بل كان يأكل الحلوى والعسل والبطيخ والرطب، وإنما يكره التكلف لما فيه من التشاغل بشهوات الدنيا عن مهمات الآخرة. والله تعالى أعلم.

قلت: وقد كره بعض الصـوفية أكل الطيبات؛ واحتج بقـول عمر رضي الله عنه: إياكم واللحم فإن له ضراوة كضراوة الخمر [١]. والجواب أن هذا من عمر قول خرج على من خشي منه إيثار التنعم في الدنيا، والمداومة على الشهوات، وشفاء النفـس من اللذات، ونسيان الآخرة والإقبال على الدنيا، ولذلك كان يكتب عمر إلى عماله: إياكم والتنعم وزي أهل العجم، واخشوشنوا [٢]. ولم يرد رضي الله عنه تحريم شـيء أحله الله، ولا تحظير ما أباحـه الله تبارك اسـمه. وقول الله عـز وجل أولى ما امتثل واعتمـد عليه. قال الله تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾. وقال عليه السلام: «سيد إدام الدنيا والآخرة اللحم» [٣]. وقد روى هشام بن عروة عن أبيـه عن عائشة أن النبي ﷺ كان يأكل الطبيخ بالرطب ويقول: «يكسر حر هذا برد هذا وبرد هذا حر هذا» [٤]. والطبيخ لغة في البطيخ، وهو من المقلوب. وقد مضى في «المائدة» الرد على من آثر أكل الخشن من الطعام. وهذه الآية ترد عليه وغيرها والحمد لله.

الرابعة: قوله تـعالى ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني بحـقها من تـوحيد الله تـعالى والتصديق له؛ فإن الله ينعم ويرزق، فإن وحده المنعم عليه وصدقه فقد قام بحق النعمة، وإن كفر فقد أمكن الشيطان من نفـسه. وفي صحـيح الحديث «لا أحد أصبـر على أذى من الله يعافيـهم ويرزقهم وهم يدعون له الصـاحبة والولد» [٥]. وتم الكلام على ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. ثم قال: «خـالصةٌ» بالرفع وهي قراءة ابن عباس ونافع. ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يخلص الله الطيبـات في الآخرة للذين آمنوا، وليس للمشركين فـيها شيء كما كان لـهم في الدنيا من الاشتراك فيهـا. ومجاز الآية: قل هي للذين آمنوا مشتركة في الدنيا مع غـيرهم، وهي للمؤمنين خالصة يوم القيامة. فخالصـة مستأنف على خبر مبتدأ مضـمر. وهذا قول ابن عباس والضحاك والحسن وقتـادة والسدي وابن جريج وابن زيد. وقيل: المعنى أن هذه الطيبات الموجودات في الـدنيا هي خالصة يوم القيامة، للمـؤمنين في الدنيا؛ وخلوصها أنهم لا يعاقبون عليها ولا يعذبون فقوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بـ ﴿آمنوا﴾. وإلى هذا يشير تفسير سعيد بن جبير. وقـرأ الباقون بالنصب على الحال والقطع؛ لأن الكلام قد تم دونه. ولا يجوز الوقف على هذه القـراءة على «الدنيا»؛ لأن ما بعـده متـعلق بقول ﴿آمَنُوا﴾ حال منه؛ بتقـدير قل هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيـا في حال خلوصها لهم يوم القيامة؛ قـاله أبو علي. وخبر الابتداء ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾. والعالم في الحال ما في اللام من معنى الفعل في قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾ واختار سيبويه النصب لتقدم الظرف. ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي كالذي فصلت لكم الحلال والحرام أفصل لكم ما تحتاجون إليه.

---

(١) منقطع : مالك (٥٢/ ٩٣٥) في الموطأ من طريق يحيى بن سعيد عن عمر ولم يسمع منه .
(٢) إسناد رجاله ثقات : أحمد (٦٣٩) في الزهد ـ بتحقيقي وترقيمي طـ ـ دار الحديث.
(٣) ضعيف جدًا : الطبراني عن بريدة وانظر ضعيف الجامع (٣٣١٦) للألباني ـ رحمه الله.
(٤) صحيح : أبو داود (٣٨٣٦) في الأطعمة ، والترمذي (١٨٥٠) في الأطعمة وصححه الألباني هناك .
(٥) صحيح : البخاري (٦٠٩٩) في الأدب ، مسلم (٢٨٠٤) في صفات المنافقين عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه .

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قال الكلبي: لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عيرهم المشركون؛ فنزلت هذه الآية.

والفواحش: الأعمال المفرطة في القبح، ما ظهر منها وما بطن. وروى روح بن عبادة عن زكريا بن إسحاق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ نكاح الأمهات في الجاهلية. ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزنى. وقال قتادة: سرها وعلانيتها. وهذا فيه نظر؛ فإنه ذكر الإثم والبغي فدل أن المراد بالفواحش. بعضها، وإذا كان كذلك فالظاهر من الفواحش الزنى[1]. والله أعلم. ﴿وَالإِثْمَ﴾ قال الحسن: الخمر. قال الشاعر:

شَربتُ الإثم حَتى ضلَّ عَقْلِي كَذاكَ الإثمُ تذهبُ بِالعقُولِ

وقال آخر:

نشَربُ الإثَم بِالصواعِ جِهَارَا وَترى المسكَ بيننَا مُسْتعَارَا

﴿وَالْبَغْيَ﴾ الظلم وتجاوز الحد فيه. وقد تقدم. وقال ثعلب: البغي أن يقع الرجل في الرجل فيتكلم فيه، ويبغي عليه بغير الحق؛ إلا أن ينتصر منه بحق. وأخرج الإثم والبغي من الفواحش وهما منه لعظمهما وفحشهما؛ فنص على ذكرهما تأكيدا لأمرهما وقصدا للزجر عنهما. وكذا ﴿وإن تشركوا﴾، ﴿وإن تقولوا﴾ وهما في موضع نصب عطفا على ما قبل. وقد أنكر جماعة أن يكون الإثم بمعنى الخمر. قال الفراء: الإثم ما دون الحد والاستطالة على الناس. قال النحاس: فأما أن يكون الإثم الخمر فلا يعرف ذلك، وحقيقة الإثم أنه جميع المعاصي؛ كما قال الشاعر:

إِنِي وجدتُ الأمَرَ أرشُدُهُ تَقوى الإِلـهَ وشرَّه الإثمُ

قلت: وأنكره ابن العربي أيضا وقال: «ولا حجة في البيت؛ لأنه لو قال: شربت الذنب أو شربت الوزر لكان كذلك، ولم يوجب قوله أن يكون الذنب والوزر اسما من أسماء الخمر كذلك، الإثم. والذي أوجب التكلم بمثل هذا الجهل باللغة وبطريق الأدلة في المعاني».

قلت: وقد ذكرناه عن الحسن. وقال الجوهري في الصحاح: وقد يسمى الخمر إثما، وأنشد:

شَربتُ الإثمَ. . . . . . البيت

وأنشده الهروي في غريبيه، على أن الخمر الإثم. فلا يبعد أن يكون الإثم يقع على جميع المعاصي وعلى الخمر أيضا لغة، فلا تناقض. والبغي: التجاوز في الظلم، وقيل: الفساد.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

فيه مسألة واحدة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي وقت مؤقت. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي الوقت المعلوم عند الله عز وجل. وقرأ ابن سيرين: «جاء آجالهم» بالجمع ﴿لا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ساعة ولا أقل من ساعة؛

(١) واهٍ: الكلبي متهم بالكذب إذا أسند وكيف وقد تفرد ؟! وانظر تفسير البغوي (٣/ ٢٢٥).

إلا أن الساعة خصت بالذكر لأنها أقل أسماء الأوقات، وهي ظرف زمان. ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فدل بهذا على أن المقتول إنما يقتل بأجله، وأجل الموت هو وقت الموت؛ كما أن أجل الدين هو وقت حلوله. وكل شيء وقت به شيء فهو أجل له، وأجل الإنسان هو الوقت الذي يعلم الله أنه يموت الحي فيه لا محالة. وهو وقت لا يجوز تأخير موته عنه، لا من حيث إنه ليس مقدورا تأخيره. وقال كثير من المعتزلة إلا من شذ منهم: إن المقتول مات بغير أجله الذي ضرب له، وإنه لو لم يقتل لحيي. وهذا غلط، لأن المقتول لم يمت من أجل قتل غيره له، بل من أجل ما فعله الله من إزهاق نفسه عند الضرب له، فإن قيل: فإن مات بأجله فلم تقتلون ضاربه وتقتصون منه؟. قيل له: نقتله لتعديه وتصرفه فيما ليس له أن يتصرف فيه، لا لموته وخروج الروح إذ ليس ذلك من فعله، ولو ترك الناس والتعدي من غير قصاص لأدى ذلك إلى الفساد ودمار العباد. وهذا واضح.

﴿يَا بَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ شرط. ودخلت النون توكيدا لدخول «ما». وقيل: ما صلة، أي إن يأتكم. أخبر أنه يرسل إليهم الرسل منهم لتكون إجابتهم أقرب. والقصص اتباع الحديث بعضه بعضا. ﴿آيَاتِي﴾ أي فرائضي وأحكامي.

قوله تعالى ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ شرط، وما بعده جوابه، وهو جواب الأول. أي وأصلح منكم ما بيني وبينه. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ دليل على أن المؤمنين يوم القيامة لا يخافون ولا يحزنون، ولا يلحقهم رعب ولا فزع. وقيل: قد يلحقهم أهوال يوم القيامة، ولكن مآلهم الأمن. وقيل: جواب ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ما دل عليه الكلام، أي فأطيعوهم ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ والقول الأول قول الزجاج.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ المعنى أي ظلم أشنع من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بآياته. ثم قال ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي ما كتب لهم من رزق وعمر وعمل [(١)]؛ عن ابن زيد. ابن جبير: من شقاء وسعادة [(٢)]. ابن عباس: من خير وشر [(٣)]. الحسن وأبو صالح: من العذاب بقدر كفرهم [(٤)]. واختيار الطبري أن يكون المعنى: ما كتب لهم، أي ما قدر

(١) كذا بنحوه في تفسير الطبري (٨/ ١٧٩) بسند حسن أو صحيح إليه. (٢) حسن: السابق (٨/ ١٧٧).
(٣) ضعيف إلى ابن عباس: الطبري (٨/ ١٧٨) في تفسيره وفيه جابر الجعفي، وهو ضعيف، ومن طريق ابن أبي حاتم (٦/ ٢٧).
(٤) انظر قبل السابق.

لهم من خير وشر ورزق وعمل وأجل؛ على ما تقدم عن ابن زيد وابن عباس وابن جبير. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يعني رسل ملك الموت. وقيل: «الكتاب» هنا القرآن؛ لأن عذاب الكفار مذكور فيه. وقيل «الكتاب» اللوح المحفوظ. ذكر الحسن بن علي الحلواني قال: أملى علي علي بن المديني قال: سألت عبدالرحمن بن مهدي عن القدر فقال لي: كل شيء بقدر، والطاعة والمعصية بقدر، وقد أعظم الفرية من قال: إن المعاصي ليست بقدر. قال علي: وقال لي عبدالرحمن بن مهدي: العلم والقدر والكتاب سواء. ثم عرضت كلام عبدالرحمن بن مهدي على يحيى بن سعيد فقال: لم يبق بعد هذا قليل ولا كثير. وروى يحيى بن معين حدثنا مروان الفزاري حدثنا إسماعيل بن سميع عن بكير الطويل عن مجاهد عن ابن عباس ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قال: قوم يعملون أعمالا لا بد لهم من أن يعملوها [1]. و﴿حتى﴾ ليست غاية، بل هي ابتداء خبر عنهم. قال الخليل وسيبويه: حتى وإما وألا لا يُملْن لأنهن حروف فَرْقٌ بينها وبين الأسماء نحو حبلى وسكرى، قال الزجاج: تكتب حتى بالياء لأنها أشبهت سكرى، ولو كتبت: ألا بالياء لأشبهت إلى، ولم تكتب إما بالياء لأنها ﴿إن﴾ ضمت إليها ما. ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ سؤال توبيخ. ومعنى ﴿تَدْعُونَ﴾ تعبدون. ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي بطلوا وذهبوا، قيل: يكون هذا في الآخرة. ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أي: أقروا بالكفر على أنفسهم.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ أي مع أمم؛ فـ «في» بمعنى مع. وهذا لا يمتنع؛ لأن قولك: زيد في القوم، أي مع القوم. وقيل: هي على بابها، أي ادخلوا في جملتهم. والقائل قيل: هو الله عز وجل، أي قال الله ادخلوا. وقيل: هو مالك خازن النار. ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ أي التي سبقتها إلى النار، وهي أختها في الدين والملة. ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي اجتمعوا. وقرأ الأعمش «تداركوا» وهو الأصل، ثم وقع الإدغام فاحتيج إلى ألف الوصل. وحكاها المهدوي عن ابن مسعود. النحاس: وقرأ ابن مسعود: «حتى إذا ادركوا» أي أدرك بعضهم بعضا. وعصمة عن أبي عمرو «حتى إذا ادّاركوا» بإثبات الألف على الجمع بين الساكنين. وحكى: هذان عبد الله. وله ثلثا المال. وعن أبي عمرو أيضا: «إذا اداركوا» بقطع ألف الوصل؛ فكأنه سكت على «إذا» للتذكر، فلما طال سكوته قطع ألف الوصل؛ كالمبتدئ بها. وقد جاء في الشعر قطع ألف الوصل نحو قوله:

يَا نفَسِ صَبْرًا كُل حي لاقِي وَكُلُّ اثْنينِ إِلَى افْتِرَاقِ

(١) انظر التخريج الأخير نفسه.

وعن مجاهد وحميد بن قيس : «حتى إذ ادركوا» بحذف ألف «إذا» لالتقاء الساكنين، وحذف الألف التي بعد الدال. ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال. ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾ أي آخرهم دخولا وهم الأتباع لأولاهم وهم القادة. ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ فاللام في ﴿لِأُولَاهُمْ﴾ لام أجل؛ لأنهم لم يخاطبوا أولاهم ولكن قالوا في حق أولاهم: ربنا هؤلاء أضلونا. والضعف المثل الزائد على مثله مرة أو مرات. وعن ابن مسعود أن الضعف ههنا الأفاعي والحيات. ونظير هذه الآية ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٨]. وهناك يأتي ذكر الضعف بأبشع من هذا وما يترتب عليه من الأحكام، إن شاء الله تعالى. ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي للتابع والمتبوع. «وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ» على قراءة من قرأ بالياء؛ أي لا يعلم كل فريق ما بالفريق الآخر، إذ لو علم بعض من في النار أن عذاب أحد فوق عذابه لكان نوع سلوة له. وقيل: المعنى: ﴿وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ بالتاء، أي ولكن لا تعلمون أيها المخاطبون ما يجدون من العذاب. ويجوز أن يكون المعنى ولكن لا تعلمون يا أهل الدنيا مقدار ما هم فيه من العذاب: ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي قد كفرتم وفعلتم كما فعلنا، فليس تستحقون تخفيفا من العذاب ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي لأرواحهم. جاءت بذلك أخبار صحاح ذكرناها في كتاب «التذكرة». منها حديث البراء بن عازب [١]، وفيه في قبض روح الكافر قال: ويخرج منها ريح كأنتن جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة. فيقولون فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون فلا يفتح لهم، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ الآية. وقيل: لا تفتح لهم أبواب السماء إذا دعوا [٢]؛ قاله مجاهد والنخعي. وقيل: المعنى لا تفتح لهم أبواب الجنة؛ لأن الجنة في السماء. ودل على ذلك قوله: ﴿وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ والجمل لا يلج فلا يدخلونها ألبتة. وهذا دليل قطعي لا يجوز العفو عنهم. وعلى هذا أجمع المسلمون الذين لا يجوز عليهم الخطأ أن الله سبحانه وتعالى لا يغفر لهم ولا لأحد منهم. قال القاضي أبو بكر بن الطيب: فإن قال قائل: كيف يكون هذا إجماعا من الأمة؟ وقد زعم قوم من المتكلمين بأن مقلدة اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر ليسوا في النار. قيل له: هؤلاء قوم أنكروا أن يكون المقلد كافرا لشبهة دخلت عليهم، ولم يزعموا أن المقلد كافر وأنه مع ذلك ليس في النار، والعلم بأن المقلد كافر أو غير كافر طريقه النظر دون التوقيف

(١) الحديث صحيح : وهو مشهور بحديث البراء بن عازب الجامع لأحوال الموتى ، وقد رواه أبو داود (٤٧٥٣) في السنة ، وأحمد (٤/ ٢٨٧، ٢٩٥) وصححه الألباني رحمه الله ـ .

(٢) ذكره الطبري (٨/ ١٨٣) .

والخبر. وقرأ حمزة والكسائي«لا يفتح» بالياء مضمومة على تذكير الجمع. وقرأ الباقون بالتاء على تأنيث الجماعة؛ كما قال: ﴿مُفَتَّحَةً لَّهُمُ الأبْوَابُ﴾ [ص: ٥٠] فأنث. ولما كان التأنيث في الأبواب غير حقيقي جاز تذكير الجمع. وهي قراءة ابن عباس بالياء وخفف أبو عمرو وحمزة والكسائي، على معنى أن التخفيف يكون للقليل والكثير، والتشديد للتكثير والتكرير مرة بعد مرة لا غير، والتشديد هنا أولى لأنه على الكثير أدل. والجمل من الإبل. قال الفراء: الجمل زوج الناقة. وكذا قال عبد الله بن مسعود لما سئل عن الجمل فقال: هو زوج الناقة؛ كأنه استجهل من سأله عما يعرفه الناس جميعا. والجمع جمال وأجمال وجمالات وجمائل. وإنما يسمى جملا إذا أربع. وفي قراءة عبدالله «حتى يلج الجمل الأصفر في سم الخياط». ذكره أبو بكر الأنباري حدثنا أبي حدثنا نصر بن داود حدثنا أبو عبيد حدثنا حجاج عن ابن جريج عن ابن كثير عن مجاهد قال في قراءة عبدالله. . . ؛ فذكره. وقرأ ابن عباس: «الجُمَّل» بضم الجيم وفتح الميم وتشديدها. وهو حبل السفينة الذي يقال له القلس، وهو حبال مجموعة، جمع جملة؛ قاله أحمد بن يحيى ثعلب. وقيل: الحبل الغليظ من القنب. وقيل: الحبل الذي يصعد به في النخل. وروي عنه أيضا وعن سعيد بن جبير«الجُمَل» بضم الجيم وتخفيف الميم هو القلس أيضا والحبل، على ما ذكرنا آنفا. وروي عنه أيضا «الجُمُل» بضمتين جمع جمل؛ كأسد وأسد، والجمل مثل أسَد وأسْد، وعن أبي السمال «الجُمْل» بفتح الجيم وسكون الميم، تخفيف «جمل». وسم الخياط: ثقب الإبرة؛ عن ابن عباس وغيره. وكل ثقب لطيف في البدن يسمى سَمّا وسُما وجمعه سُموم. وجمع السم القاتل سمام. وقرأ ابن سيرين: «في سُم» بضم السين. والخياط: ما يخاط به؛ يقال: خياط ومخيط؛ مثل إزار ومئزر وقناع ومقنع. و«المهاد» الفراش، و«غواش» جمع غاشية، أي نيران تغشاهم. ﴿وكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ يعني الكفار. والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ كلام معترض، أي والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون، ومعنى ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ أي أنه لم يكلف أحدا من نفقات الزوجات إلا ما وجد وتمكن منه، دون ما لا تناله يده، ولم يرد إثبات الاستطاعة قبل الفعل؛ قال ابن الطيب: نظيره ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧]

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ذكر الله عز وجل فيما ينعم به على أهل الجنة نزع الغل من صدورهم. والنزع: الاستخراج. والغل: الحقد الكامن في الصدر. والجمع غلال. أي أذهبنا في الجنة ما كان في قلوبهم من الغل في

الدنيا. قال النبي ﷺ: «الغل على باب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين»(١). وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾(٢). وقيل: نزع الغل في الجنة ألا يحسد بعضهم بعضا في تفاضل منازلهم. وقد قيل: إن ذلك يكون عن شراب الجنة، ولهذا قال: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أي يطهر الأوضار من الصدور؛ على ما يأتي بيانه في سورة «الإنسان» و«الزمر» إن شاء الله تعالى. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ أي لهذا الثواب؛ بأن أرشدنا وخلق لنا الهداية. وهذا رد على القدرية. « ما كنا » قراءة ابن عامر بإسقاط الواو. والباقون بإثباتها. ﴿لِنَهْتَدِيَ﴾ لام كي. ﴿لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ في موضع رفع. ﴿ونُودُوا﴾ أصله. نوديوا «أن» في موضع نصب مخففة من الثقيلة؛ أي بأنه ﴿تِلْكُمُ﴾ وقد تكون تفسيرا لما نودوا به؛ لأن النداء قول؛ فلا يكون لها موضع. أي قيل لهم ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾ لأنهم وعدوا بها في الدنيا؛ أي قيل لهم: هذه تلكم الجنة التي وعدتم بها، أو يقال ذلك قبل الدخول حين عاينوها من بعد. وقيل ﴿تِلْكُمُ﴾ بمعنى هذه. ومعنى ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ورثتم منازلها بعملكم، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله. كما قال ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٠]. وقال ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء: ١٧٥] وفي صحيح مسلم: «لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة » قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»(٣). وفي غير الصحيح: ليس من كافر ولا مؤمن إلا وله في الجنة والنار منزل؛ فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار رفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها، فقيل لهم: هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله. ثم يقال: يأهل الجنة رثوهم بما كنتم تعملون؛ فتقسم بين أهل الجنة منازلهم(٤).

قلت: وفي صحيح مسلم: «لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا»(٥). فهذا أيضا ميراث؛ نعم بفضله من شاء وعذب بعدله من شاء. وبالجملة فالجنة ومنازلها لا تنال إلا برحمته؛ فإذا دخلوها بأعمالهم فقد ورثوها برحمته، ودخلوها برحمته؛ إذ أعمالهم رحمة منه لهم وتفضل عليهم. وقرئ: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ من غير إدغام. وقرئ بإدغام التاء في الثاء(٦).

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ هذا سؤال تقريع وتعيير. ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ مثل ﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾ أي: أنه قد وجدنا. وقيل: هو نفس النداء. ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي نادى وصوت؛ يعني من

(١) لم أجده هكذا.

(٢) رواه الطبري (٨/ ١٩١) في تفسيره وفيه انقطاع، وانظر البيهقي (٨/ ٧٣) والحاكم (٢/ ٣٨٥) بنحوه.

(٣) صحيح: البخاري (٦٤٦٣) في الرقاق، مسلم (٢٨١٦) في الجنة عن أبي هريرة رضى الله عنه.

(٤) هذا له أصلٌ من حديث رسول الله ﷺ الصحيح وانظر التالي، قلت: ورواه الطبري (٨/ ١٩٣) عن السّدي بسند حسن إليه وإن كان منقطعًا بينه وبين النبي ﷺ.

(٥) صحيح: مسلم (٢٧٦٧) في التوبة عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه.

(٦) قراءة متواترة وانظر البحر المحيط (٤/ ٣٠).

الملائكة. «بينهم» ظرف؛ كما تقول: أعلم وسطهم. وقرأ الأعمش والكسائي«نعم» بكسر العين وتجوز على هذه اللغة بإسكان العين. قال مكي: من قال «نعم» بكسر العين أراد أن يفرق بين «نعم» التي هي جواب وبين «نعم» التي هي اسم للإبل والبقر والغنم. وقد روي عن عمر إنكار «نعم» بفتح العين في الجواب، وقال: قل نَعِم ، ونَعَمْ ونَعِمْ ، لغتان بمعنى العدة والتصديق. فالعدة إذا استفهمت عن موجب نحو قولك: أيقوم زيد؟ فيقول نعم. والتصديق إذا أخبرت عما وقع، تقول: قد كان كذا وكذا، فيقول نعم. فإذا استفهمت عن منفي فالجواب بلى نحو قولك: ألم أكرمك، فيقول: بلى. فنعم لجواب الاستفهام الداخل على الإيجاب كما في هذه الآية. وبلى، لجواب الاستفهام الداخل على النفي؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وقرأ البزي وابن عامر وحمزة والكسائي «أن لعنة الله» وهو الأصل. وقرأ الباقون بتخفيف «أن» ورفع اللعنة على الابتداء. فـ «أن» في موضع نصب على القراءتين على إسقاط الخافض. ويجوز في المخففة ألا يكون لها موضع من الإعراب، وتكون مفسرة كما تقوم. وحكي عن الأعمش أنه قرأ « إن لعنة الله » بكسر الهمزة؛ فهذا على إضمار القول كما قرأ الكوفيون « فناداه الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله» ويروى أن طاوسا دخل على هشام بن عبدالملك فقال له: اتق الله واحذر يوم الأذان. فقال: وما يوم الأذان؟ قال: قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فصعق هشام. فقال طاوس: هذا ذل الصفة فكيف ذل المعاينة.

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله تعالى﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في موضع خفض لـ ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ على النعت. ويجوز الرفع والنصب على إضمار هم أو أعني. أي الذين كانوا يصدون في الدنيا الناس عن الإسلام. فهو من الصد الذي هو المنع. أو يصدون بأنفسهم عن سبيل الله أي يعرضون. وهذا من الصدود. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يطلبون اعوجاجها ويذمونها فلا يؤمنون بها. وقد مضى هذا المعنى. ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أي وكانوا بها كافرين، فحذف وهو كثير في الكلام.

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ أي بين النار والجنة - لأنه جرى ذكرهما - حاجز؛ أي سور. وهو السور الذي ذكره الله في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد: ١٣] . ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ أي على أعراف السور؛ وهي شرفه. ومنه عرف الفرس وعرف الديك. روى عبدالله بن أبي يزيد عن ابن عباس أنه قال: الأعراف: الشيء المشرف[1] . وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: الأعراف سور له عرف كعرف الديك[2] . والأعراف في اللغة: المكان المشرف؛ جمع عرف. قال يحيى بن آدم: سألت

(١) إسناد حسن : الطبري (٨/ ١٩٦) في التفسير، وسعيد بن منصور (٩٥٧) في التفسير، وابن أبي حاتم (٨٤٩٣).
(٢) ضعيف : الطبري (٨/ ١٩٧) وفي إسناده جابر الجعفي ، ثم فيه جهالة في بعض طرقه ، ورواه ابن أبي حاتم (٨٤٩١) ، وهناك (٢٠٤) في الزهد .

الكسائي عن واحد الأعراف فسكت، فقلت: حدثنا إسرائيل عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس قال: الأعراف سور له عـرف كعرف الديك [١]. فقال: نعم والله، واحده يعني، وجـماعتـه أعراف، يا غلام، هات القرطاس؛ فكتبه. وهذا الكلام خرج مـخرج المدح؛ كما قال فيه: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور:٣٧] وقد تكلم العلماء في أصحاب الأعراف على عشرة أقوال: فقال عبدالله ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وابن عـباس والشعبي والضحاك وابن جبير: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم [٢]. قال ابن عطية: وفي مسند خيثمة بن سليمان «في آخر الجزء الخامس عشر» حديث عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئـاته مثقال صؤابة دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حـسناته مثقال صؤابة دخل النار»، قيل: يا رسول الله، فمن استوت حـسناته وسيئاته؟ قال: «أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون» [٣]. وقال مجاهد: هم قوم صالحون فقهاء علماء [٤]. وقيل: هم الشهداء؛ ذكره المهـدوي. وقال القشـيري: وقيل: هم فـضلاء المؤمنين والشـهداء، فرغـوا من شغل أنفـسهم، وتفرغوا لمطالعة حال الناس؛ فإذا رأوا أصحاب النار تعوذوا بالله أن يردوا إلى النار، فإن في قدرة الله كل شيء، وخلاف المعلوم مـقدور. فإذا رأوا أهل الجنة وهم لم يدخلوها بعد يرجـون لهم دخولها. وقال شرحبيل بن سعد: هم المستشهدون في سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم [٥]. وذكر الطبري في ذلك حديثا عن النبي ﷺ، وأنه تعادل عقوقهـم واستشهادهم [٦]. وذكر الثعلبي بإسناده عن ابن عبـاس في قوله عـز وجل: ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ قال: الأعراف مـوضع عال على الصـراط، عليه العبـاس وحمزة وعلي بن أبي طالب وجعـفر ذو الجناحين [٧]، رضي الله عنهم، يعرفـون محبـيهم ببياض الوجوه ومبـغضيهم بسواد الوجوه. وحكى الزهراوي أنهم عدول القيـامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، وهم في كل أمة، واخـتار هذا القول النحاس، وقال: وهو من أحسن ما قيل فيه؛ فهم على السور بين الجنة والنار، وقال الزجاج: هم قوم أنبياء. وقيل: هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهم بالآلام والمصائب في الدنيـا وليست لهم كبائر فيحبسـون عن الجنة لينالهم بذلك غم فيقع في مقابلة صغائرهم. وتمنى سالم مولى أبي حـذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف؛ لأن مذهبه أنهم

---

(١) انظر السابق .

(٢) الإسناد إلى حذيفـة صحيح: وقد صـححه الحاكم (٢/ ٣٥٠) في المستـدرك ووافقه الذهبي ، وإلى ابن مـسعود ضعيف ففيه أبـو بكر الهذلي وهو متروك كما في تفسير الطبري (٨/ ١٩٨) ورواه منقطعًـا بين قتادة وابن عباس وفي الإسناد وبين الضحاك وابن عباس . في الضحاك جوبير وهو متروك ، والإسناد إلى ابن جبير حسن .

(٣) ضعيف جـدًا : ابن كثير (٣/ ٣٠١) وقال : غـريب ، وفيه سليمان بن داود ، وأبو عـباد وهما ضعيـفان وعزاه لابن مردويه عن جابر رضى الله عنه ، والصؤابة : بيضة القملة .

(٤) في إسناده نظر : الطبري (٨/ ٢٠١) في تفسيره .

(٥) انظر السابق / نفسه .

(٦) ضعيف : الطبري (٨/ ٢٠١) في تفسـيره عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيـه وقال الهيثمي (٧/ ٢٣، ٢٤) في المجمع : رواه الطبراني وفيـه أبو معشر : نجيح (السندي) وهو ضعيـف ، قلت : وانظر ضعيف الجامع (٨٨٤) للألباني ـ رحمه الله ـ . قلت : وعبد الرحمن هذا هو : عبد الرحمن المُزني .

(٧) ضعيف : وانظر البحر المحيط (٤/ ٣٢) لأبي حيان .

مذنبون. وقيل: هم أولاد الزنى؛ ذكره القشيري عن ابن عباس. وقيل: هم ملائكة موكلون بهذا السور، يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار؛ ذكره أبو مجلز (١). فقيل له: لا يقال للملائكة رجال؟ فقال: إنهم ذكور وليسوا بإناث، فلا يبعد إيقاع لفظ الرجال عليهم؛ كما أوقع على الجن في قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]. فهؤلاء الملائكة يعرفون المؤمنين بعلاماتهم والكفار بعلاماتهم؛ فيبشرون المؤمنين قبل دخولهم الجنة وهم لم يدخلوها بعد فيطمعون فيها. وإذا رأوا أهل النار دعوا لأنفسهم بالسلامة من العذاب. قال ابن عطية (٢): واللازم من الآية أن على الأعراف رجالا من أهل الجنة يتأخر دخولهم ويقع لهم ما وصف من الاعتبار في الفريقين. و﴿يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي بعلاماتهم، وهي بياض الوجوه وحسنها في أهل الجنة، وسوادها وقبحها في أهل النار، إلى غير ذلك من معرفة حيز هؤلاء وحيز هؤلاء.

قلت: فوقف عن التعيين لاضطراب الأثر والتفصيل، والله بحقائق الأمور عليم، ثم قيل: الأعراف جمع عرف وهو كل عال مرتفع؛ لأنه بظهوره أعرف من المنخفض، قال ابن عباس: الأعراف شرف الصراط. وقيل: هو جبل أحد يوضع هناك. قال ابن عطية (٣): وذكر الزهراوي حديثا أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدا جبل يحبنا ونحبه وإنه يوم القيامة يمثل بين الجنة والنار يحبس عليه أقوام يعرفون كلا بسيماهم هم إن شاء الله من أهل الجنة». وذكر حديثا آخر عن صفوان بن سليم أن النبي ﷺ قال: «إن أحدا على ركن من أركان الجنة» (٤).

قلت: وذكر أبو عمر عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «أحد جبل يحبنا ونحبه وإنه لعلى ترعة من ترع الجنة» (٥).

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي نادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة. ﴿أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي قالوا لهم سلام عليكم. وقيل: المعنى سلمتم من العقوبة. ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف، أي لم يدخلوها بعد. ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ على هذا التأويل بمعنى وهم يعلمون أنهم يدخلونها. وذلك معروف في اللغة أن يكون طمع بمعنى علم؛ ذكره النحاس. وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما، أن المراد أصحاب الأعراف. وقال أبو مجلز: هم أهل الجنة، أي قال لهم أصحاب الأعراف: سلام عليكم وأهل الجنة لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في دخولها للمؤمنين المارين على أصحاب الأعراف، والوقف على قوله: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾. وعلى قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾. ثم يبتدئ ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ على معنى وهم يطمعون في دخولها. ويجوز أن يكون ﴿وهم يطمعون﴾ حالا، ويكون المعنى: لم يدخلها المؤمنون المارون على أصحاب الأعراف طامعين، وإنما دخلوها غير طامعين في دخولها؛ فلا يوقف على ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾.

(١) انظر الطبري (٨/ ٢٠١) في تفسيره.

(٢) تفسير ابن عطية (٥/ ٥١٦).

(٣) أوله صحيح ثابت عن النبي ﷺ عن سهل بن سعد عند البخاري وبقيته لم أقف عليه.

(٤) ضعيف: الطبراني في الكبير (٦/ ١٨٦) وفيه عبد الله بن جعفر والد علي بن المديني وهو: ضعيف.

(٥) ضعيف جدًا: ابن ماجه (٣١١٥) في المناسك وضعفه الألباني هناك غير أن شطره الأول صحيح عند الترمذي عن أنس رضى الله عنه.

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي جهة اللقاء وهي جهة المقابلة. ولم يأت مصدر على تفعال غير حرفين: تلقاء وتبيان. والباقي بالفتح؛ مثل تسيار وتهمام وتذكار. وأما الاسم بالكسر فيه فكثير؛ مثل تقصار وتمثال. ﴿قَالُوا﴾ أي قال أصحاب الأعراف. ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ سألوا الله ألا يجعلهم معهم، وقد علموا أنه لا يجعلهم معهم. فهذا على سبيل التذلل؛ كما يقول أهل الجنة: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨] ويقولون: الحمد لله. على سبيل الشكر لله عز وجل. ولهم في ذلك لذة.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي من أهل النار. ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي للدنيا واستكباركم عن الإيمان. ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ﴾ إشارة إلى قوم من المؤمنين الفقراء؛ كبلال وسلمان وخباب وغيرهم. ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ في الدنيا. ﴿لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ﴾ في الآخرة. ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ يوبخونهم بذلك. وزيدوا غما وحسرة بأن قالوا لهم ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾. وقرأ عكرمة: «دخلوا الجنة» بغير ألف والدال مفتوحة. وقرأ طلحة بن مصرف «أدخِلوا الجنة» بكسر الخاء على أنه فعل ماض.

ودلت الآية على أن أصحاب الأعراف ملائكة أو أنبياء؛ فإن قولهم ذلك إخبار عن الله تعالى ومن جعل أصحاب الأعراف المذنبين كان آخر قولهم لأصحاب النار ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ويكون ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ﴾ إلى آخر الآية من قول الله تعالى لأهل النار توبيخا لهم على ما كان من قولهم في الدنيا. وروي عن ابن عباس، والأول عن الحسن. وقيل: هو من كلام الملائكة الموكلين بأصحاب الأعراف؛ فإن أهل النار يحلفون أن أصحاب الأعراف يدخلون معهم النار فتقول الملائكة لأصحاب الأعراف: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى ﴿وَنَادَىٰ﴾ قيل: إذا صار أهل الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار فقالوا: يا ربنا إن لنا قرابات في الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم. وأهل الجنة لا يعرفونهم لسواد وجوههم، فيقولون: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ فبين أن ابن آدم لا يستغني عن الطعام والشراب وإن كان في العذاب. ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعني طعام الجنة وشرابها. والإفاضة

التوسعة؛ يقال: أفاض عليه نعمه.

الثانية : في هذه الآية دليل على أن سقي الماء من أفضل الأعمال، وقد سئل ابن عباس: أي الصدقة أفضل؟ فقال: الماء، ألم تروا إلى أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾؟. وروى أبو داود أن سعدا أتى النبي ﷺ فقال: أي الصدقة أعجب إليك؟ قال: «الماء»(١). وفي رواية: فحفر بئرا فقال: «هذه لأم سعد» (٢). وعن أنس قال: قال سعد: يا رسول الله، إن أم سعد كانت تحب الصدقة، أفينفعها أن أتصدق عنها؟ قال: «نعم وعليك بالماء» (٣). وفي رواية أن النبي ﷺ أمر سعد بن عبادة أن يسقي عنها الماء (٤). فدل على أن سقي الماء من أعظم القربات عند الله تعالى. وقد قال بعض التابعين: من كثرت ذنوبه فعليه بسقي الماء. وقد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب، فكيف بمن سقى رجلا مؤمنا موحدا وأحياه. روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينا رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها ثم خرج فإذا كلب يأكل الثرى من العطش فقال: لقد بلغ هذا الكلب مثل الذي بلغ بي فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرا؟ قال: «في كل ذات كبد رطبة أجر» (٥). وعكس هذا ما رواه مسلم عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض» (٦). وفي حديث عائشة عن النبي ﷺ «ومن سقى مسلما شربة من ماء حيث يوجد الماء فكأنما أعتق رقبة، ومن سقى مسلما شربة من ماء حيث لا يوجد الماء فكأنما أحياها» (٧). خرجه ابن ماجة في السنن.

الثالثة : وقد استدل بهذه الآية من قال: إن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه، وأن له منعه ممن أراده؛ لأن معنى قول أهل الجنة: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لا حق لكم فيها. وقد بوب البخاري رحمه الله على هذا المعنى: باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه ، وأدخل في الباب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لأذودن رجالا عن حوضي كما تذاد الغريبة من الإبل عن الحوض» (٨). قال المهلب: لا خلاف أن صاحب الحوض أحق بمائه؛ لقوله عليه السلام: «لأذودن رجالا عن حوضي».

---

(١) حسن : أبو داود (١٦٧٩) في الزكاة وحسنه الألباني هناك .
(٢) حسن ؛ السابق (١٦٨١) .
(٣، ٤) انظر السابق .
(٥) صحيح : البخاري (٢٣٦٣) في الشرب والمساقاة ، ومسلم (٢٢٢٤) في السلام .
(٦) صحيح : البخاري (٣٤٨٢) في أحاديث الأنبياء ، مسلم (٢٢٤٢) في السلام و(خشاش الأرض) : هوامها .
(٧) ضعيف : ابن ماجه (٢٤٧٤) في الرهون وضعفه الألباني هناك .
(٨) صحيح : البخاري (٢٣٦٧) في الشرب والمساقاة ، مسلم (٢٣-٢) في الفضائل .

﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع خفض نعت لـ﴿الْكَافِرِينَ﴾ وقد يكون رفعا ونصبا بإضمار قيل: هو من قول أهل الجنة. ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ أي نتركهم في النار. ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي تركوا العمل به وكذبوا به. و﴿مَا﴾ مصدرية، أي كنسيهم. ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ عطف عليه، أي وجحدهم.

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ﴾ يعني القرآن. ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ أي بيناه حتى يعرفه من تدبره. وقيل: ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ أنزلناه متفرقا. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منا به، لم يقع فيه سهو ولا غلط. ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ قال الزجاج: أي: هاديا وذا رحمة، فجعله حالا من الهاء التي في ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾. قال الزجاج: ويجوز هدى ورحمة، بمعنى هو هدى ورحمة. وقيل: يجوز هدى ورحمة بالخفض على البدل من كتاب. وقال الكسائي والفراء: ويجوز هدى ورحمة بالخفض على النعت لكتاب. قال الفراء: مثل: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥] ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خص المؤمنون لأنهم المنتفعون به.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ بالهمز، من آل، وأهل المدينة يخففون الهمزة. والنظر: الانتظار، أي هل ينتظرون إلا ما وعدوا به في القرآن من العقاب والحساب. وقيل ﴿يَنظُرُونَ﴾ من النظر إلى يوم القيامة، فالكناية في ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ ترجع إلى الكتاب. وعاقبة الكتاب ما وعد الله فيه من البعث والحساب. وقال مجاهد «تأويله» جزاؤه [١]، أي جزاء تكذيبهم بالكتاب، قال قتادة ﴿تَأْوِيلُهُ﴾ عاقبته [٢]. والمعنى متقارب. ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ أي تبدو عواقبه يوم القيامة. و«يوم» منصوب بـ ﴿يَقُولُ﴾، أي يقول الذين نسوه من قبل يوم يأتي تأويله. ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ﴾ استفهام فيه معنى التمني. ﴿فَيَشْفَعُوا﴾ نصب لأنه جواب الاستفهام. ﴿لَنَا أَوْ نُرَدُّ﴾ قال الفراء: المعنى أو هل نرد ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ قال الزجاج: ﴿نُرَدُّ﴾ عطف على المعنى، أي: هل يشفع لنا أحد أو نرد. وقرأ ابن إسحاق «أو نردَ فنعملَ» بالنصب فيهما. والمعنى إلا أن نرد؛ كما قال:

فَقلتُ لَهُ لا تبكِ عينُكَ إنما ... نُحاولُ مُلكا أوْ نموتُ فنعذرَا

وقرأ الحسن «أو نردُ فنعملُ» برفعهما جميعا. ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: فلم ينتفعوا بها، وكل من لم ينتفع بنفسه فقد خسرها. وقيل: خسروا النعم وحظ أنفسهم منها. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: بطل ما كانوا يقولون من أن مع الله إلها آخر.

(١، ٢) الطبري (٨/ ٢١٢) في تفسيره.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ بين أنه المنفرد بقدرة الإيجاد، فهو الذي يجب أن يعبد. وأصل «ستة» سدسة، فأرادوا إدغام الدال في السين فالتقيا عند مخرج التاء فغلبت عليهما. وإن شئت قلت: أبدل من إحدى السينين تاء وأدغم في الدال؛ لأنك تقول في تصغيرها: سديسة، وفي الجمع أسداس، والجمع والتصغير يردان الأسماء إلى أصولها. ويقولون: جاء فلان سادسا وسادتا وساتا؛ فمن قال: سادتا أبدل من السين تاء. واليوم: من طلوع الشمس إلى غروبها. فإن لم يكن شمس فلا يوم؛ قال القشيري. وقال: ومعنى ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي من أيام الآخرة، كل يوم ألف سنة؛ لتفخيم خلق السموات والأرض. وقيل: من أيام الدنيا. قال مجاهد وغيره: أولها الأحد وآخرها الجمعة [1]. وذكر هذه المدة ولو أراد خلقها في لحظة لفعل؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون. ولكنه أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور، ولتظهر قدرته للملائكة شيئا بعد شيء. وهذا عند من يقول: خلق الملائكة قبل خلق السموات والأرض. وحكمة أخرى - خلقها في ستة أيام لأن لكل شيء عنده أجلا. وبين بهذا ترك معاجلة العصاة بالعقاب؛ لأن لكل شيء عنده أجلا. وهذا كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨، ٣٩]. بعد أن قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ [ق: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ هذه مسألة الاستواء؛ وللعلماء فيها كلام وإجراء. وقد بينا أقوال العلماء فيها في الكتاب (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، وصفاته العلا) وذكرنا فيها هناك أربعة عشر قولا. والأكثر من المتقدمين والمتأخرين أنه إذا وجب تنزيه الباري سبحانه عن الجهة والتحيز فمن ضرورة ذلك ولواحقه اللازمة عليه عند عامة العلماء المتقدمين وقادتهم من المتأخرين تنزيهه تبارك وتعالى عن الجهة، فليس بجهة فوق عندهم؛ لأنه يلزم من ذلك عندهم متى اختص بجهة أن يكون في مكان أو حيز، ويلزم على المكان والحيز الحركة والسكون للمتحيز، والتغير والحدوث، هذا قول المتكلمين، وقد كان السلف الأول رضي الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله. ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة. وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته، قال مالك رحمه الله: الاستواء معلوم - يعني في اللغة - والكيف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة، وكذا قالت أم سلمة رضي الله عنها. وهذا القدر كاف، ومن أراد زيادة عليه فليقف عليه في موضعه من كتب العلماء. والاستواء في كلام العرب هو العلو

(١) انظر الطبري (٨/ ٢١٢) في تفسيره.

والاستقرار. قال الجوهري: واستوى من اعوجاج، واستوى على ظهر دابته؛ أي استقر. واستوى إلى السماء أي قصد. واستوى أي استولى وظهر. قال:

قَدْ اسْتوى بِشرٌ عَلَى العِرَاقِ ... مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَم مهْرَاقِ (١)

واستوى الرجل أي انتهى شبابه. واستوى الشيء إذا اعتدل. وحكى أبو عمر بن عبدالبر عن أبي عبيدة في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] قال: علا. وقال الشاعر:

فَـأوردتهم مَاء بِفيفَاء قفْرَةٍ ... وَقَدْ حَلَّق النجمُ اليمانِي فاسْتَوىَ

أي علا وارتفع.

قلت: فعلو الله تعالى وارتفاعه عبارة عن علو مجده وصفاته وملكوته، أي ليس فوقه فيما يجب له من معاني الجلال أحد، ولا معه من يكون العلو مشتركا بينه وبينه؛ لكنه العلي بالإطلاق سبحانه (٢).

قوله تعالى: ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ لفظ مشترك يطلق على أكثر من واحد. قال الجوهري وغيره: العرش سرير الملك. وفي التنزيل ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١]، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. والعرش: سقف البيت. وعرش القدم: ما نتأ في ظهرها وفيه الأصابع. وعرش السماك: أربعة كواكب صغار أسفل من العواء، يقال: إنها عجز الأسد. وعرش البئر: طيها بالخشب، بعد أن يطوى أسفلها بالحجارة قدر قامة؛ فذلك الخشب هو العرش، والجمع عروش. والعرش اسم لمكة. والعرش الملك والسلطان. يقال: ثل عرش فلان إذا ذهب ملكه وسلطانه وعزه. قال زهير:

تَداركتما عَبْسًا وَقَدْ ثل عَرشُهَا ... وَذبيان إذْ ذلت بِأقدَامِهَا النعلُ

وقد يؤول العرش في الآية بمعنى الملك، أي ما استوى الملك إلا له جل وعز. وهو قول حسن وفيه نظر، وقد بيناه في جملة الأقوال في كتابنا. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي يجعله كالغشاء، أي يذهب نور النهار ليتم قوام الحياة في الدنيا بمجيء الليل. فالليل للسكون، والنهار للمعاش. وقرئ «يغشّى» بالتشديد؛ ومثله في «الرعد». وهي قراءة أبي بكر عن عاصم وحمزة والكسائي. وخفف الباقون. وهما لغتان أغشى وغشى. وقد أجمعوا على ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٤] مشددا. وأجمعوا على ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ [يس: ٩] فالقراءتان متساويتان. وفي التشديد معنى التكرير والتكثير. والتغشية والإغشاء: إلباس الشيء الشيء. ولم يذكر في هذه الآية دخول النهار على الليل، فاكتفى بأحدهما عن الآخر، مثل ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾

(١) هذا البيت منحول، وليس من شعر العرب، وقد سمعه أهل الذمة فأنكروه غاية الإنكار، ولم يجعلوه من لغة العرب، وقال ابن الأعرابي: (هل يصح أن يكون استوى بمعنى استولى؟) فقال: لا تعرف العرب ذلك وهو من مرانة اللغة. كذا في مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٤٨٩) لابن الجوزي ـ رحمه الله ـ. قلت: وقد قال العلامة ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: أنه يلزم من قولهم الاستيلاء لوازم باطلة مثل: أن العرش لم يكن ملكًا لله ثم استولى عليه بعد (شرح لمعة الاعتقاد ص ٣٧ بتحقيقي) وقال السلف: هو استواء حقيقي معناه العلو والاستقرار على وجه يليق بالله تعالى.

(٢) هذا كلام لايصح والأصح هو علو حقيقي في صفاته وذاته سبحانه وتعالى وهو ما دلت عليه الآيات والأحاديث وإجماع السلف، كما يدل عليه العقل لأن الاستواء والفوقية صفات كمال له سبحانه وتعالى.

obeikandi.com

[النحل: ٨١]. ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وقرأ حميد بن قيس ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ ومعناه أن النهار يغشي الليل.

قوله تعالى: ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ أي: يطلبه دائما من غير فتور، في موضع نصب على الحال. والتقدير: استوى على العرش مغشيا الليل النهار. وكذا ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ حال من الليل؛ أي يغشي الليل النهار طالبا له. ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة ليست بحال و ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾، ﴿حَثِيثًا﴾ بدل من طالب المقدر أو نعت له، أو نعت لمصدر محذوف؛ أي يطلبه طلبا سريعا. والحث: الإعجال والسرعة. وولى حثيثا أي مسرعا. ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ قال الأخفش: هي معطوفة على السموات؛ أي وخلق الشمس. وروي عن عبدالله بن عامر بالرفع فيها كلها على الابتداء والخبر.

قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ صدق الله في خبره، فله الخلق وله الأمر، خلقهم وأمرهم بما أحب. وهذا الأمر يقتضي النهي. قال ابن عيينة: فرق بين الخلق والأمر؛ فمن جمع بينهما فقد كفر. فالخلق المخلوق، والأمر كلامه الذي هو غير مخلوق وهو قوله ﴿كن﴾. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وفي تفرقته بين الخلق والأمر دليل بين على فساد قول من قال بخلق القرآن؛ إذ لو كان كلامه الذي هو أمر مخلوقا لكان قد قال: ألا له الخلق والخلق، وذلك عي من الكلام ومستهجن ومستغث، والله يتعالى عن التكلم بما لا فائدة فيه، ويدل عليه قوله سبحانه. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]. ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فأخبر سبحانه أن المخلوقات قائمة بأمره؛ فلو كان الأمر مخلوقا لافتقر إلى أمر آخر يقوم به، وذلك الأمر إلى أمر آخر إلى ما لا نهاية له، وذلك محال. فثبت أن أمره الذي هو كلامه قديم أزلي غير مخلوق؛ ليصح قيام المخلوقات به. ويدل عليه أيضا قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]. وأخبر تعالى أنه خلقهما بالحق، يعني القول وهو قوله للمكونات ﴿كن﴾. فلو كان الحق مخلوقا لما صح أن يخلق به المخلوقات؛ لأن الخلق لا يخلق بالمخلوق. يدل عليه ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]. وهذا كله إشارة إلى السبق في القول في القدم، وذلك يوجب الأزل في الوجود، وهذه النكتة كافية في الرد عليهم. ولهم آيات احتجوا بها على مذهبهم، مثل قوله تعالى ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] الآية. ومثل قوله تعالى ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]. و ﴿مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨] وما كان مثله. قال القاضي أبو بكر: معنى ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ أي من وعظ من النبي ﷺ ووعد وتخويف ﴿إلا استمعوه وهم يلعبون﴾؛ لأن وعظ الرسل صلوات الله عليهم وسلامه وتحذيرهم ذكر. قال الله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١] ويقال: فلان في مجلس الذكر. ومعنى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ و ﴿مَفْعُولًا﴾ أراد سبحانه عقابه وانتقامه من الكافرين ونصره للمؤمنين وما حكم به وقدره من أفعاله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٤٠] وقال عز وجل: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧] يعني به شأنه وأفعال وطرائقه، قال الشاعر:

لَهَا أمرُهَا حَتَّى إذَا ما تبوأتْ بِأخْفافِهَا مَرعى تَبوأ مَضْجَعَا

الثانية : وإذا تقرر هذا فاعلم أن الأمر ليس من الإرادة في شيء، والمعتزلة تقول: الأمر نفس الإرادة. وليس بصحيح، بل يأمر بما لا يريد وينهى عما يريد. ألا ترى أنه أمر إبراهيم بذبح ولده ولم يرده منه، وأمر نبيه أن يصلي مع أمته خمسين صلاة، ولم يرد منه إلا خمس صلوات. وقد أراد شهادة حمزة حيث يقول﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. وقد نهى الكفار عن قتله ولم يأمرهم به. وهذا صحيح نفيس في بابه، فتأمله.

قوله تعالى﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل، من البركة وهي الكثرة والاتساع، يقال: بورك الشيء وبورك فيه؛ قال ابن عرفة: وقال الأزهري: «تبارك» تعالى وتعاظم وارتفع. وقيل: إن باسمه يتبرك ويتيمن. وقد مضى في الفاتحة معنى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١].

﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ هذا أمر بالدعاء وتعبد به، ثم قرن جل وعز بالأمر صفات تحسن معه، وهي الخشوع والاستكانة والتضرع. ومعنى ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي سرا في النفس ليبعد عن الرياء؛ وبذلك أثنى على نبيه زكريا عليه السلام إذ قال مخبرا عنه﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم:٣]. ونحوه قول النبي ﷺ: «خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي» (١). والشريعة مقررة أن السر فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجرا من الجهر، قال الحسن بن أبي الحسن: لقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض عمل يقدرون على أن يكون سرا فيكون جهرا أبدا. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء فلا يسمع لهم صوت، إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم (٢). وذلك أن الله تعالى يقول﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾. وذكر عبدا صالحا رضي فعله فقال﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم:٣]. وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذا على أن إخفاء « آمين » أولى من الجهر بها؛ لأنه دعاء. وقد مضى القول فيه في «الفاتحة». وروى مسلم عن أبي موسى قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر - وفي رواية في غزاة - فجعل الناس يجهرون بالتكبير - وفي رواية فجعل رجل كلما علا ثنية قال: لا إله إلا الله - فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لستم تدعون أصم ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم»، الحديث (٣).

الثانية : واختلف العلماء في رفع اليدين في الدعاء؛ فكرهه طائفة منهم جبير بن مطعم وسعيد ابن المسيب وسعيد بن جبير. ورأى شريح رجلا رافعا يديه فقال: من تتناول بهما، لا أم لك! وقال مسروق لقوم رفعوا أيديهم: قطعها الله، واختاروا إذا دعا الله في حاجة أن يشير بأصبعه السبابة. ويقولون: ذلك الإخلاص. وكان قتادة يشير بأصبعه ولا يرفع يديه، وكره رفع الأيدي عطاء وطاوس

(١) ضعيف : أحمد (١/ ١٧٢) عن سعد رضى الله عنه وانظر ضعيف الجامع (٢٨٨٧) .
(٢) ذكره ابن أبي شيبة بنحوه (٧/ ١٧٨) في المصنف .
(٣) صحيح : البخاري (٢٩٩٢) في الجهاد ، ومسلم (٢٧٠٤) في الذكر والدعاء .

ومجاهد وغيرهم. وروى جواز الرفع عن جماعة من الصحابة والتابعين، وروي عن النبي ﷺ؛ ذكره البخاري. قال أبـو موسى الأشعري: دعا النبي ﷺ ثم رفع يديه ورأيت بياض إبطيه (١). ومثله عن أنس (٢). وقال ابن عمر: رفع النبي ﷺ يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» (٣). وفي صحيح مسلم من حـديث عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وسبعـة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة مادا يديه، فجعل يهتف بربه؛ وذكر الحديث (٤). وروى الترمذي عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه (٥). قال: هذا حديث صحيح غـريب، وروى ابن ماجة عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «إن ربكم حيي كريم يستحيي من عبده أن يرفع يديه إليـه فيردهما صفرا، أو قال خائبتين» (٦). احتج الأولون بما رواه مسلم عن عمارة بن رويبة ورأى بشر بن مروان على المنبر رافعا يديه فقال: قبح الله هاتين اليـدين، لقد رأيـت رسـول الله ﷺ مـا يزيد على أن يقول بيـده هكذا؛ وأشار بأصبعـه المسبحة (٧). وبما روى سعيـد بن أبي عروبة عن قتادة أن أنس بن مـالك حدثه أن النبي ﷺ كان لا يرفع يديه في شيء من الدعـاء إلا عند الاستـسقاء فـإنه كان يرفـعهمـا حتى يرى بيـاض إبطيه (٨). والأول أصح طرقا وأثبت من حـديث سعيد بن أبي عـروبة؛ فإن سعيـدا كان قد تغير عـقله في آخر عمره. وقد خالفـه شعبة في روايته عن قتادة عن أنس بن مـالك فقال فيه: كان رسول الله ﷺ يرفع يديه حتى يرى بيـاض إبطيه (٩). وقد قـيل: إنه إذا نزلت بالمسلمين نازلة أن الرفع عند ذلك جـميل حسن كما فعل النبي ﷺ في الاستسقاء ويوم بدر.

قلت: والدعاء حسن كيـفما تيسر، وهو المطلوب من الإنسان لإظهار موضع الفـقر والحاجة إلى الله عز وجل، والتذلل له والخضـوع. فإن شاء استقبل القبلة ورفع يديه فحـسن، وإن شاء فلا؛ فقد فـعل ذلك النبي ﷺ حـسبـما ورد في الأحـاديث. وقـد قال تعـالى ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]. ولم يرد صـفة من رفع يدين وغـيرها. وقـال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ [آل عمران: ١٩١] فمدحهم ولم يشترط حالـة غير ما ذكر. وقد دعا النبي ﷺ في خطبته يوم الجمعة وهو غير مستقبل القبلة (١٠).

الثالـثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ يريد في الدعاء وإن كان اللـفظ عاما إلى هذا هي

---

(١) صحيح: البخاري (٤٣٢٣) في المغازي، ومسلم (٢٤٩٨) في فضائل الصحابة.
(٢) صحيح: البخاري (١٠٣١) في الاستسقاء، ومسلم (٨٩٥/ ٥) في الاستسقاء.
(٣) صحيح: البخاري (٤٣٣٩) في المغازي.
(٤) صحيح: مسلم (١٧٦٣) في الجهاد.
(٥) ضعيف: الترمذي (٣٣٧٦) في الدعوات.
(٦) صحيح: أبو داود (١٤٨٨) في الصلاة، والترمذي (٣٥٥٦) في الدعوات، وابن ماجه (٣٨٦٥) في الدعاء وصححه الألباني في هذه المواضع جميعًا.
(٧) صحيح: مسلم (٨٧٤) في الجمعة.
(٨) صحيح: سبق قبل خمسة أحاديث.
(٩) صحيح: علقه البخاري (٦٣٤١) في الدعوات، ووصله مسلم (٨٩٥) في الاستسقاء.
(١٠) صحيح: البخاري (١٠١٤) في الاستسقاء، ومسلم (٨٩٧) في الاستسقاء عن أنس رضي الله عنه.

الإشارة، والمعتدي هو المجاوز للحد ومرتكب الحظر. وقد يتفاضل بحسب ما اعتدى فيه، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء» (١). أخرجه ابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة، حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا سعيد الجريري عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: أي بني، سل الله الجنة وعذ به من النار؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء» (٢). والاعتداء في الدعاء على وجوه: منها الجهر الكثير والصياح؛ كما تقدم. ومنها أن يدعو الإنسان في أن تكون له منزلة نبي، أو يدعو في محال؛ ونحو هذا من الشطط، ومنها أن يدعو طالبا معصية وغير ذلك. ومنها أن يدعو بما ليس في الكتاب والسنة؛ فيتخير ألفاظا مفقرة وكلمات مسجعة قد وجدها في كراريس لا أصل لها ولا معول عليها، فيجعلها شعاره ويترك ما دعا به رسوله عليه السلام. وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء، كما تقدم بيانه في «البقرة».

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فيه مسألة واحدة ـ وهو أنه سبحانه نهى عن كل فساد قل أو كثر بعد صلاح قل أو كثر. فهو على العموم على الصحيح من الأقوال، وقال الضحاك: معناه لا تعوروا (٣) الماء المعين، ولا تقطعوا الشجر المثمر ضرارًا. وقد ورد: قطع الدنانير من الفساد في الأرض، وقد قيل: تجارة الحكام من الفساد في الأرض. وقال القشيري: المراد ولا تشركوا؛ فهو نهي عن الشرك وسفك الدماء والهرج في الأرض، وأمر بلزوم الشرائع بعد إصلاحها، بعد أن أصلحها الله ببعثه الرسل، وتقرير الشرائع ووضوح ملة محمد ﷺ. قال ابن عطية (٤): وقائل هذه المقالة قصد إلى أكبر فساد بعد أعظم صلاح فخصه بالذكر.

قلت: وأما ما ذكره الضحاك فليس على عمومه، وإنما ذلك إذا كان فيه ضرر على المؤمن، وأما ما يعود ضرره على المشركين فذلك جائز؛ فإن النبي ﷺ قد عور ماء قليب (٥) بدر وقطع شجر الكافرين. وسيأتي الكلام في قطع الدنانير في «هود» إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب وتخوف وتأميل لله عز وجل، حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامته، وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان، قال الله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]. فرجى وخوف. فيدعو الإنسان خوفا من عقابه وطمعا في ثوابه؛ قال الله

(١، ٢) صحيح: أبو داود (٩٦) في الطهارة وفيه (في الطهور والدعاء) وابن ماجه (٣٨٦٤) في الدعاء.
(٣) ألمح إليه البغوي (٣/ ٢٣٨) في تفسيره، وتعوروا المياه: تسدوها.
(٤) انظر المحرر الوجيز (٥/ ٥٣٢) لابن عطية الأندلسي ـ رحمه الله ـ.
(٥) قليب: بفتح القاف، وكسر اللام: البئر التي لم تُطْو، يعني: التي لم تُبن بالحجارة (مختار الصحاح (١/ ٢٢٨). قلت: والحديث ثابت في الصحيح.

تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. وسيأتي القول فيه، والخوف: الانزعاج لما لا يؤمن من المضار. والطمع: توقع المحبوب؛ قاله القشيري، وقال بعض أهل العلم: ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طول الحياة، فإذا جاء الموت غلب الرجاء، قال النبي ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله» (١). صحيح أخرجه مسلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل قريبة. ففيه سبعة أوجه: أولها أن الرحمة والرحم واحد، وهي بمعنى العفو والغفران؛ قاله الزجاج واختاره النحاس. وقال النضر بن شميل: الرحمة مصدر، وحق المصدر التذكير؛ كقوله: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وهذا قريب من قول الزجاج؛ لأن الموعظة بمعنى الوعظ. وقيل: أراد بالرحمة الإحسان؛ ولأن ما لا يكون تأنيثه حقيقيا جاز تذكيره؛ ذكره الجوهري، وقيل: أراد بالرحمة هنا المطر؛ قاله الأخفش. قال: ويجوز أن يذكر كما يذكر بعض المؤنث، وأنشد:

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل إبقالها

وقال أبو عبيدة: ذكر ﴿قَرِيبٌ﴾ على تذكير المكان، أي مكانا قريبا. قال علي بن سليمان: وهذا خطأ، ولو كان كما قال لكان ﴿قَرِيبٌ﴾ منصوبا في القرآن؛ كما تقول: إن زيدا قريبا منك. وقيل: ذكر على النسب؛ كأنه قال: إن رحمة الله ذات قرب؛ كما تقول: امرأة طالق وحائض. وقال الفراء: إذا كان القريب في معنى المسافة يذكر ويؤنث، إن كان في معنى النسب يؤنث بلا اختلاف بينهم. تقول: هذه المرأة قريبتي، أي ذات قرابتي؛ ذكره الجوهري. وذكره غيره عن الفراء: يقال في النسب قريبة فلان، وفي غير النسب يجوز التذكير والتأنيث؛ يقال: دارك منا قريب، وفلانة منا قريب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وقال من احتج له: كذا كلام العرب؛ كما قال امرؤ القيس:

لَهُ الويلُ إن أمسَى وَلا أم هاشمٍ قَريب ولا البسباسَةُ ابنةُ يَشْكُرا

قال الزجاج: وهذا خطأ؛ لأن سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالهما.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ عطف على قوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الرعد: ٣]. ذكر شيئا آخر من نعمه، ودل على وحدانيته وثبوت إلهيته. ورياح جمع كثرة وأرواح جمع قلة. وأصل ريح روح. وقد خَطِئَ من قال في جمع القلة أرياح. ﴿بُشْرًا﴾ فيه سبع قراءات: قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو «نُشُرا» بضم النون والشين جمع ناشر على معنى النسب، أي ذات نشر؛ فهو مثل شاهد وشُهد. ويجوز أن يكون جمع نشور كرسول ورسل، يقال: ريح النشور إذا أتت من ههنا وهاهنا. والنشور بمعنى المنشور؛ كالركوب بمعنى المركوب، أي وهو الذي يرسل الرياح منشرة. وقرأ الحسن وقتادة: «نُشْرا» بضم النون وإسكان الشين مخففا من نشر؛ كما يقال: كتب ورسل. وقرأ

(١) صحيح: وقد سبق.

الأعمش وحمزة «نَشْـرا» بفتح النون وإسكان الشين على المصدر، أعمل فيه معنى مـا قبله؛ كأنه قال: وهو الذي ينشر الرياح نشرا. نشرت الشيء فانتشر، فكأنها كانت مطوية فنشرت عند الهبوب. ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال من الرياح؛ كأنه قال يرسل الرياح منشرة، أي محيية؛ من أنشر الله الميت فنشر، كما تقول أتانا ركضا، أي راكضا. وقد قيل: إن نَشْرا «بالفتح» من النشر الذي هو خلاف الطي على ما ذكرنا. كأن الريح في سكونهـا كالمطوية ثم ترسل من طيها ذلك فتصير كـالمنفتحة. وقد فسره أبو عبيـد بمعنى متفرقة في وجوهها، على معنى ينشرها ههـنا وهاهنا. وقرأ عاصم«بُشْرا» بالباء وإسكان الشين والتنوين جمع بشـير، أي الرياح تبشر بالمطر، وشـاهده قوله﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]. وأصل الشين الضم، لكن سكنت تخفيفا كرسل ورسل، وروي عنه «بَشْرا» بفتح الباء. قال النحاس: ويقرأ «بُشُرا» و«بَشْر مصدر بَشَره يبـشره بمعنى بشَّره» فهذه خمس قراءات. وقرأ محمد اليماني «بُشْرى» على وزن حُبْلى. وقراءة سابعة «بُشُرى» بضم الباء والشين.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ السحاب يذكر ويؤنث، وكذا كل جمع بينه وبين واحدته هاء. ويجوز نعته بواحـد فتقول: سحاب ثقيل وثقيلة. والمعنى: حملت الريح سحابا ثقالا بالماء، أي أثقلت بحمله. يقال: أقل فلان الشيء أي حمله. ﴿سُقْنَاهُ﴾ أي السحاب. ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي ليس فيه نبات. يـقال: سقـته لبلد كـذا وإلى بلد كـذا، وقيل: لأجل بلد ميت؛ فـاللام لام أجل. والبلد كل موضع من الأرض عامـر أو غير عامر خال أو مسكون، والبـلدة والبلد واحد البلاد والبلدان. والبلد الأثر وجمعه أبلاد ، قال الشاعر:

مِنْ بعدَ ما شَمِلَ البَلَى أبلادَهَا

والبلد: أدحي النعام، يقال: هو أذل من بيضة البـلد، أي من بيضة النعام التي يتـركها. والبلدة الأرض؛ يقال: هذه بلدتنا كـما يقال بحـرتنا. والبلدة من منازل القمـر، وهي ستـة أنجم من القوس تنزلها الشمس في أقصر يوم في السنة. والبلدة الصدر؛ يقال: فلان واسع البلدة أي واسع الصدر قال الشاعـر:

أنِيخَتْ فألقتْ بَلْدَةً فوقَ بلدةٍ قليلٍ بِهَا الأصْوَاتُ إلا بغامهَا

يقول: بركت الناقة فـألقت صدرها على الأرض. والبلدة «بفـتح الباء وضمـها»: نقاوة ما بين الحاجبين؛ فهمـا من الألفاظ المشتركة. ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ أي بالبلد. وقيل: أنزلنا بالسحاب الماء؛ لأن السحـاب آلة لإنزال الماء. ويحتـمل أن يكون المعنى فأنزلنا منه الماء؛ كـقوله: ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] أي منها. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الكاف في موضع نصب. أي مثل ذلك الإخراج نحيي الموتى. وخرج البيهقي وغيره عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله، كيف يعيـد الله الخلق، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «أما مررت بوادي قـومك جدبا ثم مررت به يهتز خضرا» قال: نعم، قال: «فتلك آية الله في خلقه»[1]. وقيل: وجه التشبيه أن إحياءهم من قبورهم يكون بمـطر يبعثه الله على قبـورهم، فتنشق عنهم القبور، ثم تـعود إليهم الأرواح. وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ «ثم يرسل الله - أو قال ينزل الله - مطرا

(١) حسن : أحمد (٤/ ١١) في المسند ، والطيالسي (١٠٨٩) في مسنده .

كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس ثم يقال: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، وقفوهم إنهم مسؤولون» (١). وذكر الحديث. وقد ذكرناه بكماله في كتاب (التذكرة) والحمد لله، فدل على البعث والنشور؛ وإلى الله ترجع الأمور.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝﴾

قوله تعالى ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾ أي التربة الطيبة. والخبيث الذي في تربته حجارة أو شوك؛ عن الحسن، وقيل: معناه التشبيه، شبه تعالى السريع الفهم بالبلد الطيب، والبليد بالذي خبث؛ عن النحاس، وقيل: هذا مثل للقلوب؛ فقلب يقبل الوعظ والذكرى، وقلب فاسق ينبو عن ذلك؛ قاله الحسن أيضا. وقال قتادة: مثل للمؤمن يعمل محتسبا متطوعا، والمنافق غير محتسب (٢)؛ قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عظما سمينا أو مرماتين (٣) حسنتين لشهد العشاء» (٤). ﴿نَكِدًا﴾ نصب على الحال، وهو العسر الممتنع من إعطاء الخير، وهذا تمثيل. قال مجاهد: يعني أن في بني آدم الطيب والخبيث. وقرأ طلحة «إلا نَكْدًا» حذف الكسرة لثقلها. وقرأ ابن القعقاع «نكَدا» بفتح الكاف (٥)، فهو مصدر بمعنى ذا نكد. كما قال:

فَـإنما هِي إقبالٌ وإدبَارُ

وقيل: «نكَدا» بنصب الكاف وخفضها بمعنى؛ كالدنَف والدنِف، لغتان. ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ أي: كما صرفنا من الآيات، وهي الحجج والدلالات، في إبطال الشرك؛ كذلك نصرف الآيات في كل ما يحتاج إليه الناس. ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ وخص الشاكرين لأنهم المنتفعون بذلك.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ لما بين أنه الخالق القادر على الكمال ذكر أقاصيص الأمم وما فيها من تحذير الكفار. واللام في ﴿لَقَدْ﴾ للتأكيد المنبه على القسم. والفاء دالة على أن الثاني بعد الأول. ﴿يَا قَوْمِ﴾ نداء مضاف. ويجوز «يا قومي» على الأصل. ونوح أول الرسل إلى الأرض بعد آدم عليهما السلام بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات. قال النحاس: وانصرف لأنه على ثلاثة أحرف. وقد يجوز أن يشتق من ناح ينوح؛ وقد تقدم في «آل عمران» هذا المعنى. قال ابن العربي (٦): ومن قال: إن إدريس كان قبله من المؤرخين فقد وهم. والدليل على

---

(١) صحيح : مسلم (٢٩٤٠) في الفتن .

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ٢٢١) .

(٣) المِرْماة : هي ظلف الشاة ، وقيل : ما بين ظلفيها وتكسر ميمه وتفتح . النهاية (٢/ ٢٦٩) لابن الأثير .

(٤) صحيح : البخاري (٦٤٤) في الأذان ، مسلم (٦٥١) في المساجد ومواضع الصلاة عن أبي هريرة رضى الله عنه .

(٥) صحيح إليه : الطبري (٨/ ٢٢٠) في تفسيره .

(٦) أحكام القرآن (٢/ ٧٨٥) للقاضي ابن العربى المالكي .

صحة وهمه الحديث الصحيح في الإسراء حين لقي النبي ﷺ آدم وإدريس فقال له آدم: «مرحبا بالنبي الصالح والابن الصـالح». وقال له إدريس: «مرحـبا بالنبي الصـالح والأخ الصالح» (١). فلو كان إدريس أبا لنوح لقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح. فلما قال له: والأخ الصالح دل ذلك على أنه يجتمع معه في نوح، صلوات الله عليهم أجمعين. ولا كلام لمنصف بعد هذا. قـال القاضي عياض: وجاء جواب الآباء ههنا كـنوح وإبراهيم وآدم «مرحبا بالابن الصالح». وقـال عن إدريس «بالأخ الصالح» كما ذكر عن موسى وعـيسى ويوسف وهارون ويحيى ممن ليس بأب باتفاق للنبي ﷺ. وقال المازري: قد ذكر المؤرخون أن إدريس جد نوح عليهما السلام. فإن قام الدليل على أن إدريس: بعث أيضا لم يصح قول النسابين أنه قبل نوح؛ لما أخبر عليه السلام من قول آدم أن نوحا أول رسول بعث، وإن لم يقم دليل جاز ما قالوا: وصح أن يحمل أن إدريس كان نبيا غير مرسل. قال القاضي عياض: قد يجمع بين هذا بأن يقال: اختص بعث نوح لأهـل الأرض - كما قـال في الحديث - كافـة كنبينا عليـه السلام. ويكون إدريس لقومه كمـوسى وهود وصالح ولوط وغيرهم. وقد استدل بعـضهم على هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الصافات: ١٢٣، ١٢٤]. وقد قيل: إن إلياس هو إدريس. وقد قرئ «سلام على إدراسين». قال القاضي عياض: وقد رأيت أبا الحسن بن بطال ذهب إلى أن آدم ليس برسول؛ ليسلم من هذا الاعتـراض. وحديث أبي ذر الطويل يدل على أن آدم وإدريس رسولان (٢). قال ابن عطية: ومجمع ذلك بأن تكون بعثة نوح مشـهورة لإصلاح الناس وحملهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان؛ فالمراد أنه أول نبي بعث على هذه الصفة. والله أعلم.

وروي عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام بعث وهو ابن أربعين سنة (٣). قال الكلبي: بعد آدم بثمانمائة سنة (٤). وقال ابن عباس: وبقي في قومه يدعـوهم ألف سنة إلا خمسين عاما؛ كمـا أخبر التنزيل. ثم عاش بعد الطوفان ستين سنة. حـتى كثر الناس وفشوا (٥). وقال وهب: بعث نوح وهو ابن خمسين سنة (٦). وقال عون بن شداد: بعث نوح وهو ابن ثلاثمائة وخمسين سنة (٧). وفي كثير من كتب الحديث: الترمذي وغيره أن جمـيع الخلق الآن من ذرية نوح عليه السلام. وذكر النقاش عن سليمـان بن أرقم عن الزهري: أن العـرب وفارس والروم وأهل الشـام وأهل اليمن من ولد سـام بن نوح. والسند والهند والزنج والحبـشة والزط والنوبة، وكل جلد أسود من ولد حـام بن نوح. والترك وبربر ووراء الصين ويأجـوج ومأجـوج والصقـالبة كلهم من ولـد يافث بن نوح. والخلق كلهم ذرية نوح.

قوله تعالى: ﴿مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ برفع «غيره» قراءة نافع وأبي عمـرو وعاصم وحمزة، أي ما لكم إله غيره، نعت على الموضع. وقيل«غير» بمعنى إلا؛ أي ما لكم من إله إلا الله. قال أبو عمرو: ما أعرف الجر ولا النصب. وقرأ الكسائي بالخفض على الموضع. ويجوز النصب على الاستثناء، وليس بكثير؛

---

(١) صحيح : البخاري (٣٤٩) في الصلاة ، ومسلم (١٦٣/ ٢٦٣) في كتاب الإيمان عن أنس رضى الله عنه .

(٢) ضعيف جدًا : وقد سبق .

(٣ ـ ٧) انظر تفسير البغوي (٣/ ٢٤٠) وما بعدها وهى أقوال، الله أعلم بصحتها فلا ترجيح لأحدها على الآخر حيث لم يرد بصحتها النص المنقول من كتاب أو سنة .

غير أن الكسائي والفراء أجازا نصب «غير» في كل موضع يحسن فيه «إلا» تم الكلام أو لم يتم. فأجازا: ما جاءني غيرك. قال الفراء: هي لغة بعض بني أسد وقضاعة. وأنشد:

لَمْ يمنعْ الشَّربَ منها غيرَ أنْ هتفَتْ حمامةٌ في سَحُوق ذاتِ أَوْقَالَ

قال الكسائي: ولا يجوز جاءني غيرك، في الإيجاب؛ لأن إلا لا تقع ههنا. قال النحاس: لا يجوز عند البصريين نصب «غير» إذا لم يتم الكلام. وذلك عندهم من أقبح اللحن.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ ﴾

الملأ: أشراف القوم ورؤساؤهم. وقد تقدم بيانه في «البقرة». والضلال والضلالة: العدول عن طريق الحق، والذهاب عنه. أي إنا لنراك في دعائنا إلى إله واحد في ضلال عن الحق. ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بالتشديد من التبليغ، وبالتخفيف من الإبلاغ. وقيل: هما بمعنى واحد لغتان؛ مثل كرمه وأكرمه. ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ النصح: إخلاص النية من شوائب الفساد في المعاملة، بخلاف الغش. يقال: نصحته ونصحت له نصيحة ونصاحة ونصحا. وهو باللام أفصح. قال الله تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ والاسم النصيحة. والنصيح الناصح، وقوم نصحاء. ورجل ناصح الجيب أي نقي القلب. قال الأصمعي: الناصح الخالص من العسل وغيره. مثل الناصع. وكل شيء خلص فقد نصح. وانتصح فلان أقبل على النصيحة. يقال: انتصحني إنني لك ناصح. والناصح الخياط. والنصاح السلك يخاط به. والنصاحات أيضا الجلود. قال الأعشى:

فَتَرى الشُّرب نَشَاوى كُلُّهم مِثل مَا مُدتْ نِصاحاتُ الرُّبَحْ

الربح لغة في الربع، وهو الفصيل. والربح أيضا طائر. وسيأتي لهذا زيادة معنى في «براءة» إن شاء الله تعالى.

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ فتحت الواو، لأنها واو عطف، دخلت عليها ألف الاستفهام للتقرير، وسبيل الواو أن تدخل على حروف الاستفهام إلا الألف لقوتها. ﴿أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ أي وعظ من ربكم. ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أي على لسان رجل، وقيل«على» بمعنى «مع»، أي مع رجل وقيل: المعنى أن جاءكم ذكر من ربكم منزل على رجل منكم، أي تعرفون نسبه، أي على رجل من جنسكم، ولو كان ملكا فربما كان في اختلاف الجنس تنافر الطبع. و﴿الْفُلْكِ﴾ يكون واحدا ويكون جمعا. وقد تقدم في «البقرة». و﴿عَمِينَ﴾ أي عن الحق [1]؛ قاله قتادة. وقيل: عن معرفة الله تعالى وقدرته، يقال: رجل عم بكذا، أي: جاهل.

(١) وجدته عند الطبري (٨/ ٢٢٢) موصولاً عن مجاهد وابن زيد وعند ابن أبي حاتم (٦/ ٨٦) موصولاً عن مجاهد.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا. قال ابن عباس: أي: ابن أبيهم. وقيل: أخاهم في القبيلة. وقيل: أي بشرا من بني أبيهم آدم. وفي مصنف أبي داود أن أخاهم هودا أي: صاحبهم. وعاد من ولد سام بن نوح. قال ابن إسحاق: وعاد هو ابن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام. وهود هو هود بن عبدالله بن رباح بن الجلود بن عاد ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح. بعثه الله إلى عاد نبيا. وكان من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا. و﴿عَادٍ﴾ من لم يصرفه جعله اسما للقبيلة، ومن صرفه جعله اسما للحي. قال أبو حاتم: وفي حرف أبي وابن مسعود «عاد الأولى» [النجم: ٥٠] بغير ألف، و«هود» أعجمي، وانصرف لخفته؛ لأنه على ثلاثة أحرف، وقد يجوز أن يكون عربيا مشتقا من هاد يهود. والنصب على البدل. وكان بين هود ونوح فيما ذكر المفسرون سبعة آباء. وكانت عاد فيما روي ثلاث عشرة قبيلة، ينزلون الرمال، رمل عالج [1]. وكانوا أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت بلادهم أخصب البلاد، فسخط الله عليهم فجعلها مفاوز. وكانت فيما روي بنواحي حضرموت إلى اليمن، وكانوا يعبدون الأصنام. ولحق هود حين أهلك قومه بمن آمن معه بمكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا. ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي في: حمق وخفة عقل. قال:

مَشيَن كَمَا اهتزتْ رِماحٌ تسفهتْ أعاليهَا مَر الرياحِ النَّواسِمِ

وقد تقدم هذا المعنى في «البقرة». والرؤية هنا وفي قصة نوح قيل: هي من رؤية البصر. وقيل: ويجوز أن يراد بها الرأي الذي هو أغلب الظن.

قوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ ﴿خُلَفَاءَ﴾ جمع خليفة على التذكير والمعنى، وخلائف على اللفظ، من عليهم بأن جعلهم سكان الأرض بعد قوم نوح. ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ ويجوز ﴿بَصْطَةً﴾ بالصاد لأن بعدها طاء؛ أي طولا في الخلق وعظم الجسم. قال ابن عباس: كان أطولهم مائة ذراع، وأقصرهم ستين ذراعا [2]. وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم. وقيل: على خلق قوم نوح. قال وهب: كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة، وكان عين الرجل يفرخ فيها السباع.

---

(١) رمل عالج: موضع في الحجاز كما في معجم البلدان (٤/ ٧٠) لياقوت.

(٢) هذا باطل: ولو صحّ فإن معناه تكذيب النبي ﷺ في الخبر من الصحيح عنه «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعًا...» وفي نهاية الحديث قال: «... فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن» كذا عند البخاري (٣٣٢٦) في أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٨٤١) في الجنة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وكذلك مناخرهم [١]. وروى شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: أن كان الرجل من قوم عاد يتخذ المصراعين من حجارة لو اجتمع عليها خمسمائة رجل من هذه الأمة لم يطيقوه، وأن كان أحدهم ليغمز برجله الأرض فتدخل فيها [٢]. ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعم الله، واحدها إلى وإلي وإلو وألى. كالآناء واحدها إنىً وإنيٌ وإنوٌ وأنىً. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تقدم.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٧٠ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ٧١ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ٧٢﴾

طلبوا العذاب الذي خوفهم به وحذرهم منه. فقال لهم ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ﴾ ومعنى وقع أي وجب. يقال: وقع القول والحكم أي وجب! ومثله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ [الأعراف: ١٣٤]. أي نزل بهم. ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٢]. والرجس العذاب وقيل: عني بالرجس الرين على القلب بزيادة الكفر. ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ﴾ يعني الأصنام التي عبدوها، وكان لها أسماء مختلفة. ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي من حجة لكم في عبادتها. فالاسم هنا بمعنى المسمى. نظيره ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾ [النجم: ٢٣]. وهذه الأسماء مثل العزى من العز والأعز واللات، وليس لها من العز والإلهية شيء. ﴿دَابِرَ﴾ آخر. وقد تقدم. أي لم يبق لهم بقية.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ هو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح، وهو أخو جديس، وكانوا في سعة من معايشهم؛ فخالفوا أمر الله وعبدوا غيره، وأفسدوا في الأرض، فبعث الله إليهم صالحا نبيا، وهو صالح بن عبيد بن آسف بن كاشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود. وكانوا قوما عربا. وكان صالح من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا فدعاهم إلى الله تعالى حتى شمط [٣] ولا يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون. ولم ينصرف «ثمود» لأنه جعل اسما للقبيلة. وقال أبو حاتم: لم ينصرف، لأنه اسم أعجمي، قال النحاس: وهذا غلط؛ لأنه مشتق من الثمد وهو الماء القليل، وقد قرأ القراء: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٨] على أنه اسم للحي. وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، وهم من ولد سام بن نوح، وسميت ثمود لقلة مائها، وسيأتي بيانه

---

(١) هذا الخبر والسابق لا يصحان، ورواهما البغوي (٣/ ٢٤٣) في تفسيره بلا سند، ورواه ابن عساكر عن وهب كما في الدر (٦/ ٤٤٨) للسيوطي.

(٢) ضعيف: رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم كما في الدر (٦/ ٤٤٩) ط ـ دار هجر.

(٣) شمط: الشمط بفتحتين: بياض شعر الرأس يخالطه سواده (اللسان).

في «الحجر» إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ أخرج لهم الناقة حين سألوه من حجر صلد؛ فكان لها يوم تشرب فيه ماء الوادي كله، وتسقيهم مثله لبنا لم يشرب قط ألذ وأحلى منه، وكان بقدر حاجتهم على كرتهم؛ قال الله تعالى: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]. وأضيفت الناقة إلى الله عز وجل على جهة إضافة الخلق إلى الخالق. وفيه معنى التشريف والتخصيص.

قوله تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أي: ليس عليكم رزقها ومؤونتها.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه محذوف، أي بوأكم في الأرض منازل. ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبنون القصور بكل موضع. ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم؛ فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم. وقرأ الحسن بفتح الحاء، وهي لغة. وفيه حرف من حروف الحلق؛ فلذلك جاء على فعل يفعل.

الثانية: استدل بهذه الآية من أجاز البناء الرفيع كالقصور ونحوها، وبقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. ذكر أن ابنا لمحمد بن سيرين بنى دارا وأنفق فيها مالا كثيرا؛ فذكر ذلك لمحمد بن سيرين فقال: ما أرى بأسا أن يبني الرجل بناء ينفعه. وروي أنه عليه السلام قال: «إذا أنعم الله على عبد أحب أن يرى أثر النعمة عليه» (١). ومن آثار النعمة البناء الحسن، والثياب الحسنة. ألا ترى أنه لو اشترى جارية جميلة بمال عظيم فإنه يجوز وقد يكفيه دون ذلك؛ فكذلك البناء. وكره ذلك آخرون، منهم الحسن البصري وغيره. واحتجوا بقوله عليه السلام قال: «إذا أراد الله بعبد شرا أهلك ماله في الطين واللبن» (٢). وفي خبر آخر عنه أنه عليه السلام قال: «من بنى فوق ما يكفيه جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه» (٣).

قلت: بهذا أقول؛ لقوله عليه السلام: «وما أنفق المؤمن من نفقة فإن خلفها على الله عز وجل إلا ما كان في بنيان أو معصية» (٤). رواه جابر بن عبد الله وخرجه الدارقطني. وقوله عليه السلام:

---

(١) صحيح: وهذا لفظ الطبراني والبيهقي عن عمران بن الحصين رضى الله عنهما كما في صحيح الجامع (١٧١٢) للألباني ـ رحمه الله ـ. والحديث عن أبي داود والترمذي (٢٨١٩) في الأدب عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما بلفظ: (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) وانظر صحيح الجامع (١٨٨٧) وحسنه الألباني هناك.

(٢) ضعيف: البيهقي (١٠٧٢) في الشعب عن محمد بن بشير الأنصاري وليس له إلا هذا الحديث، ورواه الخطيب والطبراني عن جابر، وانظر ضعيف الجامع (٣٣٧) للألباني ـ رحمه الله ـ.

(٣) باطل: كذا قال الألباني (١٧٥) في الضعيفة، وقد رواه أبو نعيم (٨/ ٢٤٦، ٢٥٢) في الحلية من حديث ابن مسعود رضى الله عنهما.

(٤) ضعيف: الدارقطني (٣/ ٢٨) في سننه، وفي إسناده عبد الحميد بن الحسن الهلالي فيه مقال.

«ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يواري عورته وجلف [١] الخبز والماء» أخرجه الترمذي.

الثالثة : قوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ ﴾ أي نعمه. وهذا يدل على أن الكفار منعم عليهم، وقد مضى في «آل عمران» القول فيه. ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ والعِثيّ والعُثوّ لغتان. وقرأ الأعمش: «تعثوا» بكسر التاء أخذه من عثي يَعْثَ لا من عثا يعثو

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا من قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ الثاني بدل من الأول، لأن المستضعفين هم المؤمنون. وهو بدل البعض من الكل.

﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ العقر الجرح. وقيل: قطع عضو يؤثر في النفس، وعقرت الفرس: إذا ضربت قوائمه بالسيف. وخيل عقرى. وعقرت ظهر الدابة: إذا أدبرته. قال امرؤ القيس:

تَقولُ وَقد مَالَ الغبيطُ بِنَا مَعاً عَقَرتَ بَعيري يا امْرأ القيسِ فانزِلِ

أي: جرحته وأدبرته قال القشيري: العقر كشف عرقوب البعير؛ ثم قيل للنحر عقر؛ لأن العقر سبب النحر في الغالب. وقد اختلف في عاقر الناقة على أقوال. أصحها ما في صحيح مسلم من حديث عبدالله بن زمعة قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال: ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة» وذكر الحديث [٢]. وقيل في اسمه: قدار بن سالف، وقيل: إن ملكهم كان إلى امرأة يقال لها ملكي، فحسدت صالحا لما مال إليه الناس، وقالت لامرأتين كان لهما خليلان يعشقانهما: لا تطيعاهما واسألاهما عقر الناقة؛ ففعلتا. وخرج الرجلان وألجآ الناقة إلى مضيق ورماها أحدهما بسهم وقتلاها. وجاء السقب وهو ولدها إلى الصخرة التي خرجت الناقة منها فرغا [٣] ثلاثا وانفرجت الصخرة فدخل فيها، ويقال: إنه الدابة التي

---

(١) ضعيف : الترمذي (٢٣٤١) في الزهد وضعفه الألباني هناك عن عثمان رضى الله عنه، وقال الترمذي عقبه: وسمعت أبا داود سليمان بن سلم البلخى يقول : قال النضر بن شميل : جلف الخبز : يعني ليس معه إدام ، وانظر الضعيفة (١٠٦٣) للألباني ـرحمه الله ـ .

(٢) صحيح : مسلم (٢٨٥٥) في الجنة ، وعارم : شرير خبيث .

(٣) رغا : من الرغاء وهو صوت الإبل .

تخرج في آخـر الزمان على الناس؛ على ما يـأتي بيانه في «النمل». وقال ابن إسـحاق: أتبع السقب أربعة نفر ممن كـان عقر الناقة، مصدع وأخـوه ذؤاب. فرماه مصدع بسـهم فانتظم قلبه [(١)]، ثم جره برجله فألحقه بأمه، وأكلوه معها [(٢)]. والأول أصح؛ فإن صالحا قال لهم: إنه بقي من عمركم ثلاثة أيام، ولهذا رغا ثلاثا. وقيل: عقرها عاقرها ومعه ثمـانية رجال، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [النمل:٤٨] على ما يأتي بيانه في «النمل». وهو معنى قوله: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾. [القمر:٢٩]. وكانوا يشـربون فأعوزهم الماء ليـمزجوا شـرابهم، وكان يوم لبن الناقة، فـقام أحدهم وترصد الناس وقال: لأريحن الناس منها؛ فعقرها.

قوله تعالى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: استكبروا. عتا يعتو عتوا أي استكبر. وتعتى فلان إذا لم يطع. والليل العاتي: الشديد الظلمة؛ عن الخليل.

قوله تـعالى: ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي: من العذاب. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة الشديدة. وقيل: كان صيـحة شديدة خلعت قلوبهم؛ كمـا في قصة ثمود في سـورة «هود» في قصة ثمود فأخذتهم الصيحة. يقال: رجف الشيء يرجف رجفا ورجفانا. وأرجـفت الريح الشجر حركته. وأصله حركة مع صوت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات:٦] قال الشاعر:

ولـمَّا رأيت الحَج قَدْ آن وقتُـه ... وظَلت مَطايا القَوم بالقوم ترجُـف

قوله تـعالى ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ أي بلدهم. وقـيل: وحـد على طريق الجنس، والمعنى: في دورهم. وقال في موضع آخر ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ [هود:٦٧] أي في منازلهم. ﴿جَاثِمِينَ﴾ أي لاصقين بالأرض على ركبـهم ووجوههم؛ كـما يجثم الطائر. أي صـاروا خامديـن من شدة العذاب. وأصل الجـثوم للأرنب وشبهها، والموضع مجثم. قال زهير:

بِهَا العِينُ والآرامُ يمشِينَ خِلْفَةً ... وأَطْلاؤهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُل مَجْثَمَ

وقيل: احترقوا بالـصاعقة فأصبحـوا ميتين، إلا رجلا واحدا كان في حـرم الله؛ فلما خرج من الحرم أصابه مـا أصاب قومه. ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي عند اليأس منهم. ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ يحتـمل أنه قال ذلك قبل موتهم. ويحـتمل أنه قال بعـد موتهم؛ كقوله عليـه السلام لقتلى بدر: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقا» فقيل: أتكلم هؤلاء الجيف ؟ فقال: «ما أنتم بأسمع منهم ولكنهم لا يقـدرون على الجواب» [(٣)]. والأول أظهر. يدل عـليه ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ أي لم تقبلوا نصحي.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ قال الفراء: لوط مشتق من قولهم: هذا أليط بقلبي،

---

(١) في اللسان : انتظم الصيد إذا طعنه أو رماه حتى ينفذه ، ولا يقال : انتظمه ، حتى يجمع ميتين بسهم أو رمح .
(٢) الخبر ذكره الطبري عن السدي ، وعن ابن اسحاق ، وانظر تفسيره (٨/ ٢٣٢، ٢٣٣).
(٣) صحيح : البخاري (٣٩٧٦) في المغازي ، ومسلم (٢٨٧٥) في الجنة عن أنس رضى الله عنه .

أي ألصق. وقال النحاس: قال الزجاج زعم بعض النحويين - يعني الفراء - أن لوطا يجوز أن يكون مشتقا من لطت الحوض إذا ملسته بالطين. قال: وهذا غلط؛ لأن الأسماء الأعجمية لا تشتق كإسحاق، فلا يقال: إنه من السحق وهو البعد. وإنما صرف لوط لخفته لأنه على ثلاثة أحرف وهو ساكن الوسط. قال النقاش: لوط من الأسماء الأعجمية وليس من العربية. فأما لطت الحوض، وهذا أليط بقلبي من هذا، فصحيح. ولكن الاسم أعجمي كإبراهيم وإسحاق. قال سيبويه: نوح ولوط أسماء أعجمية، إلا أنها خفيفة فلذلك صرفت. بعثه الله تعالى إلى أمة تسمى سدوم، وكان ابن أخي إبراهيم. ونصبه إما بـ ﴿أرسلنا﴾ المتقدمة فيكون معطوفا، ويجوز أن يكون منصوبا بمعنى واذكر.

الثانية : قوله تعالى ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ يعني إتيان الذكور. ذكرها الله باسم الفاحشة ليبين أنها زنى؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]. واختلف العلماء فيما يجب على من فعل ذلك بعد إجماعهم على تحريمه؛ فقال مالك: يرجم؛ أحصن أو لم يحصن. وكذلك يرجم المفعول به إن كان محتلما. وروي عنه أيضا: يرجم إن كان محصنا، ويحبس ويؤدب إن كان غير محصن. وهو مذهب عطاء والنخعي وابن المسيب وغيرهم. وقال أبو حنيفة: يعزر المحصن وغيره؛ وروي عن مالك. وقال الشافعي: يحد حد الزنى قياسا عليه. احتج مالك بقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]. فكان ذلك عقوبة لهم وجزاء على فعلهم. فإن قيل: لا حجة فيها لوجهين؛ أحدهما - أن قوم لوط إنما عوقبوا على الكفر والتكذيب كسائر الأمم. الثاني: أن صغيرهم وكبيرهم دخل فيها؛ فدل على خروجها من باب الحدود. قيل: أما الأول: فغلط؛ فإن الله سبحانه أخبر عنهم أنهم كانوا على معاصي فأخذهم بها؛ منها هذه. وأما الثاني: فكان منهم فاعل وكان منهم راض، فعوقب الجميع لسكوت الجماهير عليه. وهي حكمة الله وسنته في عباده. وبقي أمر العقوبة على الفاعلين مستمرا. والله أعلم، وقد روى أبو داود وابن ماجة والترمذي والنسائي والدارقطني أن رسول الله ﷺ قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» (١). لفظ أبي داود وابن ماجة، وعند الترمذي «أحصنا أو لم يحصنا» (٢). وروى أبو داود والدارقطني عن ابن عباس في البكر يوجد على اللوطية قال: يرجم (٣). وقد روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه حرق رجلا يسمى الفجاءة حين عمل عمل قوم لوط بالنار. وهو رأي علي ابن أبي طالب؛ فإنه لما كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر في ذلك جمع أبو بكر أصحاب النبي ﷺ واستشارهم فيه؛ فقال علي: إن هذا الذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة صنع الله بها ما علمتم، أرى أن يحرق بالنار، فاجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ أن يحرق بالنار، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه بالنار فأحرقه (٤). ثم أحرقهم ابن الزبير في زمانه. ثم أحرقهم هشام

---

(١) صحيح : وقد سبق .

(٢) نقله الترمذي (٣/ ١٣٧) في سننه من قول بعض أهل العلم .

(٣) صحيح الإسناد موقوف : أبو داود (٤٤٦٣) في الحدود وصححه الألباني هناك موقوفًا.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي بإسناد جيد عن محمد بن المنكدر ، كما في جامع الأصول (٣/ ٥٥٠) حاشية رقم (١) .

ابن الوليد. ثم أحرقهم خالد القسري بالعراق. وروي أن سبعة أخذوا في زمن ابن الزبير في لواط؛ فسأل عنهم فوجد أربعة قد أحصنوا فأمر بهم فخرجوا بهم من الحرم فرجموا بالحجارة حتى ماتوا، وحد الثلاثة؛ وعنده ابن عباس وابن عمر فلم ينكرا عليه، وإلى هذا ذهب الشافعي. قال ابن العربي: والذي صار إليه مالك أحق، فهو أصح سندا وأقوى معتمدا، وتعلق الحنفيون بأن قالوا: عقوبة الزنى معلومة؛ فلما كانت هذه المعصية غيرها وجب ألا يشاركها في حدها، ويأثرون في هذا حديثا: «من وضع حدا في غير حد فقد تعدى وظلم» (١). وأيضا فإنه وطء في فرج لا يتعلق به إحلال ولا إحصان، ولا وجوب مهر ولا ثبوت نسب؛ فلم يتعلق به حد.

الثالثة : فإن أتى بهيمة فقد قيل: لا يقتل هو ولا البهيمة. وقيل: يقتلان؛ حكاه ابن المنذر عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وفي الباب حديث رواه أبو داود والدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة معه» (٢). فقلنا لابن عباس: ما شأن البهيمة؟ قال: ما أراه قال ذلك، إلا أنه كره أن يؤكل لحمها وقد عمل بها ذلك العمل، قال ابن المنذر: إن يك الحديث ثابتا فالقول به يجب، وإن لم يثبت فليستغفر الله من فعل ذلك كثيرا، وإن عزره الحاكم كان حسنا. والله أعلم، وقد قيل: إن قتل البهيمة لئلا تلقي خلقا مشوها؛ فيكون قتلها مصلحة لهذا المعنى مع ما جاء من السنة. والله أعلم. وقد روى أبو داود عن ابن عباس قال: ليس على الذي زنى بالبهيمة حد (٣). قال أبو داود: وكذا قال عطاء. وقال الحكم: أرى أن يجلد ولا يبلغ به الحد. وقال الحسن: هو بمنزلة الزاني (٤). وقال الزهري: يجلد مائة أحصن أو لم يحصن. وقال مالك والثوري وأحمد وأصحاب الرأي يعزر. وروي عن عطاء والنخعي والحكم، واختلفت الرواية عن الشافعي، وهذا أشبه على مذهبه في هذا الباب، وقال جابر بن زيد: يقام عليه الحد، إلا أن تكون البهيمة له.

الرابعة : قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿مِّنَ﴾ لاستغراق الجنس، أي لم يكن اللواط في أمة قبل قوم لوط، والملحدون يزعمون أن ذلك كان قبلهم. والصدق ما ورد به القرآن. وحكى النقاش أن إبليس كان أصل عملهم بأن دعاهم إلى نفسه لعنه الله، فكان ينكح بعضهم بعضا. قال الحسن: كانوا يفعلون ذلك بالغرباء، ولم يكن يفعله بعضهم ببعض، وروى ابن ماجة عن جابر ابن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط» (٥). وقال محمد بن سيرين: ليس شيء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار.

---

(١) ضعيف : البيهقي (٨/ ٣٢٧) في سننه ، بالسند عن النعمان بن بشير رضى الله عنه، وقال: والمحفوظ مرسلٌ.

(٢) صحيح : أبو داود (٤٤٦٤) في الحدود ، الترمذي (١٤٥٥) في الحدود وابن ماجه (٢٥٦٤) في الحدود وصححه الألباني هناك .

(٣) حسنه الألباني : في سنن أبي داود (٤٤٦٥) في الحدود ص ٦٦٧ ط ـ مكتبة المعارف ـالرياض ـ بترقيم وتحقيق العلامة الألباني ـ رحمه الله ـ .

(٤) انظر السابق نفسه .

(٥) حسن : الترمذي (١٤٥٧) في الحدود ، وابن ماجه (٢٥٦٣) في الحدود وحسنه الألباني هناك .

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ قرأ نافع وحفص على الخبر بهمزة واحدة مكسورة، تفسيرا للفاحشة المذكورة، فلم يحسن إدخال الاستفهام عليه لأنه يقطع ما بعده مما قبله. وقرأ الباقون بهمزتين [١] على لفظ الاستفهام الذي معناه التوبيخ، وحسن ذلك لأن ما قبله وبعده كلام مستقل. واختار الأول أبو عبيد والكسائي وغيرهما؛ واحتجوا بقوله عز وجل: ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ولم يقل أفهم. وقال: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ولم يقل: انقلبتم. وهذا من أقبح الغلط لأنهما شبها شيئين بما لا يشتبهان؛ لأن الشرط وجوابه بمنزلة شيء واحد كالمبتدأ والخبر؛ فلا يجوز أن يكون فيهما استفهامان. فلا يجوز: أفإن مت أفهم، كما لا يجوز أزيد أمنطلق. وقصة لوط عليه السلام فيها جملتان، فلك أن تستفهم عن كل واحدة منهما، هذا قول الخليل وسيبويه، واختاره النحاس ومكي وغيرهما ﴿شَهْوَةً﴾ نصب على المصدر، أي تشتهونهم شهوة. ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال. ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ نظيره ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦] في جمعكم إلى الشرك هذه الفاحشة.

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم ﴾ أي لوطا وأتباعه. ومعنى ﴿ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ عن الإتيان في هذا المأتى. يقال: تطهر الرجل أي تنزه عن الإثم. قال قتادة: عابوهم والله بغير عيب [٢]. ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي الباقين في عذاب الله؛ قاله ابن عباس وقتادة [٣]. غبر الشيء إذا مضى، وغبر إذا بقي. وهو من الأضداد. وقال قوم: الماضي عابر بالعين غير معجمة. والباقي غابر بالغين معجمة، حكاه ابن فارس في المجمل. وقال الزجاج ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي من الغائبين عن النجاة وقيل: لطول عمرها، قال النحاس: وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من المعمرين؛ أي أنها قد هرمت. والأكثر في اللغة أن يكون الغابر الباقي؛ قال الراجز:

فَمَا وَنَى مُحمدٌ مُذْ أنْ غَفَرَ ... لَهُ الإلَهُ مَا مَضَى وَمَا غَبَرَ

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

سرى لوط بأهله كما وصف الله ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ٨١] ثم أمر جبريل، عليه السلام فأدخل جناحه تحت مدائنهم فاقتلعها ورفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب، ثم جعل عاليها سافلها، وأمطرت عليهم حجارة من سجيل. قيل: على من غاب منهم، وأدرك امرأة لوط، وكانت معه حجر فقتلها، وكانت فيما ذكر أربع قرى، وقيل: خمس فيها أربعمائة ألف، وسيأتي في

(١) وهى قراءة متواترة .

(٢) صحيح إليه : الطبري (٨/ ٢٤٢) في التفسير .

(٣) ذكره الطبري (٨/ ٢٤٣) في التفسير عن قتادة به .

سورة «هود» قصة لوط بأبين من هذا، إن شاء الله تعالى.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ قيل في مدين: اسم بلد وقطر، وقيل: اسم قبيلة كما يقال: بكر وتميم، وقيل: هم من ولد مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام. فمن رأى أن مدين اسم رجل لم يصرفه لأنه معرفة أعجمي. ومن رآه اسما للقبيلة أو الأرض فهو أحرى بألا يصرفه. قال المهدوي: ويروى أنه كان ابن بنت لوط. وقال مكي: كان زوج بنت لوط، واختلف في نسبه؛ فقال عطاء وابن إسحاق وغيرهما: وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام. وكان اسمه بالسريانية ثيرون [(١)]. وأمه ميكائيل بنت لوط. وزعم الشرقي بن القطامي أن شعيبا بن عيفاء بن يوبب بن مدين بن إبراهيم. وزعم ابن سمعان أن شعيبا بن جزى بن يشجر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وشعيب تصغير شعب أو شِعب. وقال قتادة: هو شعيب بن يوبب. وقيل: شعيب بن صفوان بن عيفاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم. والله أعلم. وكان أعمى [(٢)]؛ ولذلك قال قومه: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود:٩١]. وكان يقال له: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه. وكان قومه أهل كفر بالله وبخس للمكيال والميزان.

قوله تعالى ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي بيان، وهو مجيء شعيب بالرسالة. ولم يذكر له معجزة في القرآن. وقيل: معجزته فيما ذكر الكسائي في قصص الأنبياء.

الثانية : قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ البخس النقص. وهو يكون في السلعة بالتعييب والتزهيد فيها، أو المخادعة عن القيمة، والاحتيال في التزيد في الكيل والنقصان منه. وكل ذلك من أكل المال بالباطل، وذلك منهي عنه في الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الثالثة : قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ عطف على ﴿وَلَا تَبْخَسُوا ﴾. وهو لفظ يعم دقيق الفساد وجليله. قال ابن عباس: كانت الأرض قبل أن يبعث الله شعيبا رسولا يعمل فيها

(١) انظر الطبري (٨/ ٢٤٤).

(٢) هذا مناف للأخبار الواردة عن حسن الأنبياء صوتًا وصورة ولا يصح مثل هذا.

بالمعاصي وتستحل فيها المحارم وتسفك فيها الدماء، قال: فذلك فسادها، فلما بعث الله شعيباً ودعاهم إلى الله صلحت الأرض. وكل نبي بعث إلى قومه فهو صلاحهم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ نهاهم عن القعود بالطرق والصد عن الطريق الذي يؤدي إلى طاعة الله، وكانوا يوعدون العذاب من آمن. واختلف العلماء في معنى قعودهم على الطرق على ثلاثة معان؛ قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه[١]؛ كما كانت قريش تفعله مع النبي ﷺ. وهذا ظاهر الآية. وقال أبو هريرة: هذا نهي عن قطع الطريق، وأخذ السلب[٢]؛ وكان ذلك من فعلهم. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت ليلة أسري بي خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلا خرقته فقلت ما هذا يا جبريل؟ قال هذا مثل لقوم من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه - ثم تلا - ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ الآية[٣]. وقد مضى القول في اللصوص والمحاربين، والحمد لله، وقال السدي أيضاً: كانوا عشارين مستقبلين[٤]. ومثلهم اليوم هؤلاء المكاسون الذين يأخذون ما لا يلزمهم شرعاً من الوظائف المالية بالقهر والجبر؛ فضمنوا ما لا يجوز ضمان أصله من الزكاة والمواريث والملاهي. والمترتبون في الطرق إلى غير ذلك مما قد كثر في الوجود وعمل به في سائر البلاد، وهو من أعظم الذنوب وأكبرها وأفحشها؛ فإنه غصب وظلم وعسف على الناس وإذاعة للمنكر وعمل به ودوام عليه وإقرار له، وأعظمه تضمين الشرع والحكم للقضاء، فإنا لله وإنا إليه راجعون! لم يبق من الإسلام إلا رسمه، ولا من الدين إلا اسمه. يعضد هذا التأويل ما تقدم من النهي في شأن المال في الموازين والأكيال والبخس.

قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ الضمير في ﴿به﴾ يحتمل أن يعود على اسم الله تعالى، وأن يعود إلى شعيب في قول من رأى القعود على الطريق للصد، وأن يعود على السبيل. ﴿عِوَجًا﴾ قال أبو عبيدة والزجاج: كسر العين في المعاني. وفتحها في الأجرام. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي: كثر عددكم، أو كثركم بالغنى بعد الفقر أي كنتم فقراء فأغناكم ﴿فاصبروا﴾ ليس هذا أمراً بالمقام على الكفر، ولكنه وعيد وتهديد وقال: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ﴾ فذكر على المعنى، ولو راعى اللفظ قال: كانت.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ۝ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ۝﴾

---

(١) ضعيف إلى ابن عباس: رواه الطبري (٨/ ٢٤٥) عنه من طريق العوفيين وفيه ضعف وجهالة، ومن طريق علي ابن أبي طلحة الوالبي به ولم يلق ابن عباس رضى الله عنهما.

(٢) انظر البحر المحيط (٤/ ٣٣٨) لأبي حيان.

(٣) في إسناده مقال: فيه أبو جعفر الرازي وهو سيئ الحفظ ورواه الطبري (٨/ ٢٤٥) في تفسيره.

(٤) كذا عند الطبري في السابق. والعشار: هو من يأخذ العشر من أموال الناس (يعني بالباطل) كما في النهاية =

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ تقدم معناه. ومعنى ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي لتصيرن إلى ملتنا وقيل: كان أتباع شعيب قبل الإيمان به على الكفر. أي لتعودن إلينا كما كنتم من قبل. قال الزجاج: يجوز أن يكون العود بمعنى الابتداء؛ يقال: عاد إلي من فلان مكروه، أي صار، وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك، أي لحقني ذلك منه. فقال لهم شعيب ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أي ولو كنا كارهين تجبروننا عليه، أي على الخروج من الوطن أو العود في ملتكم. أي إن فعلتم هذا أتيتم عظيما.

قوله تعالى ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ إياس من العود إلى ملتهم. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ قال أبو إسحاق الزجاج: أي إلا بمشيئة الله عز وجل، قال: وهذا قول أهل السنة؛ أي وما يقع منا العود إلى الكفر إلا أن يشاء الله ذلك. فالاستثناء منقطع. وقيل: الاستثناء هنا على جهة التسليم لله عز وجل؛ كما قال ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨]. والدليل على هذا أن بعده ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. وقيل: هو كقولك ألا أكلمك حتى يبيض الغراب، وحتى يلج الجمل في سم الخياط. والغراب لا يبيض أبدا، والجمل لا يلج في سم الخياط.

قوله تعالى ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي علم ما كان وما يكون. ﴿عِلْمًا﴾ نصب على التمييز. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾ أي في القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا، بل نخرج من قريتكم مهاجرين إلى غيرها. ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ ردنا إليها. وفيه بعد؛ لأنه يقال: عاد للقرية ولا يقال عاد في القرية.

قوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي اعتمدنا. وقد تقدم. ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ قال قتادة: بعثه الله إلى أمتين: أهل مدين، وأصحاب الأيكة (١). قال ابن عباس: وكان شعيب كثير الصلاة، فلما طال تمادي قومه في كفرهم وغيهم، ويئس من صلاحهم، دعا عليهم فقال ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالرجفة (٢).

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أي: قالوا لمن دونهم. ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ أي هالكون. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة، وقيل: الصيحة، وأصحاب الأيكة أهلكوا بالظلة، على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ قال الجرجاني: قيل هذا كلام مستأنف؛ أي

= (٣/ ٢٣٨، ٢٣٩)، والمتقبلون: هم من يتقبلون الجباية أكثر مما يعطى النهاية (٤/ ١٠).

(١) وهذا لا يصح، وانظر تفسير الطبري (٩/ ٥، ٦).

(٢) البحر المحيط (٤/ ٣٤٥) لأبي حيان، وافتح: أي اقض والله أعلم. كما في تفسير الطبري (٩/ ٥).

الذين كذبوا شعيبا صاروا كأنهم لم يزالوا موتى. ﴿يَغْنَوْا﴾ يقيموا؛ يقال: غنيت بالمكان إذا أقمت به. وغني القوم في دارهم، أي طال مقامهم فيها. والمغنى: المنزل؛ والجمع المغاني، قال لبيد:

وغنيتَ سِتا قَبلْ مجرى داحِسٍ ... لَوْ كَان للنفسِ اللجوجِ خُلودُ

وقال حاتم طي:

غنينا زمانا بالتصعُلك وَالغنى ... كَمَا الدهرُ في أيامه العسرُ واليسرُ

كَسَبنا صُروف الدهرَ لينا وَغلظة ... وكلا سقاناه بكأسهِمَا الدهرُ

فَمَا زَادنا بَغْيا عَلَى ذي قرابَة ... غنانا ولا أزرىَ بأحسابنَا الفقرُ

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ ابتداء خطاب، وهو مبالغة في الذم والتوبيخ وإعادة لتعظيم الأمر وتفخيمه، ولما قالوا: من اتبع شعيبا خاسر، قال الله الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول.

قوله تعالى﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي أحزن. أسيت على الشيء آسى أسى، وأنا آس [(١)].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ ﴾ فيه إضمار، وهو فكذب أهلها إلا أخذناهم. ﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ تقدم القول فيه. ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي أبدلناهم بالجدب خصبا. ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي كثروا [(٢)]؛ عن ابن عباس. وقال ابن زيد: كثرت أموالهم وأولادهم [(٣)]. وعفا: من الأضداد: عفا: كثر. وعفا: درس. أعلم الله تعالى أنه أخذهم بالشدة والرخاء فلم يزدجروا ولم يشكروا. ﴿ وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ فنحن مثلهم. ﴿ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أي فجأة ليكون أكثر حسرة.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ يقال للمدينة قرية لاجتماع الناس فيها. من قريت الماء إذا جمعته. وقد مضى في «البقرة» مستوفى. ﴿آمَنُوا﴾ أي صدقوا. ﴿وَاتَّقَوْا﴾ أي الشرك. ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني المطر والنبات. وهذا في أقوام على الخصوص جرى ذكرهم. إذ قد يمتحن المؤمنون بضيق العيش ويكون تكفيرا لذنوبهم. ألا ترى أنه أخبر عن نوح إذ قال لقومه

---

(١) ذكره الطبري (٩/ ٨) عن ابن عباس رضى الله عنهما بسند منقطع بين على بن أبي طلحة الوالبي وابن عباس رضى الله عنهما.

(٢) ضعيف: الطبري (٩/ ١٠) بالسند السابق.

(٣) حسن إليه أو صحيح: انظر السابق نفسه.

obeikandi.com

﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠، ١١] وعن هود ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢]. فوعدهم المطر والخصب على التخصيص، يدل عليه ﴿وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي كذبوا الرسل، والمؤمنون صدقوا ولم يكذبوا.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف، نظيره ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [المائدة: ٥٠]. والمراد بالقرى مكة وما حولها؛ لأنهم كذبوا محمدا ﷺ وقيل: هو عام في جميع القرى. ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا. ﴿بَيَاتًا﴾ أي ليلا ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ قرأه الحرميان وابن عامر بإسكان الواو للعطف على معنى الإباحة؛ مثل ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]. جالس الحسن أو ابن سيرين. والمعنى: أو أمنوا هذه الضروب من العقوبات. أي إن أمنتم ضربا منها لم تأمنوا الآخر، ويجوز أن يكون ﴿أو﴾ لأحد الشيئين، كقولك: ضربت زيدا أو عمرا، وقرأ الباقون بفتحها بهمزة بعدها. جعلها واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام؛ نظيره ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ [البقرة: ١٠٠]. ومعنى ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي وهم فيما لا يجدي عليهم؛ يقال لكل من كان فيما يضره ولا يجدي عليه لاعب، ذكره النحاس، وفي الصحاح. اللعب معروف، واللعب مثله. وقد لعب يلعب. وتلعب: لعب مرة بعد أخرى. ورجل تلعابة: كثير اللعب، والتلعاب بالفتح المصدر. وجارية لعوب.

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أي عذابه وجزاءه على مكرهم. وقيل: مكره استدراجه بالنعمة والصحة.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ أي: يبين، ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾ يريد كفار مكة ومن حولهم. ﴿أَصَبْنَاهُم﴾ أي أخذناهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي بكفرهم وتكذيبهم. ﴿وَنَطْبَعُ﴾ أي: ونحن نطبع؛ فهو مستأنف. وقيل: هو معطوف على أصبنا، أي نصيبهم ونطبع، فوقع الماضي موقع المستقبل.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٠١﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ أي: هذه القرى التي أهلكناها؛ وهي قرى نوح وعاد ولوط وهود وشعيب المتقدمة الذكر ﴿نَقُصُّ﴾ أي نتلو. ﴿عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾ أي من أخبارها، وهي تسلية للنبي عليه

السلام والمسلمين. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا بعد هلاكهم لو أحييناهم[١]؛ قاله مجاهد، نظيره ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾ [الأنعام:٢٨]. وقال ابن عباس والربيع: كان في علم الله تعالى يوم أخذ عليهم الميثاق أنهم لا يؤمنون بالرسل. ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ يريد يوم الميثاق حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرها لا طوعا. قال السدي: آمنوا يوم أخذ عليهم الميثاق كرها فلم يكونوا ليؤمنوا الآن حقيقة. وقيل: سألوا المعجزات، فلما رأوها ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤية المعجزة. نظيره ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. [الأنعام: ١١٠]. ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ أي مثل طبعه على قلوب هؤلاء المذكورين كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين بمحمد ﷺ.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ ﴿من﴾ زائدة، وهي تدل على معنى الجنس؛ ولولا ﴿من﴾ لجاز أن يتوهم أنه واحد في المعنى. قال ابن عباس: يريد العهد المأخوذ عليهم وقت الذر[٢]، ومن نقض العهد قيل له: إنه لا عهد له، أي كأنه لم يعهد. وقال الحسن: العهد الذي عهد إليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا. وقيل: أراد أن الكفار منقسمون؛ فالأكثرون منهم من لا أمانة له ولا وفاء، ومنهم من له أمانة مع كفره وإن قلوا؛ روي عن أبي عبيدة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ أي من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب: ﴿مُّوسَىٰ﴾ أي موسى بن عمران. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ بمعجزاتنا. ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي كفروا ولم يصدقوا بالآيات. والظلم: وضع الشيء في غير موضعه: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي آخر أمرهم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي واجب. ومن قرأ ﴿على ألا﴾ فالمعنى حريص على ألا أقول. وفي قراءة عبدالله «حقيق ألا أقل» بإسقاط «على».

---

(١) صحيح إليه: الطبري (٩/ ١٣).

(٢) لم أجده موصولاً، وقد رواه أبو حيان هكذا (٤/ ٣٥٤) في تفسيره، وذكره الطبري (٩/ ١٤) عن مجاهد من طريق ابن جريج.

وقيل«على» بمعنى الباء، أي حقيق بألا أقول. وكـذا في قراءة أبي والأعمش «بألا أقول». كما تقول: رميت بـالقوس وعلى القـوس. فـ «حقيق» عـلى هذا بمعنى محـقوق. ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي خلهم. وكان يستعملهم في الأعمال الشاقة.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ يستعـمل في الأجسام والمعاني، وقد تقدم والثـعبان: الحية الضخم الذكر، وهو أعظم الحيات. ﴿مُّبِينٌ﴾ أي حية لا لبس فيها. ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أي أخرجها وأظهرها. قيل: من جيبه أو من جناحه؛ كما في التنزيل ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢] أي من غير برص. وكان موسى أسمر شديد السمرة، ثم أعاد يده إلى جيبه فعادت إلى لونها الأول. قال ابن عباس: كان ليده نور ساطع يـضيء ما بين السماء والأرض [١]. وقيل: كانت تخرج يـده بيضاء كالثلج تلوح، فـإذا ردها عادت إلى مثل سـائر بدنه. ومعنى ﴿عَلِيمٌ﴾ أي بالسحر. ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي من ملككم مـعاشر القـبط، بتقديمه بني إسـرائيل عليكم. ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي قال فـرعون: فماذا تأمرون. وقيل: هو من قول الملأ؛ أي قالوا لفـرعون وحده: فماذا تـأمرون. كما يخاطـب الجبارون والرؤساء: ما ترون في كذا. ويجـوز أن يكون قالوا له ولأصحابه. و«مـا» في موضع رفع، على أن «ذا» بمعنى الذي، وفي موضع نصب، على أن «ما» و«ذا» شيء واحد.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ﴾ قرأ أهل المدينة وعاصم والكسائي بغـير همز ؛ إلا أن ورشا والكسائي أشبعا كسرة الهاء. وقرأ أبو عمرو بهمزة ساكنة والهاء مضمومة. وهما لغتان؛ يقال: أرجأته وأرجيته، أي أخرته. وكذلك قرأ ابن كثير وابن محيصن وهـشام؛ إلا أنهم أشبعوا ضمة الهاء. وقرأ سائر أهل الكوفة «أرجه» بإسكان الهـاء. قال الفراء: هي لغة للعرب، يقفـون على الهاء المكني عنها في الوصل إذا تحرك ما قـبلها، وكذا هذه طلحة قـد أقبلت. وأنكر البصريون هذا. قـال قتادة: معـنى «أرجه» احبسه [٢]. وقال ابن عباس: أخره [٣]. وقيل«أرجه» مأخوذ من رجا يرجو؛ أي أطمعه ودعه يرجو؛ حكاه النحاس عن محمـد بن يزيد. وكسر الهاء على الإتباع. ويجوز ضـمها على الأصل. وإسكانها لحن لا يجوز إلا في شذوذ من الشعر. ﴿وَأَخَاهُ﴾ عطف على الهاء. ﴿حَاشِرِينَ﴾ نصب على الحال. ﴿يَأْتُوكَ﴾ جزم؛ لأنـه جواب الأمـر ولذلك حذفت منه النون. قـرأ أهل الكوفة إلا عـاصمـا: «بكل سحار» وقرأ سائر الناس ﴿ساحر﴾ وهما متقاربان؛ إلا أن فعالا أشد مبالغة.

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ وحذف ذكر الإرسال لعلم السامع. قال ابن عبدالحكم: كانوا اثني عشـر نقيبـا، مع كل نقيب عشرون عـريفا، تحت يدي كل عريف ألـف ساحر. وكان رئيـسهم شمعون في قول مقاتل بن سليمان. وقال ابن جريج: كانوا تسعمائة من العريش والفيوم والإسكندرية

(١) هذا باطل : وما وجدته لم أجد له قائلاً، فقد ذكره البغوي (٣/ ٢٦٣) في تفسيره بلا سند ولا عزو .
(٢) رواه الطبري (٩/ ١٩) في تفسيره بسند صحيح إليه .
(٣) ضعيف : للانقطاع بين عطاء الخراساني وابن عباس رضى الله عنهما كما في السابق نفسه .

أثلاثا [١]. وقال ابن إسحاق: كانوا خمسة عشر ألف ساحر [٢]؛ وروي عن وهب [٣]. وقيل: كانوا اثني عشر ألفا [٤]. وقال ابن المنكدر: ثمانين ألفا [٥]. وقيل: أربعة عشر ألفا [٦]. وقيل: كانوا ثلاثمائة ألف ساحر من الريف، وثلاثمائة ألف ساحر من الصعيد، وثلاثمائة ألف ساحر من الفيوم وما والاها. وقيل: كانوا سبعين رجلا، وقيل: ثلاثة وسبعين؛ فالله أعلم، وكان معهم فيما روي حبال وعصي يحملها ثلاثمائة بعير، فالتقمت الحية ذلك كله، قال ابن عباس والسدي: كانت إذا فتحت فاها صار شدقها ثمانين ذراعا؛ واضعة فكها الأسفل على الأرض، وفكها الأعلى على سور القصر. وقيل: كان سعة فمها أربعين ذراعا [٧]؛ فالله أعلم. فقصدت فرعون لتبتلعه، فوثب من سريره فهرب منها واستغاث بموسى؛ فأخذها فإذا هي عصا كما كانت. قال وهب: مات من خوف العصا خمسة وعشرون ألفا. ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي جائزة ومالا، ولم يقل فقالوا: بالفاء؛ لأنه أراد لما جاؤوا قالوا. وقرئ: ﴿إِنَّ لَنَا﴾ على الخبر، وهي قراءة نافع وابن كثير. ألزموا فرعون أن يجعل لهم مالا إن غلبوا. فقال لهم فرعون: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي لمن أهل المنزلة الرفيعة لدينا، فزادهم على ما طلبوا. وقيل: إنهم إنما قطعوا ذلك لأنفسهم في حكمهم إن غلبوا. أي قالوا: يجب لنا الأجر إن غلبنا، وقرأ الباقون بالاستفهام على جهة الاستخبار، استخبروا فرعون: هل يجعل لهم أجرا إن غلبوا أو لا؛ فلم يقطعوا على فرعون بذلك، إنما استخبروه هل يفعل ذلك؛ فقال لهم «نعم» لكم الأجر والقرب إن غلبتم.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ۝ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۝ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝﴾

تأدبوا مع موسى عليه السلام فكان ذلك سبب إيمانهم، و«أن» في موضع نصب عند الكسائي والفراء، على معنى إما أن تفعل الإلقاء. ومثله قول الشاعر:

قَالُوا الركوبُ فَقُلْنَا تِلْكَ عادتُنَا

﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ قال الفراء: في الكلام حذف، والمعنى: قال لهم موسى إنكم لن تغلبوا ربكم ولن تبطلوا آياته، وهذا من معجز القرآن الذي لا يأتي مثله في كلام الناس، ولا يقدرون عليه. يأتي اللفظ

(١ ـ ٦) أقوال باطلة كلها: وفيها هذه العلل:

أولاً: تفرد مقاتل، وابن جريج، وبعض التابعين بها مما يعني عدم ورودها عن معصوم.

ثانيًا: أما نقلها فعن وهب كما ترى ـ ورحمه الله ـ كان من كبار نقلة الإسرائيليات فهو منقول عنه، وكذا رواه الطبري (٨/ ٢١) عن كعب الأحبار وهو كوهب.

ثالثًا: مخالفته للطبيعة التي لا تستحيل ولا تتغير فلا يمكن أن تكون ساحة فرعون المجتمع فيها بهذا العدد ولا يمكن أن يرى الناس مهارة السحرة بهذا الشكل، وما هذا إلا مبالغات منقولة عن التوراة المحرفة.

(٧) أي عقل ذلك الذي يقبل هذا مما لا سند له من قول عن معصوم ومعنى هذا أن عصا موسى أكبر من موسى، وانظر إلى رواية وهب لتعلم أن غثًا بالثمين قد اختلط.

اليسير بجمع المعاني الكثيرة. وقيل: هو تهديد. أي ابتدؤوا بالإلقاء، فسترون ما يحل بكم من الافتضاح؛ إذا لا يجوز على موسى أن يأمرهم بالسحر. وقيل: أمرهم بذلك ليبين كذبهم وتمويههم. ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ أي الحبال والعصي ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أي خيلوا لهم وقلبوها عن صحة إدراكها، بما يتخيل من التمويه الذي جرى مجرى الشعوذة وخفة اليد. كما تقدم في «البقرة» بيانه. ومعنى ﴿عَظِيمٍ﴾ أي عندهم؛ لأنه كان كثيرا وليس بعظيم على الحقيقة. قال ابن زيد: كان الاجتماع بالإسكندرية فبلغ ذنب الحية وراء البحيرة. وقال غيره: وفتحت فاها فجعلت تلقف - أي تلتقم - ما ألقوا من حبالهم وعصيهم. وقيل: كان ما ألقوا حبالا من أدم فيها زئبق فتحركت وقالوا هذه حيات [(١)]. وقرأ حفص «تلْقف» بإسكان اللام والتخفيف، جعله مستقبل لقف يلقف، قال النحاس: ويجوز على هذه القراءة «تلقف» لأنه من لقف، وقرأ الباقون بالتشديد وفتح اللام، وجعلوه مستقبل تلقف؛ فهي تتلقف. يقال: لقفت الشيء وتلقفته إذا أخذته أو بلعته، تلقف وتلقم وتلهم بمعنى واحد، قال أبو حاتم: وبلغني في بعض القراءات: «تلقَّم» بالميم والتشديد. قال الشاعر:

أَنْتَ عَصَا مُوسى التي لَمْ تزلْ ... تَلقمُ مَـا يأفكُـهُ السَّـاحِـرُ

ويروى: تلقف. ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي ما يكذبون، لأنهم جاؤوا بحبال وجعلوا فيها زئبقا حتى تحركت.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ قال مجاهد: فظهر الحق. ﴿وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ نصب على الحال. والفعل منه صغر يصغر صغرا وصغرا وصغارا. أي انقلب قوم فرعون وفرعون معهم أذلاء مقهورين مغلوبين. فأما السحرة فقد آمنوا.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ إنكار منه عليهم. ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي جرت بينكم وبينه مواطأة في هذا لتستولوا على مصر، أي كان هذا منكم في مدينة مصر قبل أن تبرزوا إلى هذه الصحراء ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديدا لهم. قال ابن عباس: كان فرعون أول من صلب، وقطع الأيدي والأرجل من خلاف، الرجل اليمنى واليد اليسرى، واليد

(١) هذا باطل ولا يصح: ولو صح هذا فقد صحّ الباطل. وذكره البغوي (٣/ ٢٦٥).

obeikandl.com

اليمنى والرجل اليسرى[١] ، عن الحسن.

قوله تعالى ﴿مَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ قرأ الحسن بفتح القاف، قال الأخفش: هي لغة يقال: نقمت الأمر ونقمته أنكرته، أي لست تكره منا سوى أن آمنا بالله وهو الحق. ﴿لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ آياته وبيناته. ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ الإفراغ الصب، أي اصببه علينا عند القطع والصلب. ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فقيل: إن فرعون أخذ السحرة وقطعهم على شاطئ النهر، وإنه آمن بموسى عند إيمان السحرة ستمائة ألف.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ من قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي بإيقاع الفرقة وتشتيت الشمل. ﴿وَيَذَرَكَ﴾ بنصب الراء جواب الاستفهام، والواو نائبة عن الفاء. ﴿وَآلِهَتَكَ﴾ قال الحسن: كان فرعون يعبد الأصنام، فكان يَعبد ويُعبد. قال سليمان التيمي: بلغني أن فرعون كان يعبد البقر. قال التيمي: فقلت للحسن: هل كان فرعون يعبد شيئا؟ قال: نعم؛ إنه كان يعبد شيئا كان قد جعل في عنق[٢]. وقيل: معنى ﴿وَآلِهَتَكَ﴾ أي وطاعتك، كما قيل في قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] إنهم ما عبدوهم ولكن أطاعوهم؛ فصار تمثيلا. وقرأ نعيم بن ميسرة: «ويذرُك» بالرفع على تقدير وهو يذرك. وقرأ الأشهب العقيلي «ويذرْك» مجزوما مخففا يذرك لثقل الضمة. وقرأ أنس بن مالك «ونذرك» بالرفع والنون. أخبروا عن أنفسهم أنهم يتركون عبادته إن ترك موسى حيا. وقرأ علي بن أبي طالب وابن عباس والضحاك «وإلاهتك» ومعناه وعبادتك. وعلى هذه القراءة كان يعبد ولا يعبد، أي ويترك عبادته لك. قال أبو بكر الأنباري: فمن مذهب أصحاب هذه القراءة أن فرعون لما قال ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] نفى أن يكون له رب مع إلاهة. فقيل له: ويذرك وإلاهتك؛ بمعنى ويتركك وعبادة الناس لك. وقراءة العامة «وآلهتك» كما تقدم، وهي مبنية على أن فرعون ادعى الربوبية في ظاهر أمره وكان يعلم أنه مربوب. ودليل هذا قوله عند حضور الحمام ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] فلم يقبل هذا القول منه لما أتى به بعد إغلاق باب التوبة. وكان قبل هذا الحال له إله يعبده سرا دون رب العالمين جل وعز؛ قال الحسن وغيره. وفي حرف أبي « أتذر مُوسى وقومه ليُفسدُوا فى الأرض وَقَدْ تَرَكُوكَ أنْ يَعْبُدُوكَ». وقيل: «وإلاهتك» قيل: كان يعبد بقرة، وكان إذا استحسن بقرة أمر بعبادتها، وقال: أنا ربكم ورب هذه. ولهذا قال ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا﴾ [طه: ٨٨]. ذكره ابن عباس والسدي. قال الزجاج: كان له أصنام صغار يعبدها قومه تقربا إليه فنسبت إليه؛ ولهذا قال ﴿أنا ربكم الأعلى﴾. قال إسماعيل بن إسحاق: قول فرعون: ﴿أَنَا ربكُم الأعلى﴾. يدل على أنهم كانوا يعبدون شيئا غيره،

---

(١) حسن الإسناد: الطبري (٩/ ٢٦) من طريق سعيد بن حبير به.

(٢) كذا عند الطبري (٩/ ٢٨) في تفسيره. وبقية الأقوال هناك، وابن أبي حاتم (٦/ ١٤١).

وقد قيل: إن المراد بالإلاهة على قراءة ابن عباس البقرة التي كان يعبدها، وقيل: أرادوا بها الشمس وكانوا يعبدونها. قال الشاعر:

وَأَعْجَلْنا الإلاهَةَ أنْ تؤوبَا

ثم آنس قومه فقال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بالتخفيف، قراءة نافع وابن كثير. والباقون بالتشديد على التكثير. ﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أي لا تخافوا جانبهم. ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ آنسهم بهذا الكلام. ولم يقل سنقتل موسى لعلمه أنه لا يقدر عليه. وعن سعيد بن جبير قال: كان فرعون قد ملئ من موسى رعبا؛ فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار. ولما بلغ قوم موسى من فرعون هذا قال لهم موسى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ أطمعهم في أن يورثهم الله أرض مصر. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي الجنة لمن اتقى، وعاقبة كل شيء: آخره، ولكنها إذا أطلقت فقيل: العاقبة لفلان فهم منه في العرف الخير.

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ أي في ابتداء ولادتك بقتل الأبناء واسترقاق النساء. ﴿وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أي والآن أعيد علينا ذلك؛ يعنون الوعيد الذي كان من فرعون. وقيل: الأذى من قبل تسخيرهم لبني إسرائيل في أعمالهم إلى نصف النهار، وإرسالهم بقيته ليكتسبوا لأنفسهم. والأذى من بعد: تسخيرهم جميع النهار كله بلا طعام ولا شراب؛ قاله جويبر. وقال الحسن: الأذى من قبل ومن بعد واحد، وهو أخذ الجزية [١]. ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿عَسَى﴾ من الله واجب؛ جدد لهم الوعد وحققه. وقد استخلفوا في مصر في زمان داود وسليمان عليهما السلام، وفتحوا بيت المقدس مع يوشع بن نون؛ كما تقدم. وروي أنهم قالوا ذلك حين خرج بهم موسى وتبعهم فرعون فكان وراءهم والبحر أمامهم، فحقق الله الوعيد بأن غرق فرعون وقومه وأنجاهم. ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ تقدم نظائره أي يرى ذلك العمل الذي يجب به الجزاء؛ لأن الله لا يجازيهم على ما يعلمه منهم؛ إنما يجازيهم على ما يقع منهم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ يعني الجدوب. وهذا معروف في اللغة؛ يقال: أصابتهم سنة، أي جدب، وتقديره جدب سنة، وفي الحديث: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» [٢]. ومن العرب من يعرب النون في السنين؛ وأنشد الفراء:

أَرَى مَرَّ السنين أخَذْنَ مِنِّي كَمَا أخَذَ السِّرار مِنَ الهلالِ [٣]

---

(١) لم أجده موصولاً.

(٢) صحيح: وقد سبق.

(٣) السِّرار: كما في اللسان: الليلة التي يختفي فيها القمر آخر الشهر من قولهم: استسَّر القمر: أي خفي ليلة السِّرار فربما كان ليلة أو ليلتين (١/ ١٢٤).

قال النحاس: وأنشد سيبويه هذا البيت بفتح النون؛ ولكن أنشد في هذا ما لا يجوز غيره، وهو قوله:

وَقَدْ جَاوَزْتُ رأسَ الأربعينَ

وحكى الفراء عن بني عامر أنهم يقولون: أقمت عنده سنينا يا هذا؛ مصروفا، قال: وبنو تميم لا يصرفون ويقولون: مضت له سنين يا هذا، وسنين جمع سنة، والسنة هنا بمعنى الجدب لا بمعنى الحول، ومنه أسْنَتَ القوم أي أجدبوا. قال عبد الله بن الزبعرى:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: ليتعظوا وترق قلوبهم.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ أي الخصب والسعة. ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي أعطيناها باستحقاق. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي قحط ومرض وهي المسألة.

الثانية: ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ أي يتشاءموا به. نظيره ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ [النساء: ٧٨]. والأصل: «يتطيروا» أدغمت التاء في الطاء. وقرأ طلحة «تطيروا» على أنه فعل ماض. والأصل في هذا من الطيرة وزجر الطير، ثم كثر استعمالهم حتى قيل لكل من تشاءم: تطير. وكانت العرب تتيمن بالسانح: وهو الذي يأتي من ناحية اليمين. وتتشاءم بالبارح: وهو الذي يأتي من ناحية الشمال. وكانوا يتطيرون أيضا بصوت الغراب؛ ويتأولونه البين، وكانوا يستدلون بمجاوبات الطيور بعضها بعضا على أمور، وبأصواتها في غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك. وهكذا الظباء إذا مضت سانحة أو بارحة، ويقولون إذا برحت«من لي بالسانح بعد البارح» [(١)]. إلا أن أقوى ما عندهم كان يقع في جميع الطير؛ فسموا الجميع تطيرا من هذا الوجه. وتطير الأعاجم إذا رأوا صبيا يذهب به إلى المعلم بالغداة، ويتيمنون برؤية صبي يرجع من عند المعلم إلى بيته، ويتشاءمون برؤية السقاء على ظهره قربة مملوءة مشدودة، ويتيمنون برؤية فارغ السقاء مفتوحة قربته؛ ويتشاءمون بالحمال المثقل بالحمل، والدابة الموقرة، ويتيمنون بالحمال الذي وضع حمله، وبالدابة يحط عنها ثقلها. فجاء الإسلام بالنهي عن التطير والتشاؤم بما يسمع من صوت طائر ما كان، وعلى أي حال كان؛ فقال عليه السلام: «أقروا الطير على مكناتها» [(٢)]. وذلك أن كثيرا من أهل الجاهلية كان إذا أراد الحاجة أتى

(١) في الأمثال (ص٢٤٥) لابن سلام: أن هذا المثل يضرب للرجل يرى من صاحبه بعض ما يكره، فيستعتبه وتقضى الحاجة، فيقول حينئذ (المثل) وأصله أن رجلاً مرّت به ظباء بارحة، والعرب تتشاءم بها فكره ذلك، فقيل له: إنها ستمر بك سانحة فعندها قال هذا المثل.

(٢) صحيح: أبو داود (٢٨٣٥) في الضحايا عن أم كرز رضى الله عنها وصححه هناك. ومكناتها: المكنات في الأصل بيض الضِّباب، واحدتها: مَكِنَة بكسر الكاف وقد تفتح، قال أبو عبيد، سألت عدة من الأعراب عن=

الطير في وكرها فنفرها؛ فإذا أخذت ذات اليمين مضى لحاجته، وهذا هو السانح عندهم. وإن أخذت ذات الشمـال رجع، وهذا هو البـارح عندهم. فنهى النبي ﷺ عن هذا بقولـه: «أقروا الطيـر على مكناتها» هكذا في الحديث، وأهل العربية يقولون: «وكناتها» قال امرؤ القيس:

وَقَدْ أغْتدي وَالطيرَ فِي وُكناتِهَا

والوكنة: اسم لكل وكر وعش، والوكن: موضع الطائر الذي يبيض فـيه ويفرخ، وهو الخرق في الحيطان والشجر. ويقال: وكن الطائر يكن وكونا إذا حضن بيضه. وكان أيضا من العرب من لا يرى التطير شيئا، ويمدحون من كذب به. قال المرقش:

وَلَقدْ غدوتُ وكنتُ لاَ أغدُو عَلَى واق وَحَاتِمِ
فَإذا الأشَائِـمُ كالأيَـا مِن والأيامنُ كالأشائِمِ

وقال عكرمة: كنت عند ابن عباس فمر طائر يصيح؛ فقال رجل من القوم: خير، خير. فقال ابن عباس: ما عند هذا لا خـير ولا شر. قـال علماؤنا: وأما أقـوال الطير فلا تعلق لهـا بما يجعل دلالة عليه، ولا لها علم بكائن فضـلا عن مستقبل فتخبـر به، ولا في الناس من يعلم منطق الطير؛ إلا ما كان الله تعالى خص به سليمان ﷺ من ذلك، فالتحق التطير بجملة الباطل. والله أعلم. وقال ﷺ: «ليس منا من تحلم أو تكهن أو رده عن سفره تطير»(١). وروى أبو داود عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «الطيرة شرك - ثلاثا - وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل»(٢). وروى عبدالله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال: «من رجعته الطيرة عن حاجته فقد أشرك». قيل: وما كفارة ذلك يا رسول الله؟ قال: «أن يقول أحدهم اللهم لا طيـر إلا طيرك ولا خير إلا خيـرك ولا إله غيرك ثم يمضي لحاجته»(٣). وفي خبر آخر: «إذا وجد ذلك أحدكم فليقل اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئـات إلا أنت لا حول ولا قوة إلا بك»(٤). ثم يذهب متوكـلا على الله؛ فإن الله يكفيه ما وجد في نفسه من ذلك، وكفاه الله تعالى ما يهمه، وقد تقدم في المائدة الفرق بين الفأل والطيرة.

قوله تـعالى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ وقـرأ الحسن: «طيـرهم» جـمع طائر. أي ما قـدر لهم وعليهم. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما لحقهم من القـحط والشدائد، إنما هو من عند الله عز وجل بذنوبهم لا من عند موسى وقومه.

= مكناتها فقالوا: لا نعرف للطير مكنات، وإنما هي وكنات .... ثم قال: وجائز في كلام العرب أن يستعار مكنات الضِباب فيجعل للطيـر تشبيهًا بذلـك، كما قالوا: مشـافر الحَبَش، وإنما المشافـر للإبل وقيل: بمعنى الأمكنة ا.هـ. اللسان (١٣/ ٤١٢).

(١) صحيح بنحوه: البزار بـإسناد جيد عن عمران بن الحصين، وابن عباس كمـا في رواية الطبراني، وهو ما ذكره المنذري (٤/ ٨٨٠) في الترغيب دون ذكر التحلم وصححه الألباني (٥٤٣٥) في صحيح الحاكم.

(٢) صحيح: أبو داود (٣٩١٠) في الطب، والترمذي (١٦١٤) في السير وقال ابن الأثير (٣/ ١٥٢) في النهاية في قوله ﷺ: «ومنا إلا ولكن ...» هكذا جاء الحـديث مقطوعًا ولم يذكر المستثنى، أي: وقد يـعتريه التطير، ويستبق إلى قلبه الكراهة، فحذف اختصارًا واعتمادًا على فهم السامع أ.هـ.

(٣) ضعيف: أحمد (٢/ ٢٢٠) في مسنده عن عبد الله بن عمرو وفيه ضعف.

(٤) ضعيف: أبو داود (٣٩١٩) في الطب عن عروة بن عامر، وضعفه الألباني هناك.

﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ أي قال قوم فرعون لموسى «مهما». قال الخليل: الأصل ما، ما؛ الأولى للشرط، والثانية زائدة توكيد للجزاء؛ كما تزاد في سائر الحروف، مثل إما وحيثما وأينما وكيفما. فكرهوا حرفين لفظهما واحد؛ فأبدلوا من الألف الأولى هاء فقالوا: مهما. وقال الكسائي: أصله مه؛ أي اكفف، ما تأتنا به من آية. وقيل: هي كلمة مفردة، يجازى بها ليجزم ما بعدها على تقدير إن. والجواب: ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿لِتَسْحَرَنَا﴾ لتصرفنا عما نحن عليه وقد مضى في «البقرة» بيان هذه اللفظة. قيل: بقي موسى في القبط بعد إلقاء السحرة سجدا عشرين سنة يريهم الآيات إلى أن أغرق الله فرعون، فكان هذا قولهم.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: روى إسرائيل عن سماك عن نوف الشامي قال: مكث موسى ﷺ في آل فرعون بعد ما غلب السحرة أربعين عاما [١]. وقال محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن منجاب: عشرين سنة، يريهم الآيات: الجراد والقمل والضفادع والدم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿الطُّوفَانَ﴾ أي المطر الشديد حتى عاموا فيه. وقال مجاهد وعطاء: الطوفان الموت [٢] قال الأخفش: واحدته طوفانة، وقيل: هو مصدر كالرجحان والنقصان؛ فلا يطلب له واحد. قال النحاس: الطوفان في اللغة ما كان مهلكا من موت أو سيل؛ أي ما يطيف بهم فيهلكهم. وقال السدي: ولم يصب بني إسرائيل قطرة من ماء، بل دخل بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، ودام عليهم سبعة أيام. وقيل: أربعين يوما. فقالوا: ادع لنا ربك يكشف عنا فنؤمن بك؛ فدعا ربه فرفع عنهم الطوفان فلم يؤمنوا. فأنبت الله لهم في تلك السنة ما لم ينبته قبل ذلك من الكلأ والزرع، فقالوا: كان ذلك الماء نعمة؛ فبعث الله عليهم الجراد وهو الحيوان المعروف، جمع جرادة في المذكر والمؤنث، فإن أردت الفصل نعت فقلت: رأيت جرادة ذكرا - فأكل زروعهم وثمارهم حتى أنها كانت تأكل السقوف والأبواب حتى تنهدم ديارهم. ولم يدخل دور بني إسرائيل منها شيء [٣].

الثالثة: واختلف العلماء في قتل الجراد إذا حل بأرض فأفسد؛ فقيل: لا يقتل. وقال أهل الفقه كلهم: يقتل، احتج الأولون بأنه خلق عظيم من خلق الله يأكل من رزق الله ولا يجري عليه القلم.

---

(١) هذا إسناد حسن.

(٢) في إسناده ضعف: فيه جهالة من حديث ابن جريج عن مجاهد، وانظر الطبري (٩/ ٣٤) وقد رواه مسندًا عن عطاء الخراساني، وعن ابن جريج ولا يصح مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

(٣) مرسل: الطبري (٩/ ٣٨).

وبما روي «لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم» (١). واحتج الجمهور بأن في تركها فساد الأموال، وقد رخص النبي ﷺ بقتال المسلم إذا أراد أخذ ماله؛ فالجراد إذا أرادت فساد الأموال كانت أولى أن يجوز قتلها. ألا ترى أنهم قد اتفقوا على أنه يجوز قتل الحية والعقرب؟ لأنهما يؤذيان الناس فكذلك الجراد. روى ابن ماجة عن جابر وأنس بن مالك أن النبي ﷺ كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم أهلك كباره واقتل صغاره ،وأفسد بيضه، واقطع دابره وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا إنك سميع الدعاء». قال رجل: يا رسول الله، كيف تدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ قال: «إن الجراد نثرة الحوت في البحر» (٢).

الرابعة : ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن أبي أوفى قال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه (٣). ولم يختلف العلماء في أكله على الجملة، وأنه إذا أخذ حيا وقطعت رأسه أنه حلال باتفاق. وإن ذلك يتنزل منه منزلة الذكاة فيه. وإنما اختلفوا هل يحتاج إلى سبب يموت به إذا صيد أم لا؛ فعامتهم على أنه لا يحتاج إلى ذلك، ويؤكل كيفما مات. وحكمه عندهم حكم الحيتان، وإليه ذهب ابن نافع ومطرف وذهب مالك إلى أنه لا بد له من سبب يموت به؛ كقطع رؤوسه أو أرجله أو أجنحته إذا مات من ذلك، أو يصلق أو يطرح في النار؛ لأنه عنده من حيوان البر فميتته محرمة. وكان الليث يكره أكل ميت الجراد، إلا ما أخذ حيا ثم مات فإن أخذه ذكاة، وإليه ذهب سعيد بن المسيب. وروى الدارقطني عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أحل لنا ميتتان الحوت والجراد ودمان الكبد والطحال» (٤). وقال ابن ماجة: حدثنا أحمد بن منيع حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي سعيد سمع أنس بن مالك يقول: كن أزواج النبي ﷺ يتهادين الجراد على الأطباق (٥). ذكره ابن المنذر أيضا.

الخامسة : روى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق ألف أمة ستمائة منها في البحر وأربعمائة في البر وإن أول هلاك هذه الأمم الجراد فإذا هلكت الجراد تتابعت الأمم مثل نظام السلك إذا انقطع» (٦). ذكره الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» وقال: وإنما صار الجراد أول هذه الأمم هلاكا لأنه خلق من الطينة التي فضلت من طينة آدم. وإنما تهلك الأمم لهلاك الآدميين لأنها مسخرة لهم.

رجعنا إلى قصة القبط - فعاهدوا موسى أن يؤمنوا لو كشف عنهم الجراد، فدعا فكشف وكان

---

(١) ضعيف : البيهقي في الشعب (١٠١٢٧) عن أبي زهير النمري وحسنه الألباني (٧٣٨٨) في صحيح الجامع .

(٢) موضوع : الترمذي (١٨٢٣) في الأطعمة ، وابن ماجه (٣٢٢١) في الصيد وضعفه الألباني هناك . ونثرته في النهاية (٥/ ١٥): عطسته .

(٣) صحيح : البخاري (٥٤٩٥) في الصيد ، مسلم (١٩٥٢) في الصيد .

(٤) صحيح : وقد سبق .

(٥) ضعيف : ابن ماجه (٣٢٢٠) في الصيد وضعفه الألباني هناك .

(٦) موضوع : الموضوعات (١٤١٣) لابن الجوزي ، وانظر النافلة (١/ ٣٢) لفضيلة الشيخ المحدث أبي إسحاق الحويني (حفظه الله تعالى) .

قد بقي من زروعهم شيء فقالوا: يكفينا ما بقي؛ ولم يؤمنوا فبعث الله عليهم القمل، وهو صغار الدبى؛ قاله قتادة. والدبى [١]: الجراد قبل أن يطير، الواحدة دباة. وأرض مدبية إذا أكل الدبى نباتها. وقال ابن عباس: القمل السوس الذي في الحنطة [٢]. وقال ابن زيد: البراغيث [٣]. وقال الحسن: دواب سود صغار [٤]. وقال أبو عبيدة: الحمنان، وهو ضرب من القراد، واحدها حمنانة. فأكلت دوابهم وزروعهم، ولزمت جلودهم كأنها الجدري عليهم، ومنعهم النوم والقرار. وقال حبيب بن أبي ثابت: القمل الجعلان [٥]. والقمل عند أهل اللغة ضرب من القردان. قال أبو الحسن الأعرابي العدوي: القمل دواب صغار من جنس القردان؛ إلا أنها أصغر منها، واحدتها قملة. قال النحاس: وليس هذا بناقض لما قاله أهل التفسير؛ لأنه يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم، وهي أنها كلها تجتمع في أنها تؤذيهم. وذكر بعض المفسرين أنه كان «بعين شمس» كثيب من رمل فضربه موسى بعصاه فصار قملا. وواحد القمل قملة. وقيل: القُمَّل القمل؛ قاله عطاء الخراساني. وفي قراءة الحسن «والقَمْل» بفتح القاف وإسكان الميم فتضرعوا فلما كشف عنهم لم يؤمنوا؛ فأرسل الله عليهم الضفادع، جمع ضفدع وهي المعروفة التي تكون في الماء، وفيه مسألة واحدة هي أن النهي ورد عن قتلها؛ أخرجه أبو داود وابن ماجة بإسناد صحيح، أخرجه أبو داود عن أحمد بن حنبل عن عبدالرزاق وابن ماجة عن محمد بن يحيى النيسابوري الذهلي عن أبي هريرة قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الصرد والضفدع والنملة والهدهد [٦]. وخرج النسائي عن عبدالرحمن بن عثمان أن طبيبا ذكر ضفدعا في دواء عند النبي ﷺ فنهاه النبي ﷺ عن قتله [٧]. صححه أبو محمد عبدالحق. وعن أبي هريرة قال: الصرد أول طير صام. ولما خرج إبراهيم عليه السلام من الشأم إلى الحرم في بناء البيت كانت السكينة معه والصرد؛ فكان الصرد دليله إلى الموضع، والسكينة مقداره. فلما صار إلى البقعة وقعت السكينة على موضع البيت ونادت: ابن يا إبراهيم على مقدار ظلي؛ فنهى النبي ﷺ عن قتل الصرد لأنه كان دليل إبراهيم على البيت، وعن الضفدع لأنها كانت تصب الماء على نار إبراهيم. ولما تسلطت على فرعون جاءت فأخذت الأمكنة كلها، فلما صارت إلى التنور وثبت فيها وهي نار تسعر، طاعة لله. فجعل الله نقيقها تسبيحا. يقال: إنها أكثر الدواب تسبيحا [٨]. قال عبدالله بن عمرو: لا تقتلوا الضفدع فإن نقيقه الذي تسمعون تسبيح [٩]. فروي أنها ملأت فرشهم وأوعيتهم

---

(١) حسن إليه :الطبري (٩/ ٣٦) في تفسيره .

(٢) حسن :السابق (٩/ ٣٥) من طريق سعيد بن جبير .

(٣) حسن :السابق (٩/ ٣٦) .

(٤) هو قول الحسن وابن جبير كما في السابق نفسه .

(٥) كذا عند أبي حيان (٤/ ٢٧٣) .

(٦) صحيح :ابن ماجه (٣٢٢٣) عن أبي هريرة به ، وأبو داود (٥٢٦٧) عن ابن عباس به.

(٧) صحيح :النسائي (٧/ ٢١٠) في الصيد ، وأبو داود (٥٢٦٩) في الأدب، وصححه الألباني هناك .

(٨) هذا لا سند له من قول معصوم بالوحي والله أعلم، فإياه وإياه .

(٩) كذا عند ابن أبي حاتم برقم (٨٨٧٩) في تفسيره .

وطعامـهم وشرابهم؛ فكان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفـادع، وإذا تكلم وثب الضفدع في فـيه. فشكوا إلى موسى وقالوا: نتوب؛ فكشف الله عنهم ذلك فعادوا إلى كفرهم؛ فأرسل الله عليهم الدم فسال النيل عليهم دما. وكان الإسرائـيلي يغترف منه الماء، والقبطي الدم. وكان الإسرائيلي يصب الماء في فم القبطـي فيصـير دما، والقـبطي يصب الدم في فم الإسرائيلي فـيصيـر ماء زلالا (١). ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ أي مبـينات ظاهرات؛ عن مجاهد. قـال الزجاج: ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ نصب على الحال. ويروى أنه كـان بين الآية والآية ثمـانيـة أيام. وقـيل: أربعـون يوما. وقـيل: شـهر؛ فلـهذا قـال: ﴿مُفَصَّلَاتٍ﴾. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي ترفعوا عن الإيمان بالله تعالى.

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي العذاب. وقرئ بضم الراء، لغتـان. قال ابن جبير: كان طاعونـا مات به من القـبط في يوم واحد سـبعـون ألفا (٢). وقيل: المراد بالرجز مـا تقدم ذكره من الآيات. ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ ﴿ما﴾ بمعنى الذي، أي بما استودعك من الـعلم، أو بما اختصك به فنبأك. وقيل: هذا قسـم، أي بعهده عندك إلا مـا دعوت لنا؛ فـ ﴿مـا﴾ صلة. ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ أي بدعـائك لإلهك حـتى يكشف عنا. ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ أي نصـدقك بما جـئت به. ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وكانوا يستخـدمونهم؛ على ما تقدم. ﴿إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ﴾ يعني أجلهم الذي ضرب لهم في التغريق. ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ أي ينقضون ما عـقدوه على أنفسهم. ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ واليم البحر. ﴿وَكَانُوا عَنْهَا﴾ أي النقمة. دل عليها ﴿فانتَقَمْنا﴾. وقيل: عن الآيات أي لم يعتبروا بها حتى صاروا كالغافلين عنها.

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ﴾ يريد بني إسرائيل. ﴿الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ أي يستذلون بالخدمة. ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ زعم الكسائي والفـراء أن الأصل «في مشارق الأرض ومغـاربها» ثم حذف «في» فنصب. والظاهر أنهم ورثوا أرض القبط. فهما نصب على المفعول الصريح؛ يقال: ورثت المال وأورثته المال؛ فلما تعدى الفعل بالهمزة نصب مفـعولين. والأرض هي أرض الشأم ومصر. ومشارقها ومغاربها جهات الشـرق والغرب بها؛ فالأرض مخصوصة، عن الحسن وقتـادة وغيرهما. وقيل: أراد

(١) كذا رواه الطبري (٩/ ٣٧) عن سعيد بن جبير به في التفسير وعن قتادة أيضًا.

(٢) حسن الإسناد: وإن كان في إسناد الطبري شيخه (محمد بن حميد) وانظر الطبري (٩/ ٣٧) مطولاً.

جميع الأرض؛ لأن من بني إسرائيل داود وسليمان وقد ملكا الأرض. ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي بإخراج الزروع والثمار والأنهار. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هي قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص٥]. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي بصبرهم على أذى فرعون، وعلى أمر الله بعد أن آمنوا بموسى. ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ يقال: عرش يعرش إذا بنى. قال ابن عباس ومجاهد: أي ما كانوا يبنون من القصور وغيرها [١]. وقال الحسن: هو تعريش الكرم [٢]. وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم «يعرُشون» بضم الراء. قال الكسائي: هي لغة تميم، وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة «يُعرِّشون» بتشديد الراء وضم الياء.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر الكاف، والباقون بضمها. يقال: عكَف يَعْكِف ويَعْكُف بمعنى أقام على الشيء ولزمه، والمصدر منهما على فعول. قال قتادة: كان أولئك القوم من لخم، وكانوا نزولا بالرقة [٣] وقيل: كانت أصنامهم تماثيل بقر؛ ولهذا أخرج لهم السامري عجلا. ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ نظيره قول جهال الأعراب وقد رأوا شجرة خضراء للكفار تسمى ذات أنواط [٤] يعظمونها في كل سنة يوما: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال عليه الصلاة والسلام: «الله أكبر. قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لتركبن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة حتى إنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» [٥]. وكان هذا في مخرجه إلى حنين، على ما يأتي بيانه في «براءة» إن شاء الله تعالى.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي مهلك، والتبار: الهلاك، وكل إناء مكسر متبر، وأمر متبر. أي إن العابد والمعبود مهلكان. ﴿وَبَاطِلٌ﴾ أي ذاهب مضمحل. ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ صلة زائدة. ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أي: أطلب لكم إلها غير الله تعالى، يقال: بغيته

(١) ضعيف إلى ابن عباس: للانقطاع بين علي بن أبي طلحة الوالبي وبين الحبر ابن عباس رضى الله عنهما كما في تفسير الطبري (٩/ ٤٨) وكذا رواه عن مجاهد بسند صحيح.

(٢) البحر المحيط (٤/ ٣٧٧) لأبي حيان.

(٣) كذا عند الطبري (٩/ ٤٩) في تفسيره ولا يصح.

(٤) ذات أنواط: اسم الشجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم ـ أي يعلقونه ـ ويعكفون حولها كما في النهاية (٥/ ١٢٨) لابن الأثير.

(٥) صحيح بنحوه: الترمذي (٢١٨٠) في الفتن عن أبي واقد الليثي وليس في ذكر الضب ولا القذة، وإنما هما في رواية الصحيح.

وبغيت له. ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي على عالمي زمانكم. وقيل: فضلهم بإهلاك عدوهم، وبما خصهم به من الآيات.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

ذكرهم منته، وقيل: هو خطاب ليهود عصر النبي ﷺ، أي واذكروا إذ أنجينا أسلافكم؛ حسب ما تقدم بيانه في سورة «البقرة».

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ ذكر أن مما كرم الله به موسى ﷺ هذا فكان وعده المناجاة إكراما له. ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد ومسروق رضي الله عنهم: هي ذو القعدة وعشر من ذي الحجة (١). أمره أن يصوم الشهر وينفرد فيه بالعبادة؛ فلما صامه أنكر خلوف فمه فاستاك. قيل: بعود خرنوب؛ فقالت الملائكة: إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك. فزيد عليه عشر ليال من ذي الحجة، وقيل: إن الله تعالى أوحى إليه لما استاك: «يا موسى لا أكلمك حتى يعود فوك إلى ما كان عليه قبل، أما علمت أن رائحة الصائم أحب إلي من ريح المسك». وأمره بصيام عشرة أيام (٢). وكان كلام الله تعالى لموسى ﷺ غداة النحر حين فدى إسماعيل من الذبح، وأكمل لمحمد ﷺ الحج. وحذفت الهاء من عشر لأن المعدود مؤنث. والفائدة في قوله: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وقد علم أن ثلاثين وعشرة أربعون، لئلا يتوهم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها؛ فبين أن العشر سوى الثلاثين. فإن قيل: فقد قال في البقرة أربعين، قال هنا ثلاثين؛ فيكون ذلك من البداء، قيل: ليس كذلك؛ فقد قال: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ والأربعون، والثلاثون والعشرة قول واحد ليس بمختلف، وإنما قال القولين على تفصيل وتأليف؛ قال أربعين في قول مؤلف، وقال ثلاثين، يعني شهرا متتابعا وعشرا، وكل ذلك أربعون؛ كما قال الشاعر:

عشر وأربع....

يعني أربع عشرة، ليلة البدر، وهذا جائز في كلام العرب.

الثانية: قال علماؤنا: دلت هذه الآية على أن ضرب الأجل للمواعدة سنة ماضية، ومعنى قديم أسسه الله تعالى في القضايا، وحكم به للأمم، وعرفهم به مقادير التأني في الأعمال. وأول أجل

---

(١) ذكره الطبري منقطعًا بين ابن جريج وابن عباس، وبسند واحد صحيح إلى مجاهد، وبعدة أسانيد ضعاف، ثم هو حسن إلى مسروق وانظر التفسير (٩/ ٥١، ٥٢).

(٢) ذكره الديلمي (٥٣٤٩) عن ابن عباس رضى الله عنهما.

ضربه الله تعالى الأيام الستة التي خلق فيها جميع المخلوقات، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]. وقد بينا معناه فيما تقدم في هذه السورة من قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف:٥٤]. قال ابن العربي [١]: فإذا ضرب الأجل لمعنى يحاول فيه تحصيل المؤجل فجاء الأجل ولم يتيسر زيد فيه تبصرة ومعذرة. وقد بين الله تعالى ذلك لموسى عليه السلام فضرب له أجلا ثلاثين ثم زاده عشرا تتمة أربعين. وأبطأ موسى عليه السلام في هذه العشر على قومه؛ فما عقلوا جواز التأني والتأخر حتى قالوا: إن موسى ضل أو نسي، ونكثوا عهده وبدلوا بعده، وعبدوا إلها غير الله. قال ابن عباس: إن موسى قال لقومه: إن ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه، وأخلف فيكم هارون، فلما فصل [٢] موسى إلى ربه زاده الله عشرا؛ فكانت فتنتهم في العشر التي زاده الله بما فعلوه من عبادة العجل؛ على ما يأتي بيانه. ثم الزيادة التي تكون على الأجل تكون مقدرة؛ كما أن الأجل مقدر، ولا يكون إلا باجتهاد من الحاكم بعد النظر إلى المعاني المتعلقة بالأمر: من وقت وحال وعمل، فيكون مثل ثلث المدة السالفة؛ كما أجل الله لموسى. فإن رأى الحاكم أن يجمع له الأصل في الأجل والزيادة في مدة واحدة جاز، ولكن لا بد من التربص بعدها لما يطرأ من العذر على البشر، قاله ابن العربي [٣]. روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة» [٤].

قلت: وهذا أيضا أصل لإعذار الحكام إلى المحكوم عليه مرة بعد أخرى. وكان هذا لطفا بالخلق، ولينفذ القيام عليهم بالحق. يقال: أعذر في الأمر أي بالغ فيه؛ أي أعذر غاية الإعذار الذي لا إعذار بعده. وأكبر الإعذار إلى بني آدم بعثة الرسل إليهم لتتم حجته عليهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء:١٥]. وقال ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧] قيل: هم الرسل. ابن عباس: هو الشيب. فإنه يأتي في سن الاكتهال، فهو علامة لمفارقة سن الصبا، وجعل الستين غاية الإعذار لأن الستين قريب من معترك العباد، وهو سن الإنابة والخشوع والاستسلام لله، وترقب المنية ولقاء الله؛ ففيه إعذار بعد إعذار. الأول بالنبي عليه السلام، والثاني بالشيب؛ وذلك عند كمال الأربعين؛ قال الله تعالى ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [الأحقاف:١٥]. فذكر عز وجل أن من بلغ أربعين فقد آن له أن يعلم مقدار نعم الله عليه وعلى والديه ويشكرها. قال مالك: أدركت أهل العلم ببلدنا، وهم يطلبون الدنيا ويخالطون الناس حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة؛ فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس.

الثالثة: ودلت الآية أيضا على أن التاريخ يكون بالليالي دون الأيام؛ لقوله تعالى: ﴿ثَلاثِينَ لَيْلَةً﴾ لأن الليالي أوائل الشهور، وبها كانت الصحابة رضي الله عنهم تخبر عن الأيام؛ حتى روي عنها أنها كانت تقول: صمنا خمسا مع رسول الله ﷺ. والعجم تخالف في ذلك، فتحسب بالأيام لأن معولها على الشمس. ابن العربي: وحساب الشمس للمنافع، وحساب القمر للمناسك؛ ولهذا قال: ﴿وَوَاعَدْنَا

---

(١) أحكام القرآن (٢/ ٧٩٠).

(٢) سبق في البقرة أن فصل يعني: خرج.

(٣) أحكام القرآن في (٢/ ٥٩١).

(٤) صحيح: البخاري (٦٤١٩) في الرقاق.

مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ﴾. فيقال: أرخت تاريخا، وورخت توريخا؛ لغتان.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ ﴾ المعنى: وقال موسى حين أراد المضي للمناجاة والمغيب فيها لأخيه هارون: كن خليفتي؛ فدل على النيابة. وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي حين خلفه في بعض مغازيه: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» (١). فاستدل بهذا الروافض والإمامية وسائر فرق الشيعة على أن النبي ﷺ استخلف عليا على جميع الأمة؛ حتى كفر الصحابة الإمامية - قبحهم الله - لأنهم عندهم تركوا العمل الذي هو النص على استخلاف علي واستخلفوا غيره بالاجتهاد منهم. ومنهم من كفر عليا إذ لم يقم بطلب حقه. وهؤلاء لا شك في كفرهم وكفر من تبعهم على مقالتهم، ولم يعلموا أن هذا استخلاف في حياة كالوكالة التي تنقضي بعزل الموكل أو بموته، لا يقتضي أنه متماد بعد وفاته؛ فينحل على هذا ما تعلق به الإمامية وغيرهم، وقد استخلف النبي ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم وغيره، ولم يلزم من ذلك استخلافه دائما بالاتفاق، على أنه قد كان هارون شرك مع موسى في أصل الرسالة، فلا يكون لهم فيه على ما راموه دلالة، والله الموفق للهداية. قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أمر بالإصلاح. قال ابن جريج: كان من الإصلاح أن يزجر السامري ويغير عليه (٢). وقيل: أي ارفق بهم، وأصلح أمرهم، وأصلح نفسك؛ أي كن مصلحا. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي لا تسلك سبيل العاصين، ولا تكن عونا للظالمين.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ أي في الوقت الموعود. ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ أي أسمعه كلامه من غير واسطة. ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ سأل النظر إليه؛ واشتاق إلى رؤيته لما أسمعه كلامه.

قوله تعالى ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ أي في الدنيا. ولا يجوز الحمل على أنه أراد: أرني آية عظيمة لأنظر إلى قدرتك؛ لأنه قال ﴿إِلَيْكَ﴾ و﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾. ولو سأل آية لأعطاه الله ما سأل، كما أعطاه سائر الآيات. وقد كان لموسى عليه السلام فيها مقنع عن طلب آية أخرى؛ فبطل هذا التأويل. ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ ضرب له مثالا مما هو أقوى من بنيته وأثبت. أي فإن ثبت الجبل وسكن فسوف تراني، وإن لم يسكن فإنك لا تطيق رؤيتي، كما أن الجبل لا يطيق رؤيتي. وذكر القاضي عياض عن القاضي أبي بكر بن الطيب ما معناه: أن موسى عليه السلام رأى الله فلذلك خر صعقا، وأن الجبل رأى ربه فصار دكا بإدراك خلقه الله له. واستنبط ذلك من قوله ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾. ثم قال ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ وتجلى معناه ظهر؛

(١) صحيح: البخاري (٤٤١٦) في المغازي، ومسلم (٢٤٠٤/ ٣٠، ٣١) في فضائل الصحابة عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه.

(٢) حسن: الطبري (٩/ ٥٣) في التفسير مطولاً.

من قولك: جلوت العروس أي أبرزتها. وجلوت السيف أبرزته من الصدأ؛ جلاء فيهما. وتجلى الشيء انكشف. وقيل: تجلى أمره وقدرته؛ قاله قطرب وغيره. وقراءة أهل المدينة وأهل البصرة «دكا»؛ يدل على صحتها ﴿دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١] وأن الجبل مذكر. وقرأ أهل الكوفة: «دكاء» أي جعله مثل أرض دكاء، وهي الناتئة لا تبلغ أن تكون جبلا. والمذكر أدك، وجمع دكاء دكاوات ودك؛ مثل حمراوات وحمر، قال الكسائي: الدك من الجبال: العراض، واحدها أدك. غيره: والدكاوات جمع دكاء: رواب من طين ليست بالغلاظ. والدكداك كذلك من الرمل: ما التبد بالأرض فلم يرتفع. وناقة دكاء لا سنام لها. وفي التفسير: فساخ الجبل في الأرض؛ فهو يذهب فيها حتى الآن. وقال ابن عباس: جعله ترابا [١]. عطية العوفي: رملا هائلا. ﴿وخرَّ موسَىٰ صَعِقًا﴾ أي مغشيا عليه؛ عن ابن عباس والحسن وقتادة [٢]. وقيل: ميتا؛ يقال: صعق الرجل فهو صعق. وصعق فهو مصعوق. وقال قتادة والكلبي: خر موسى صعقا يوم الخميس يوم عرفة، وأعطي التوراة يوم الجمعة يوم النحر. ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قال مجاهد: من مسألة الرؤية في الدنيا [٣]. وقيل: سأل من غير استئذان؛ فلذلك تاب. وقيل: قال على جهة الإنابة إلى الله والخشوع له عند ظهور الآيات. وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية؛ فإن الأنبياء معصومون، وأيضا عند أهل السنة والجماعة الرؤية جائزة، وعند المبتدعة سأل لأجل القوم ليبين لهم أنها غير جائزة، وهذا لا يقتضي التوبة. فقيل: أي تبت إليك من قتل القبطي؛ ذكره القشيري. وقد مضى في «الأنعام» بيان أن الرؤية جائزة. قال علي بن مهدي الطبري: لو كان سؤال موسى مستحيلا ما أقدم عليه مع معرفته بالله؛ كما لم يجز أن يقول له يا رب ألك صاحبة وولد، وسيأتي في «القيامة» مذهب المعتزلة والرد عليهم إن شاء الله تعالى [٤].

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: من قومي. وقيل: من بني إسرائيل في هذا العصر. وقيل: بأنك لا ترى في الدنيا لوعدك السابق، في ذلك. وفي الحديث الصحيح من حديث أبي هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «لا تخيروا بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأرفع رأسي فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أصعق فيمن صعق فأفاق قبلي أو حوسب بصفته الأولى». أو قال: «كفته صعقته الأولى» [٥]. وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن كعب قال: إن الله تبارك وتعالى قسم كلامه ورؤيته بين محمد وموسى صلى الله وسلم عليهما؛ فكلمه موسى مرتين، ورآه محمد ﷺ مرتين.

---

(١) كذا عند الطبري (٩/ ٥٧) بإسناد ضعيف، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠) في تفسيره.

(٢) أما قول ابن عباس، فانظر السابق، ورواه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨١) عن الضحاك عن ابن عباس منقطعًا، وانظر باقي الأقوال هناك، وعند الطبري (٩/ ٥٧).

(٣) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٩/ ٦٠) بسند فيه رجل عن مجاهد، وفي تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢) أن الرجل هو ابن أبي نجيح.

(٤) انظر تفصيل ذلك عند الآية (٥٦) من سورة البقرة، والآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة البقرة.

(٥) صحيح: البخاري (٢٤١١) في الخصومات، ومسلم (٢٣٧٣) في الفضائل.

obeikandi.com

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ الاصطفاء: الاجتباء؛ أي فضلتك. ولم يقل على الخلق؛ لأن من هذا الاصطفاء أنه كلمه وقد كلم الملائكة وأرسله وأرسل غيره. فالمراد ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ المرسل إليهم. وقرأ «برسالتي» (١) على الإفراد نافع وابن كثير. والباقون بالجمع. والرسالة مصدر، فيجوز إفرادها. ومن جمع على أنه أرسل بضروب من الرسالة فاختلفت أنواعها، فجمع المصدر لاختلاف أنواعه؛ كما قال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان١٩]. فجمع لاختلاف أجناس الأصوات واختلاف المصوتين. ووحد في قوله: «الصوت» لما أراد به جنسا واحدا من الأصوات. ودل هذا على أن قومه لم يشاركه في التكليم ولا واحد من السبعين؛ كما بيناه في «البقرة».

قوله تعالى ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ إشارة إلى القناعة؛ أي اقنع بما أعطيتك. ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي من المظهرين لإحساني إليك وفضلي عليك؛ يقال: دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطى من العلف. والشاكر معرض للمزيد كما قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]. ويروى أن موسى عليه السلام مكث بعد أن كلمه الله تعالى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور الله عز وجل (٢).

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يريد التوراة. وروي في الخبر أنه قبض عليه جبريل عليه السلام بجناحه فمر به في العلا حتى أدناه حتى سمع صريف القلم حين كتب الله له الألواح(٣)؛ ذكره الترمذي الحكيم، وقال مجاهد: كانت الألواح من زمردة خضراء (٤). ابن جبير: من ياقوتة حمراء (٥). أبو العالية: من زبرجد (٦). الحسن: من خشب (٧)؛ نزلت من السماء. وقيل: من صخرة صماء، لينها الله لموسى عليه السلام فقطعها بيده ثم شقها بأصابعه؛ فأطاعته كالحديد لداود (٨). قال مقاتل: أي كتبنا له في الألواح كنقش الخاتم. ربيع بن أنس: نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير (٩). وأضاف الكتابة إلى نفسه على جهة التشريف؛ إذ هي مكتوبة بأمره كتبها جبريل بالقلم الذي كتب به الذكر. واستمد من نهر النور. وقيل: هي كتابة أظهرها الله وخلقها في الألواح. وأصل اللوح: لوح «بفتح اللام»؛ قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]. فكأن اللوح تلوح فيه المعاني. ويروى أنها لوحان، وجاء بالجمع لأن الاثنين جمع.

(١) كذا عند الطبري (٥١٢٧) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٣٣) في المصنف. (٢) هذا لاسند له.

(٣ ـ ٩) هذه الأقوال انظرها عند السيوطي (٦/ ٥٦٦، ٥٦٧) مسندة إلى أحسن بها ولا دليل عليها فكما تراها منقولة عن التابعين مقطوعة عليهم ولا يدرى لها مصدر إلا الإسرائيليات والله أعلم وانظر الطبرى (٨/ ٧١، ٧٢) وما بعدها، وانظر الإسرائيليات والموضوعات لابن أبى شيبة ص٢٠٢، ٢٠٣.

ويقال: رجل عظيم الألواح إذا كان كبير عظم اليدين والرجلين. ابن عباس: وتكسرت الألواح حين ألقاها فرفعت إلا سدسها [١]. وقيل: بقي سبعها ورفعت ستة أسباعها، فكان في الذي رفع تفصيل كل شيء، وفي الذي بقي الهدى والرحمة. وأسند أبو نعيم الحافظ عن عمرو بن دينار قال: بلغني أن موسى بن عمران نبي الله ﷺ صام أربعين ليلة؛ فلما ألقى الألواح تكسرت فصام مثلها فردت إليه [٢]. ومعنى ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يحتاج إليه في دينه من الأحكام وتبيين الحلال والحرام؛ عن الثوري وغيره. وقيل: هو لفظ يذكر تفخيما ولا يراد به التعميم؛ تقول: دخلت السوق فاشتريت كل شيء. وعند فلان كل شيء. و﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]. ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]. وقد تقدم. ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي لكل شيء أمروا به من الأحكام؛ فإنه لم يكن عندهم اجتهاد، وإنما خص بذلك أمة محمد ﷺ. ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ في الكلام حذف، أي فقلنا له: خذها بقوة؛ أي بجد ونشاط. نظيره ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣] وقد تقدم. ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي يعملوا بالأوامر ويتركوا النواهي، ويتدبروا الأمثال والمواعظ. نظيره ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُ﴾ [الزمر: ٥٥]. وقال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]. والعفو أحسن من الاقتصاص. والصبر أحسن من الانتصار. وقيل: أحسنها الفرائض والنوافل، وأدونها المباح. ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ قال الكلبي ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ ما مروا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود، والقرون التي أهلكوا. وقيل: هي جهنم؛ عن الحسن ومجاهد [٣]. أي فلتكن منكم على ذكر، فاحذروا أن تكونوا منها. وقيل: أراد بها مصر؛ أي سأريكم ديار القبط ومساكن فرعون خالية عنهم؛ عن ابن جبير. قتادة: المعنى سأريكم منازل الكفار التي سكنوها قبلكم من الجبابرة والعمالقة لتعتبروا بها؛ يعني الشأم [٤]. وهذان القولان يدل عليهما ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] الآية، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] الآية، وقد تقدم. وقرأ ابن عباس وقسامة بن زهير: «سأورثكم» من ورث. وهذا ظاهر. وقيل: الدار الهلاك، وجمعه أدوار. وذلك أن الله تعالى لما أغرق فرعون أوحى إلى البحر أن اقذف بأجسادهم إلى الساحل، قال: ففعل؛ فنظر إليهم بنو إسرائيل فأراهم هلاك الفاسقين.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال قتادة: سأمنعهم فهم

(١) صحيح: الطبري (٩/ ٧٢) في تفسيره.
(٢) كذا في حلية الأولياء (٣/ ٣٤٩) لأبي هيثم، وهو بلاغ فهو ضعيف.
(٣) صحيح إليه: الطبري (٩/ ٦٤)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٠).
(٤) السابق نفسه، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩١) بنحوه.

كتابي[١]. وقاله سفيـان بن عيينة، وقيل: سأصرفـهم عن الإيمان بها. وقيل: سأصرفهم عـن نفعها؛ وذلك مـجازاة على تكبـرهم[٢]. نظيره ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. والآيات على هذا المعـجزات أو الكتب المنزلة. وقـيل: خلق السـمـوات والأرض. أي أصرفـهم عن الاعـتـبار بهـا. ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ يرون أنهم أفضل الخلق. وهذا ظن باطل؛ فلهذا قال: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فلا يتبعـون نبيا ولا يصغون إليه لتكبرهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً نَ﴾ يعني هؤلاء المتكبرون. أخبر عنهم أنهم يتركون طريق الرشاد ويتبعون سبيل الغي والضلال؛ أي الكفـر يتخـذونه دينا. ثم علل فقـال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي ذلك الفـعل الذي فعلتـه بهم بتكذيبهم. ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي كانوا في تركهم تدبر الحق كالغـافلين. ويحتمل أن يكونوا غافلين عما يجازون به؛ كما يقال: ما أغفل فلان عما يراد به؛ وقرأ مالك بن دينار «وإن يُروا» بضم الياء في الحـرفين؛ أي يفعل ذلك بـهم، وقرأ أهل المدينة وأهل الـبصـرة «سبـيل الرُشْـد» بضم الراء وإسكان الشين، وأهل الكوفة إلا عاصما «الرَّشَد» بفتح الراء والشين. قال أبو عبيد: فرق أبو عمرو بين الرُّشْد والرَّشَد فقال: الرُشْد في الصلاح. والرَّشَـد في الدين. قال النحاس: «سيبويه يذهب إلى أن الرُّشْد والرُّشَد مثل السُّخْط والسَّخَط، وكـذا قال الكسائي. والصحيح عن أبي عمرو غير مـا قال أبو عبيد. قال إسماعيل بن إسحاق: حدثنا نصر بن علي عن أبيه عن أبي عـمرو بن العلاء قال: إذا كان الرشد وسط الآية فهو مسكن، وإذا كان رأس الآية فـهو محرك. قال النحاس: يعني برأس الآية نحو ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠] فهمـا عنده لغتان بمعنى واحد؛ إلا أنه فتح هذا لتـتفق الآيات. ويقال: رَشَد يَرْشُد، ورَشُـد يَرْشَد. وحكى سيبـويه رَشِد يَرْشَد. وحقـيقة الرُّشْد والرَّشَد في اللـغة أن يظفر الإنسان بما يريد، وهو ضد الخيبة.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد خروجه إلى الطور. ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة. وقرأ أهـل الكوفة إلا عاصما «من حليهم» بكسر الحـاء. وقرأ يعقوب «من حليهم» بفـتح الحاء والتـخفيف. قـال النحاس: جمع حَلْي وحُلِيٌّ وحِـليٌّ؛ مثل ثَدْى وثُدِيّ وثِدِيّ. والأصل «حلوى» ثم أدغـمت الواو في الياء فـانكسرت اللام لمجـاورتها اليـاء، وتكسر الحاء لـكسرة اللام. وضمها على الأصل. ﴿عِجْلًا﴾ مفعول. ﴿جَسَدًا﴾ نعت أو بدل. ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ رفع بالابتداء. يقال: خار يخـور خوارا إذا صـاح. وكذلك جـأر يجأر جـؤارا. ويقال: خور يخـور خورا إذا جبن وضعف. وروي في قـصص العجل: أن السامـري، واسمه موسى بن مظفـر، ينسب إلى قرية تدعى سامرة. ولد عام قتل الأبناء، وأخفـته أمه في كهف جبل فغذاه جبريل فعـرفه لذلك؛ فأخذ حين عبر

(١) لم أجده مسندًا عن قتادة، لكني وجدته مسندا عن الفريابي عند ابن أبي حاتم (٦/ ٩٢) في تفسيره.
(٢) انظر السابق، والطبري (٩/ ٦٥).

البحر على فرس وديق ليتقدم فرعون في البحر - قبضة من أثر حافر الفرس. وهو معنى قوله ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦]. وكان موسى وعد قومه ثلاثين يوما، فلما أبطأ في العشر الزائد ومضت ثلاثون ليلة قال لبني إسرائيل وكان مطاعا فيهم: إن معكم حليا من حلي آل فرعون، وكان لهم عيد يتزينون فيه ويستعيرون من القبط الحلي فاستعاروا لذلك اليوم؛ فلما أخرجهم الله من مصر وغرق القبط بقي ذلك الحلي في أيديهم، فقال لهم السامري: إنه حرام عليكم، فهاتوا ما عندكم فنحرقه. وقيل: هذا الحلي ما أخذه بنو إسرائيل من قوم فرعون بعد الغرق، وأن هارون قال لهم: إن الحلي غنيمة، وهي لا تحل لكم؛ فجمعها في حفرة حفرها فأخذها السامري. وقيل: استعاروا الحلي ليلة أرادوا الخروج من مصر، وأوهموا القبط أن لهم عرسا أو مجتمعا، وكان السامري سمع قولهم ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. وكانت تلك الآلهة على مثال البقر؛ فصاغ لهم عجلا جسدا، أي مصمتا؛ غير أنهم كانوا يسمعون منه خوار. وقيل: قلبه الله لحما ودما. وقيل: إنه لما ألقى تلك القبضة من التراب في النار على الحلي صار عجلا له خوار؛ فخار خورة واحدة ولم يثن ثم قال للقوم ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]. يقول: نسيه ههنا وذهب يطلبه فضل عنه - فتعالوا نعبد هذا العجل. فقال الله لموسى وهو يناجيه ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]. فقال موسى: يا رب، هذا السامري أخرج لهم عجلا من حليهم، فمن جعل له جسدا؟ - يريد اللحم والدم - ومن جعل له خوارا؟ فقال الله سبحانه: أنا فقال: وعزتك وجلالك ما أضلهم غيرك. قال صدقت يا حكيم الحكماء. وهو معنى قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. وقال القفال: كان السامري احتال بأن جوف العجل، وكان قابل به الريح، حتى جاء من ذلك ما يحاكي الخوار، وأوهمهم أن ذلك إنما صار كذلك لما طرح في الجسد من التراب الذي كان أخذه من تراب قوائم فرس جبريل، وهذا كلام فيه تهافت؛ قاله القشيري (١).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ بين أن المعبود يجب أن يتصف بالكلام. ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ أي طريقا إلى حجة. ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ أي إلها. ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي لأنفسهم فيما فعلوا من اتخاذه. وقيل: وصاروا ظالمين أي مشركين لجعلهم العجل إلها.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي بعد عود موسى من الميقات، يقال للنادم المتحير: قد سقط في يده، قال الأخفش: يقال سقط في يده، وأسقط، ومن قال: سقط في أيديهم على بناء الفاعل؛ فالمعنى عنده: سقط الندم؛ قاله الأزهري والنحاس وغيرهما، والندم يكون في القلب، ولكنه ذكر اليد لأنه يقال لمن تحصل على شيء: قد حصل في يده أمر كذا؛ لأن مباشرة الأشياء في الغالب باليد؛ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]. وأيضا: الندم وإن حل في القلب فأثره يظهر في البدن؛

(١) وهذا هو الذي يميل القلب إليه بدلاً من أراجيف السامري الذي زعم أنه رأى أثر جبريل عليه السلام، وسيأتي بعد قليل.

لأن النادم يعض يده؛ ويضرب إحدى يديه على الأخرى؛ وقال الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢] أي ندم. ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الفرقان: ٢٧] أي من الندم. والنادم يضع ذقنه في يده. وقيل: أصله من الاستئسار، وهو أن يضرب الرجل الرجل أو يصرعه فيرمي به من يديه إلى الأرض ليأسره أو يكتفه؛ فالمرمي مسقوط به في يد الساقط. ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ أي انقلبوا بمعصية الله. ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أخذوا في الإقرار بالعبودية والاستغفار، وقرأ حمزة والكسائي: «لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا» بالتاء على الخطاب. وفيه معنى الاستغاثة والتضرع والابتهال في السؤال والدعاء. «ربنا» بالنصب على حذف النداء. وهو أيضا أبلغ في الدعاء والخضوع. فقراءتهما أبلغ في الاستكانة والتضرع، فهي أولى.

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ لم ينصرف ﴿غَضْبَانَ﴾ لأن مؤنثه غضبى، ولأن الألف والنون فيه بمنزلة ألفي التأنيث في قولك حمراء. وهو نصب على الحال. و﴿أَسِفًا﴾ شديد الغضب. قال أبو الدرداء: الأسف منزلة وراء الغضب أشد من ذلك (١)؛ وهو أسف وأسيف وأسفان وأسوف. والأسيف أيضا الحزين. ابن عباس والسدي: رجع حزينا من صنيع قومه (٢)؛ وقال الطبري (٣): أخبره الله عز وجل قبل رجوعه أنهم قد فتنوا بالعجل؛ فلذلك رجع وهو غضبان. ابن العربي (٤)؛ وكان موسى عليه السلام من أعظم الناس غضبا، لكنه كان سريع الفيئة (٥)؛ فتلك بتلك. قال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: كان موسى عليه السلام إذا غضب طلع الدخان من قلنسوته، ورفع شعر بدنه جبته. وذلك أن الغضب جمرة تتوقد في القلب (٦)؛ ولأجله أمر النبي ﷺ من غضب أن يضطجع. فإن لم يذهب غضبه اغتسل؛ فيخمدها اضطجاعه ويطفئها اغتساله. وسرعة غضبه كان سببا لصكه ملك الموت فقأ عينه وقد تقدم في «المائدة» ما للعلماء في هذا. وقال الترمذي الحكيم: وإنما استجاز موسى عليه السلام ذلك لأنه كليم الله؛ كأنه رأى أن من اجترأ عليه أو مد إليه يدا بأذى فقد عظم الخطب فيه. ألا ترى أنه احتج عليه فقال: من أين تنزع روحي؟ أمن فمي

(١) منقطع :بين نصر بن علقمة وأبي الدرداء رضى الله عنه ، وكذا عند الطبري (٩/ ٦٨) وعزاه السيوطي (٦/ ٥٩٣) في الدر المنثور لأبي الشيخ .

(٢) ضعيف إلى ابن عباس :الطبري (٩/ ٦٩) في تفسيره ، وكذا رواه عن السدي بند حسن .

(٣) السابق / نفسه .

(٤) أحكام القرآن في (٢/ ٧٩٣) لابن العربي المالكي .

(٥) الفيئة :الرجوع عن الغضب كما في الغريب لابن قتيبة (٢/ ٣٥٦) .

(٦) أي سند لهذا الكلام ؟!

وقد ناجيت به ربي! أم من سمعي وقد سمعت به كلام ربي! أم من يدي وقد قبضت منه الألواح! أم من قدمي وقد قمت بين يديه أكلمه بالطور! أم من عيني وقد أشرق وجهي لنوره. فرجع إلى ربه مفحما (١). وفي مصنف أبي داود عن أبي ذر قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع» (٢). وروي أيضا عن أبي وائل القاص قال: دخلنا على عروة بن محمد السعدي فكلمه رجل فأغضبه؛ فقام ثم رجع وقد توضأ، فقال: حدثني أبي عن جدي عطية قال: قال رسول الله ﷺ «إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ» (٣).

قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ ذم منه لهم؛ أي بئس العمل عملتم بعدي. يقال: خلفه؛ بما يكره. ويقال في الخير أيضا. يقال منه: خلفه بخير أو بشر في أهله وقومه بعد شخوصه. ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي سبقتموه. والعجلة: التقدم بالشيء قبل وقته، وهي مذمومة. والسرعة: عمل الشيء في أول أوقاته، وهي محمودة. قال يعقوب: يقال عجلت الشيء سبقته. وأعجلت الرجل استعجلته، أي حملته على العجلة. ومعنى ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي ميعاد ربكم، أي وعد أربعين ليلة. وقيل: أى تعجلتم سخط ربكم. وقيل: أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر من ربكم.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ أي مما اعتراه من الغضب والأسف حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل، وعلى أخيه في إهمال أمرهم؛ قاله سعيد بن جبير. ولهذا قيل: (ليس الخبر كالمعاينة) (٤). ولا التفات لما روي عن قتادة إن صح عنه، ولا يصح أن إلقاءه الألواح إنما كان لما رأى فيها من فضيلة أمة محمد ﷺ ولم يكن ذلك لأمته. وهذا قول رديء لا ينبغي أن يضاف إلى موسى ﷺ وقد تقدم عن ابن عباس رضي الله عنه أن الألواح تكسرت، وأنه رفع منها التفصيل وبقي فيها الهدى والرحمة.

الثانية: وقد استدل بعض جهال المتصوفة بهذا على جواز رمي الثياب إذا اشتد طربهم على المغنى. ثم منهم من يرمي بها صحاحا، ومنهم من يخرقها ثم يرمي بها. قال: هؤلاء في غيبة فلا يلامون؛ فإن موسى عليه السلام لما غلب عليه الغم بعبادة قومه العجل، رمى الألواح فكسرها، ولم يدر ما صنع. قال أبو الفرج الجوزي (٥): من يصحح عن موسى عليه السلام أنه رماها رمي كاسر؟

---

(١) رحم الله هذا الترمذي الحكيم فلقد بدأ الكلام بداية حسنة، لكنه عاد فأتي بما لا سند له، وهو كلام موسى عليه السلام مع ملك الموت ومحاجته له، والثابت غير ذلك، حيث ثبت عند البخاري (٣٤٠٧) في الأنبياء، ومسلم (٢٣٧٣) في الفضائل عن أبي هريرة رضى الله عنه، أنه عليه السلام فقأ عين ملك الموت ثم ردها الله تعالى عليه.

(٢) صحيح: أبو داود (٤٧٨٢، ٤٧٨٣) في الأدب وصححه الألباني هناك.

(٣) ضعيف: ضعفه الألباني في الموضع السابق (٤٧٨٤) عند أبي داود.

(٤) بل هو حديث صحيح وقد سبق.

(٥) انظر تلبيس إبليس ص٢٩٥ بتحقيقي.

والذي ذكر في القرآن ألقاها، فـمن أين لنا أنها تكسرت؟ ثم لو قيل: تكسرت فمن أيـن لنا أنه قصد كسرها؟ ثم لو صححنا ذلك عنه قلنا كان في غيـبة، حتى لو كان بين يديه بحر من نار لخاضه. ومن يصحح لهؤلاء غـيبتهم وهم يعرفـون المغنى من غيره، ويحذرون من بئر لـو كانت عندهم. ثم كيف تقاس أحوال الأنبـياء على أحوال هؤلاء السفهـاء. وقد سئل ابن عقيل عن تواجـدهم وتخريق ثيابهم فقال: خطأ وحرام؛ وقـد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال. فـقال له قائل: فإنهم لا يعـقلون ما يفعلون. فقال: إن حضروا هذه الأمكنة مع علمـهم أن الطرب يغلب عليهم فيزيل عـقولهم أثموا بما أدخلوه على أنفسهم من التخريق وغيره مما أفـسدوا، ولا يسقط عنهم خطاب الشرع؛ لأنهم مخاطبون قبل الحضور بتـجنب هذا الموضع الذي يفضي إلى ذلك. كما هم منهيـون عن شرب المسكر، كذلك هذا الطرب الذي يسـميه أهل التـصوف وجدا إن صـدقوا أن فيـه سكر طبع، وإن كذبوا أفـسدوا مع الصحو، فلا سلامة فيه مع الحالين، وتجنب مواضع الريب واجب.

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ أي بلحيـته وذؤابته. وكان هارون أكبـر من موسى - صلوات الله وسـلامه عليـهمـا - بثلاث سنين، وأحب إلى بني إسـرائيل من موسى؛ لأنه كـان لين الغضب.

وللعلماء في أخذ موسى برأس أخيه أربع تأويلات:

الأول: أن ذلك كان متعارفـا عندهم؛ كما كانت العرب تفعله من قبض الرجل عـلى لحية أخيه وصاحبه إكراما وتعظيما، فلم يكن ذلك على طريق الإذلال.

الثاني: أن ذلك إنما كان ليسر إليه نزول الألواح عليه؛ لأنها نزلت عليه في هذه المناجاة وأراد أن يخفيها عن بني إسـرائيل قبل التوراة. فقال له هارون: لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي؛ لئلا يشتبه سراره على بني إسـرائيل بإذلاله. **الثالث:** إنما فـعل ذلك به لأنه وقع في نفـسـه أن هارون مـائل مع بني إسرائيل فيما فعلوه من أمـر العجل. ومثل هذا لا يجوز على الأنبياء. **الرابع:** ضم إليه أخاه ليعلم ما لديه؛ فكره ذلك هارون لئلا يظن بنو إسرائيل أنـه أهانه؛ فبين له أخوه أنهم استضعـفوه، يعني عبدة العجل، وكادوا يقتلونه أي قـاربوا. فلما سمع عذره قال: رب اغفر لي ولأخي؛ أي اغفر لي ما كان من الغضب الذي ألقيت من أجله الألواح، ولأخي لأنه ظنه مقصرا في الإنكار عليهم وإن لم يقع منه تقصير؛ أي اغفر لأخي إن قصر. قال الحسن: عبد كلهم العجل غير هارون، إذ لو كان ثم مؤمن غير موسى وهارون لما اقتصر على قوله: رب اغفر لي ولأخي، ولدعا لذلك المؤمن أيضا. وقيل: استغفر لنفسه من فعله بـأخيه، فعل ذلك لموجدته عليه؛ إذ لم يلحق به فـيعرفه ما جرى ليرجع فـيتلافاهم؛ ولهذا قال: ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ [طه: ٩٢، ٩٣] الآية. فبين هارون أنه إنما أقام خوفـا على نفسـه من القتل. فـدلت الآية على أن لمن خشي القـتل على نفسـه عند تغييـر المنكر أن يسكت. ابن العربي [١]: وفيهـا دليل على أن الغضب لا يغير الأحكام كـما زعم بعض الناس؛ فإن موسى عليه السلام لم يغير غضبه شيـئا من أفعاله، بل اطردت على مجراها من إلقاء لوح وعتاب أخ وصك ملك. **الهدوي:** لأن غضـبه كان لله عز وجل، وسكوته عـن بني إسرائيل خوفا أن يتـحاربوا

(١) انظر أحكام القرآن (٢/ ٧٩٣) لابن العربي المالكي.

ويتفرقوا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ﴾ وكان ابن أمه وأبيه. ولكنها كلمة لين وعطف. قال الزجاج: قيل كان هارون أخا موسى لأمه لا لأبيه. وقرئ بفتح الميم وكسرها؛ فمن فتح جعل «ابن أم» اسما واحدا كخمسة عشر؛ فصار كقولك: يا خمسة عشر أقبلوا. ومن كسر الميم جعله مضافا إلى ضمير المتكلم ثم حذف ياء الإضافة؛ لأن مبنى النداء على الحذف، وأبقى الكسرة في الميم لتدل على الإضافة؛ كقوله: ﴿يَا عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٠]. يدل عليه قراءة ابن السميقع «يا ابن أمي» بإثبات الياء على الأصل. وقال الكسائي والفراء وأبو عبيد: «يا ابن أم» بالفتح، تقديره يا ابن أماه. وقال البصريون: هذا القول خطأ؛ لأن الألف خفيفة لا تحذف، ولكن جعل الاسمين اسما واحدا. وقال الأخفش وأبو حاتم «يا ابن أم» بالكسر كما تقول: يا غلام غلام أقبل، وهي لغة شاذة والقراءة بها بعيدة. وإنما هذا فيما يكون مضافا إليك؛ فأما المضاف إلى مضاف إليك فالوجه أن تقول: يا غلام غلامي، ويا ابن أخي. وجوزوا يا ابن أمَّ، يا ابن عمَّ، لكثرتها في الكلام، قال الزجاج والنحاس: ولكن لها وجه حسن جيد، يجعل الابن مع الأم ومع العم اسما واحدا؛ بمنزلة قولك: يا خمسة عشر أقبلوا، فحذفت الياء كما حذفت من يا غلام ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ استذلوني وعدّوني ضعيفا. ﴿وَكَادُوا﴾ أي: قاربوا. ﴿وَيَقْتُلُونَنِي﴾ بنونين؛ لأنه فعل مستقبل، ويجوز الإدغام في غير القرآن. ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ أي لا تسرهم، والشماتة: السرور بما يصيب أخاك من المصائب في الدين والدنيا. وهي محرمة منهي عنها. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك» (١). وكان رسول الله ﷺ يتعوذ منها ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء ودرك الشقاء وشماتة الأعداء» (٢). أخرجه البخاري وغيره، وقال الشاعر:

إذَا مَا الدهرُ جَر عَلَى أناسٍ ... كَلاكلَهُ أنَاخَ بآخرينَا
فَقل لِلشامتِين بنَا أفيقُوا ... سَيلقَى الشَّامتونَ كَمَا لقينَا

وقرأ مجاهد ومالك بن دينار «تَشْمَت» بالنصب في التاء وفتح الميم، «الأعداء» بالرفع. والمعنى: لا تفعل بي ما تشمت من أجله الأعداء، أي لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله أنت بي. وعن مجاهد أيضا «تَشْمَت» بالفتح فيهما «الأعداء» بالنصب. قال ابن جني: المعنى فلا تشمت بي أنت يا رب. وجاز هذا كما قال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] ونحوه. ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلا نصب به الأعداء؛ كأنه قال: ولا تشمت بي، الأعداء. قال أبو عبيد: وحكيت عن حميد: «فلا تشمِت» بكسر الميم. قال النحاس: ولا وجه لهذه القراءة؛ لأنه إن كان من شمت وجب أن يقول تَشْمَت، وإن كان من أشمت وجب أن يقول: تشمت، وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال مجاهد: يعني الذين عبدوا العجل (٣). ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ تقدم.

---

(١) ضعيف: الترمذي (٢٥٠٦) في صفة القيامة عن واثلة بن الأسقع وضعفه الألباني هناك، و(٤٨٥٦) في المشكاة ـ التحقيق الثاني.

(٢) صحيح: البخاري (٦٣٤٧) في الدعوات، ومسلم (٢٧٠٧) في الذكر والدعاء ورجح الحافظ ابن حجر (١١/ ١٥٣) في الفتح أن (شماتة الأعداء) من كلام سفيان بن عيينة أحد رواة الحديث.

(٣) حسن: الطبري (٩/ ٧٤) في تفسيره.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الغضب من الله العقوبة. ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لأنهم أمروا بقتل بعضهم بعضا. وقيل: الذلة الجزية. وفيه بعد؛ لأن الجزية لم تؤخذ منهم وإنما أخذت من ذرياتهم. ثم قيل: هذا من تمام كلام موسى عليه السلام؛ أخبر الله عز وجل به عنه، وتم الكلام. ثم قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ وكان هذا القول من موسى عليه السلام قبل أن يتوب القوم بقتلهم أنفسهم، فإنهم لما تابوا وعفا الله عنهم بعد أن جرى القتل العظيم أخبرهم أن من مات منهم قتيلا فهو شهيد، ومن بقي حيا فهو مغفور له. وقيل: كان ثم طائفة أشربوا في قلوبهم العجل، أي حبه، فلم يتوبوا؛ فهم المعنيون بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾. وقيل: أراد من مات منهم قبل رجوع موسى من الميقات. وقيل: أراد أولادهم. وهو ما جرى على قريظة والنضير؛ أي سينال أولادهم. والله أعلم. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ أي مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين. وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه: ما من مبتدع إلا وتجد فوق رأسه ذلة [1]، ثم قرأ -﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ أي المبتدعين. وقيل: إن موسى أمر بذبح العجل، فجرى منه دم وبرده بالمبرد وألقاه مع الدم في اليم وأمرهم بالشرب من ذلك الماء؛ فمن عبد ذلك العجل وأشربه ظهر ذلك على أطراف فمه؛ فبذلك عرف عبدة العجل. ثم أخبر الله تعالى أن الله يقبل توبة التائب من الشرك وغيره. ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي الكفر والمعاصي. ﴿ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا﴾ أي من بعد فعلها. ﴿وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ أي من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ أي سكن، وكذلك قرأها معاوية بن قرة «سكن» بالنون. وأصل السكوت السكون والإمساك؛ يقال: جرى الوادي ثلاثا ثم سكن، أي أمسك عن الجري. وقال عكرمة: سكت موسى عن الغضب؛ فهو من المقلوب. كقولك: أدخلت الأصبع في الخاتم وأدخلت الخاتم في الأصبع، وأدخلت القلنسوة في رأسي، وأدخلت رأسي في القلنسوة. ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها. ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي «هدى» من الضلالة؛ «ورحمة» أي من العذاب. والنسخ: نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر. ويقال للأصل الذي كتبت منه: نسخة، وللفرع نسخة. فقيل: لما تكسرت الألواح صام موسى أربعين يوما؛ فردت عليه وأعيدت له تلك الألواح في لوحين، ولم يفقد منها شيئا [2]؛ ذكره ابن عباس، قال القشيري: فعلى هذا ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أي وفيما نسخ من الألواح المتكسرة ونقل إلى الألواح الجديدة هدى ورحمة، وقال عطاء: وفيما بقي منها. وذلك أنه لم

(١) ذكره الطبري (٩/ ٧٦) في تفسيره عن سفيان بن عُيَيْنَة .

(٢) سبق تخريجه عند الطبري ـ رحمه الله ـ .

يبق منها إلا سبعها، وذهب ستة أسباعها. ولكن لم يذهب من الحدود والأحكام شيء. وقيل: المعنى ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أي وفيما نسخ له منها من اللوح المحفوظ هدى. وقيل: المعنى وفيما كتب له فيها هدى ورحمة، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه. وهذا كما يقال: انسخ ما يقول فلان، أي أثبته في كتابك.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي يخافون. وفي اللام ثلاثة أقوال: قول الكوفيين هي زائدة. قال الكسائي: حدثني من سمع الفرزدق يقول: نقدت لها مائة درهم، بمعنى نقدتها. وقيل: هي لام أجل؛ المعنى: والذين هم من أجل ربهم يرهبون لا رياء ولا سمعة؛ عن الأخفش. وقال محمد بن يزيد: هي متعلقة بمصدر؛ المعنى: للذين هم رهبتهم لربهم. وقيل: لما تقدم المفعول حسن دخول اللام؛ كقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]. فلما تقدم المعمول وهو المفعول ضعف عمل الفعل فصار بمنزلة ما لا يتعدى.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا﴾ مفعولان، أحدهما حذفت منه من؛ وأنشد سيبويه:

مِنَّا الذي اخْتِيرَ الرجالَ سماحةً ... وَبِرا إذا هَبَّ الرِّياحُ الزعازعُ

وقال الراعي يمدح رجلا:

اخْتَرْتُك الناسَ إذْ رثت خلائقُهُمْ ... وَاختلَّ مَنْ كَانَ يُرجَى عِندهُ السولُ

يريد: اخترتك من الناس. وأصل اختار اختير؛ فلما تحركت الياء وقبلها فتحة قلبت ألفا، نحو قال وباع.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي ماتوا. والرجفة في اللغة الزلزلة الشديدة، ويروى أنهم زلزلوا حتى ماتوا. ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ أي أمتهم؛ كما قال عز وجل: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]. ﴿وَإِيَّايَ﴾ عطف. والمعنى: لو شئت أمتنا من قبل أن نخرج إلى الميقات بمحضر بني إسرائيل حتى لا يتهموني. أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا يحيى بن سعيد القطان عن سفيان عن أبي إسحاق عن عمارة بن عبد عن علي رضي الله عنه قال: انطلق موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم وانطلق شبر وشبير - هما ابنا هارون - فانتهوا إلى جبل فيه سرير، فقام عليه هارون فقبض روحه. فرجع موسى إلى قومه، فقالوا: أنت قتلته، حسدتنا على لينه وعلى خلقه، أو كلمة نحوها، الشك من سفيان، فقال: كيف أقتله ومعي ابناه ! قال: فاختاروا من شئتم؛ فاختاروا من كل سبط عشرة. قال: فذلك قوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا﴾ فانتهوا إليه؛ فقالوا: من قتلك يا هارون؟ قال: ما قتلني أحد ولكن الله توفاني. قالوا: يا موسى، ما تعصى. فأخذتهم الرجفة، فجعلوا يترددون يمينا وشمالا، ويقول﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ

﴿فِتْنَتُكَ﴾ قال: فدعا الله فأحياهم وجعلهم أنبياء كلهم [١]. قيل: أخذتهم الرجفة لقولهم: أرنا الله جهرة كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥]. وقال ابن عباس: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا من عبد العجل، ولم يرضوا عبادته [٢]. وقيل: هؤلاء السبعون غير من قالوا: أرنا الله جهرة، وقال وهب: ما ماتوا، ولكن أخذتهم الرجفة من الهيبة حتى كادت أن تبين مفاصلهم، وخاف موسى عليهم الموت، وقد تقدم في «البقرة» عن وهب أنهم ماتوا يوما وليلة، وقيل غير هذا في معنى سبب أخذهم بالرجفة. والله أعلم بصحة ذلك، ومقصود الاستفهام في قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ الجحد؛ أي لست تفعل ذلك، وهو كثير في كلام العرب، وإذا كان نفيا كان بمعنى الإيجاب؛ كما قال:

ألستُمْ خيرَ مَنْ ركبَ المطَايَا وَأندىَ العَالمين بُطونَ رَاحِ

وقيل: معناه الدعاء والطلب، أي لا تهلكنا؛ وأضاف إلى نفسه. والمراد القوم الذين ماتوا من الرجفة. وقال المبرد: المراد بالاستفهام استفهام استعظام؛ كأنه يقول: لا تهلكنا، وقد علم موسى أن الله لا يهلك أحدا بذنب غيره؛ ولكنه كقول عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]. وقيل: المراد بالسفهاء السبعون. والمعنى: أتهلك بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء في قولهم ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]. ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ أي ما هذا إلا اختبارك وامتحانك. وأضاف الفتنة إلى الله عز وجل ولم يضفها إلى نفسه؛ كما قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى: وقال يوشع: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣]. وإنما استفاد ذلك موسى عليه السلام من قوله تعالى له: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥]. فلما رجع إلى قومه ورأى العجل منصوبا للعبادة وله خوار قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا﴾ أي بالفتنة. ﴿مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ وهذا رد على القدرية.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي وفقنا للأعمال الصالحة التي تكتب لنا بها الحسنات. ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ أي جزاء عليها. ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبنا؛ قاله مجاهد وأبو العالية وقتادة [٣]. والهود: التوبة؛ وقد تقدم في «البقرة».

قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ أي المستحقين له، أي هذه الرجفة والصاعقة عذاب

(١) في الإسناد عمارة بن عبد هو الكوفي، ولم يرو له إلا النسائي حديثًا واحدًا ليس هذا ولم يرو عنه غير أبو إسحاق الهمداني، وهو مقبول، قلت: وأبو إسحاق السبيعي مدلس وقد عنعنه، وانظر الطبري (٩/ ٧٩)، قلت: والأثر من الإسرائيليات منكرة المتن فلا تصح.

(٢) الطبري (٩/ ٨٠) وفي إسناده أبو أسامة حماد بن زيد بن أسامة الكوفي، وهو ثقة ربما دلَّس وفيه عون عن سعيد بن حيان، وعون هذا لم أعرفه وفيه سعيد بن حيان لم يوثقه غير العجلي والله أعلم، ورواه ابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٦) وفيه عوف الأعرابي عن سعيد بن حيان وليس فيه ابن عباس رضى الله عنهما.

(٣) صحيح إليهم: الطبري (٩/ ١٨١).

مني أصيب به من أشاء، وقيل: المعنى ﴿مَنْ أَشَاءُ﴾ أي من أشاء أن أضله.

قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ عموم، أي لا نهاية لها، أي من دخل فيها لم تعجز عنه. وقيل: وسعت كل شيء من الخلق حتى إن البهيمة لها رحمة وعطف على ولدها. قال بعض المفسرين: طمع في هذه الآية كل شيء حتى إبليس، فقال: أنا شيء؛ فقال الله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فقالت اليهود والنصارى: نحن متقون؛ فقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف:١٥٧] الآية. فخرجت الآية عن العموم، والحمد لله. روى حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كتبها الله عز وجل لهذه الأمة [١].

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

فيه عشر مسائل:

الأولى: روى يحيى بن أبي كثير عن نوف البكالي الحميري: لما اختار موسى قومه سبعين رجلا لميقات ربه قال الله تعالى لموسى: أن أجعل لكم الأرض مسجدا وطهورا تصلون حيث أدركتكم الصلاة إلا عند مرحاض أو حمام أو قبر، وأجعل السكينة في قلوبكم، وأجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم، يقرأها الرجل منكم والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير. فقال ذلك موسى لقومه، فقالوا: لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس، ولا نستطيع حمل السكينة في قلوبنا، ونريد أن تكون كما كانت في التابوت، ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا، ولا نريد أن نقرأها إلا نظرا. فقال الله تعالى ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦]. فجعلها لهذه الأمة. فقال موسى: يا رب، اجعلني نبيهم. فقال: نبيهم منهم. قال: رب اجعلني منهم. قال: إنك لن تدركهم. فقال موسى: يا رب، أتيتك بوفد بني إسرائيل، فجعلت وفادتنا لغيرنا. فأنزل الله عز وجل ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩]. فرضي موسى. قال نوف: فاحمدوا الله الذي جعل وفادة بني إسرائيل لكم [٢]. وذكر أبو نعيم أيضا هذه القصة من حديث الأوزاعي قال: حدثنا يحيى بن أبي عمرو السيباني قال: حدثني نوف البكالي إذا افتتح موعظة قال: ألا تحمدون ربكم الذي حفظ غيبتكم وأخذ لكم بعد سهمكم وجعل وفادة القوم لكم. وذلك أن موسى عليه السلام وفد ببني إسرائيل فقال الله لهم: إني قد جعلت لكم الأرض مسجدا حيثما صليتم فيها تقبلت صلاتكم إلا في ثلاثة مواطن من صلى فيهن لم أقبل صلاته المقبرة والحمام والمرحاض. قالوا: لا، إلا في الكنيسة. قال: وجعلت لكم

---

(١) هو إسناد حسن لكون عطاء بن السائب قد اختلط بأخرة وبه رواه الطبري (٩/ ٨٤) في تفسيره.

(٢) الخبر من الإسرائيليات: ونوف هذا من كبار رواتها، وانظر الخبر عند الطبري (٩/ ٨٩).

التراب طهورا إذا لـم تجدوا الماء. قالوا: لا، إلا بالماء. قال: وجعلت لكم حيـثما صلى الرجل فكان وحده تقبلت صلاته. قالوا: لا، إلا في جماعة[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ هذه الألفاظ كما ذكـرنا أخرجت اليهود والنصارى من الاشتراك الذي يظهر في قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وخلصت هذه العدة لأمة محمد ﷺ؛ قاله ابن عباس وابن جبـير وغيرهما. و﴿يَتَّبِعُونَ﴾ يعني في شرعه ودينه وما جاء به. والرسول والنبي ﷺ اسمان لمعنيين؛ فإن الرسول أخص من النبي. وقـدم الرسول اهتماما بمعنى الرسالة، وإلا فمعنى النبوة هو المـتقدم؛ ولذلك رد رسول الله ﷺ على البراء حين قال: وبرسولك الذي أرسلت. فقال له: «قل آمنت بنبيك الذي أرسلت»[٢] خرجه في الصحيح. وأيضـا فإن في قوله: «وبرسولك الذي أرسلت» تكرير الرسالـة؛ وهو معنى واحد فيـكون كالحشو الذي لا فـائدة فيه. بخـلاف قوله: «ونبيك الذي أرسلت» فإنهـما لا تكرار فيهما. وعلى هـذا فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا؛ لأن الرسول والنبي قد اشتركا في أمر عام وهو النبـأ، وافترقا في أمر خاص وهي الرسالة. فإذا قلت: محمـد رسول من عند الله تضمن ذلك أنه نبي ورسـول الله. وكذلك غيره من الأنبـياء صلوات الله وسلامه عليهـم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿الأُمِّيَّ﴾ هو منسوب إلى الأمة الأمـية، التي هي على أصل ولادتها، لم تتعلم الكتـابة ولا قراءتها؛ قـاله ابن عزيز. وقال ابن عـباس رضي الله عنه: كان نبيكم ﷺ أميا لا يكتب ولا يقـرأ ولا يحـسب؛ قـال الله تعـالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. وروي في الصحـيح عن ابن عمـر عن النبي ﷺ قال: «إنا أمة أمـية لا نكتب ولا نحسب»[٣]. الحديث. وقيل: نسب النبي ﷺ إلى مكة أم القرى؛ ذكره النحاس.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ روى البخـاري قال: حدثنا محمـد بن سنان قال: حدثنا فليح قال: حـدثنا هلال عن عطاء بن يسار لقيت عبـدالله بن عمرو بن العاص قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفـته في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وحرزا للأميـين، أنت عبدي ورسولي، سميـتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئـة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفـا[٤]. في غير البخاري قال عطاء: ثم لقيت كعبا فسألته عن ذلك فما اختلفا حرفا؛ إلا أن كعبا قال بلغته: قلوبا غلوفيا وآذانا صموميا وأعينا عموميا[٥]. قال ابن عطية: وأظن هذا وهما أو عجمة. وقـد روي عن كعب أنه قالها: قلوبا غلوفيا وآذانا صـموما وأعينا

(١) الخبر ذكره الطبري (٩/ ٨٩) وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ كما في الدر المنثور (٦/ ٦٠٠) ط ـ دار هجر.
(٢) صحيح: البخاري (٢٤٧) في الوضوء، مسلم (٢٧١٠) في الدعوات.
(٣) صحيح: البخاري (١٩١٣) في الصوم، مسلم (١٠٨٠) في الصيام.
(٤) صحيح: البخاري (٢١٢٥) في البيوع.
(٥) الطبري (٩/ ٩٠) في تفسيره.

عموميا. قال الطبري: هي لغة حميرية. وزاد كعب في صفة النبيﷺ قال: مولده بمكة، وهجرته بطابة، وملكه بالشأم، وأمته الحامدون، يحمدون الله على كل حال وفي كل منزل، يوضؤون أطرافهم ويأتزرون إلى أنصاف ساقهم، رعاة الشمس، يصلون الصلوات حيثما أدركتهم ولو على ظهر الكناسة، صفهم في القتال مثل صفهم في الصلاة. ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[١] [الصف: ٤].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ قال عطاء ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ بخلع الأنداد، ومكارم الأخلاق، وصلة الأرحام. ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ عبادة الأصنام، وقطع الأرحام.

السادسة: قوله تعالى ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ مذهب مالك أن الطيبات هي المحللات؛ فكأنه وصفها بالطيب؛ إذ هي لفظة تتضمن مدحا وتشريفا. وبحسب هذا نقول في الخبائث: إنها المحرمات؛ ولذلك قال ابن عباس: الخبائث هي لحم الخنزير والربا وغيره[٢]. وعلى هذا حلل مالك المتقذرات كالحيات والعقارب والخنافس ونحوها، ومذهب الشافعي رحمه الله أن الطيبات هي من جهة الطعم؛ إلا أن اللفظة عنده ليست على عمومها؛ لأن عمومها بهذا الوجه من الطعم يقتضي تحليل الخمر والخنزير، بل يراها مختصة فيما حلله الشرع، ويرى الخبائث لفظا عاما في المحرمات بالشرع وفي المتقذرات؛ فيحرم العقارب والخنافس والوزغ وما جرى هذا المجرى، والناس على هذين القولين.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ الإصر: الثقل[٣]؛ قاله مجاهد وقتادة وابن جبير. والإصر أيضا: العهد؛ قاله ابن عباس والضحاك والحسن، وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بني إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال؛ فوضع عنهم بمحمدﷺ ذلك العهد وثقل تلك الأعمال؛ كغسل البول، وتحليل الغنائم، ومجالسة الحائض ومؤاكلتها ومضاجعتها؛ فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضه[٤]. وروي: جلد أحدهم. وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها[٥]، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها[٦]، إلى غير ذلك مما ثبت في الحديث الصحيح وغيره.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فالأغلال عبارة مستعارة لتلك الأثقال، ومن الأثقال ترك الاشتغال يوم السبت؛ فإنه يروى أن موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلا يحمل قصبا فضرب عنقه. هذا قول جمهور المفسرين. ولم يكن فيهم الدية، وإنما كان القصاص، وأمروا بقتل أنفسهم علامة لتوبتهم، إلى غير ذلك. فشبه ذلك بالأغلال؛ كما قال الشاعر:

فَلَيْسَ كعهدِ الدارِ يا أم مالكٍ ... وَلَكِنْ أحاطتْ بِالرقابِ السلاسِلِ

---

(١) رواه الدارمي (١/ ٥، ٦) في سننه. والكناسة: موضع القمامة.

(٢) منقطع: بين علي بن أبي طلحة وابن عباس رضى الله عنهما، الطبري (٩/ ٩١) في تفسيره.

(٣) انظر السابق نفسه.

(٤) هذا مروي بسند صحيح عند ابن ماجه (٣٥٢) عن عبد الرحمن ابن حسنة رضى الله عنه.

(٥) صحيح: وقد سبق أكثر من مرة.

(٦) صحيح: مسلم (٣٠٢) في الحيض عن أنس رضى الله عنه.

عَادَ الفتى كالكَهْلِ ليْسَ بقائل   سِوى العدلِ شيْئاً فَاسْتراحَ العَواذِلُ

فشبه حـدود الإسلام وموانعه عن التخطي إلى المحظورات بالسـلاسل المحيطات بالرقاب، ومن هذا المعنى قول أبي أحمد بن جحش لأبي سفيان:

اذْهَبْ بِهَا اذْهَبْ بِهَا   طُوِّقتها طَوقَ الحمامَةِ

أي لزمك عارها. يقال: طوق فلان كذا إذا لزمه.

التاسعة: إن قيل: كيف عطف الأغلال وهو جمع على الإصر وهو مـفرد؛ فالجواب أن الإصر مصـدر يقع على الكثرة. وقرأ ابن عـامر: ﴿ آصارهم﴾ بالجمع؛ مـثل أعمالهم. فـجمعه لاخـتلاف ضروب المآثم. والباقون بالتوحيد؛ لأنه مصدر يقع على القليل والكثير من جنسه مع إفراد لفظه. وقد أجمعوا على التـوحيد في قوله: ﴿وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ [البقرة:٢٨٦]. وهكذا كلما يرد عليك من هذا المعنى؛ مثل ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة:٧]. ﴿لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم:٤٣]. و﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥]. كله بمعنى الجمع.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾ أي وقروه ونصروه. قال الأخفش: وقرأ الجحدري وعيسى ﴿وعزروه﴾ بالتـخفيف. وكذا ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ [المائدة:١٢]. يقال: عَزَرَه يَعْـزِره ويُعَزِّره. ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ القرآن ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿الفلاح﴾ الظفر بالمطلوب. وقد تقدم هذا.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

ذكر أن مـوسى بشر به، وأن عـيسى بشر به. ثم أمـره أن يقول بنفسـه: ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. و ﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾ كلمات الله تعالى كتبه من التوراة والإنجيل والقرآن.

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

أي: يدعون الناس إلى الهداية. و﴿ يَعْدِلُونَ﴾ معناه في الحكم. وفي التفسير: إن هؤلاء قوم من وراء الصين، من وراء نهر الرمل، يعبدون الله بالحق والعدل، آمنوا بمحمـد وتركوا السبت، يستقبلون قبلتنا، لا يصل إلينا منـهم أحد، ولا منا إليهم أحد. فـروي أنه لما وقع الاختلاف بعد مـوسى كانت منهم أمة يهدون بالحق، ولم يقدروا أن يكونوا بين ظهراني بني إسـرائيل حتى أخرجهم الله إلى ناحية من أرضـه في عزلة من الخلق، فـصار لهم سـرب في الأرض، فمـشوا فـيه سنة ونصف سنة حـتى خرجوا وراء الصين؛ فهم على الحق إلى الآن. وبين الناس وبينهم بحـر لا يوصل إليهم بسببه. ذهب جبريل بالنبي ﷺ إليهم ليلة المعـراج فآمنوا به وعلمهم سورا من القـرآن وقال لهم: هل لكم مكيال وميزان؟ قالوا: لا، قال: فمن أين معـاشكم؟ قالوا: نخرج إلى البـرية فنزرع، فإذا حصـدنا وضعناه هناك، فإذا احتاج أحدنا إليه يأخذ حاجته. قال: فأين نساؤكم؟ قالوا: في ناحية منا، فإذا احتاج أحدنا

لزوجته صار إليها في وقت الحاجة. قال: فيكذب أحدكم في حديثه؟ قالوا: لو فعل ذلك أحدنا أخذته لظى، إن النار تنزل فتحرقه. قال: فما بال بيوتكم مستوية؟ قالوا: لئلا يعلو بعضنا على بعض. قال: فما بال قبوركم على أبوابكم؟ قالوا: لئلا نغفل عن ذكر الموت. ثم لما رجع رسول الله ﷺ إلى الدنيا ليلة الإسراء أنزل عليه ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١] يعني أمة محمد عليه السلام، يعلمه أن الذي أعطيت موسى في قومه أعطيتك في أمتك [١]. وقيل: هم الذين آمنوا بنبينا محمد عليه السلام من أهل الكتاب، وقيل: هم قوم من بني إسرائيل تمسكوا بشرع موسى قبل نسخه، ولم يبدلوا ولم يقتلوا الأنبياء [٢].

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ عدد نعمه على بني إسرائيل، وجعلهم أسباطا ليكون أمر كل سبط معروفا من جهة رئيسهم؛ فيخفف الأمر على موسى. وفي التنزيل: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢] وقد تقدم. وقوله: ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ والسبط مذكر لأن بعده ﴿أُمَمًا﴾ فذهب التأنيث إلى الأمم. ولو قال: اثني عشر لتذكير السبط جاز؛ عن الفراء. وقيل: أراد بالأسباط القبائل والفرق؛ فلذلك أنث العدد. قال الشاعر:

وَإِنَّ قريشًا كُلها عشرُ أبطنٍ وَأَنْتَ بريءٌ مِنْ قَبائلِهَا الْعَشْرِ

فذهب بالبطن إلى القبيلة والفصيلة؛ فلذلك أنثها. والبطن مذكر؛ كما أن الأسباط جمع مذكر. الزجاج: المعنى قطعناهم اثنتي عشرة فرقة. ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل من اثنتي عشرة ﴿أُمَمًا﴾ نعت للأسباط. وروى المفضل عن عاصم: «وقطعناهم» مخففا. «أسباطا» الأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل عليهما السلام. والأسباط مأخوذ من السبط وهو شجر تعلفه الإبل. وقد مضى في «البقرة» مستوفى.

روى معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله عز وجل: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ قالوا: حبة في شعرة. وقيل لهم: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ فدخلوا متوركين

(١) هذا هراء ولا يصح وقد تتبعه الشيخ أبو شيبة ـ رحمه الله ـ في الإسرائيليات والموضوعات كما في ص ٢٠٦، ٢٠٧ فقال ـ رحمه الله ـ: (وهي من خرافات بني إسرائيل لا محالة) ونقل تضعيف الآلوسي له كما في تفسيره (٩/ ٨٤، ٨٥).

(٢) هذا هو القول الصحيح والله أعلم، وانظر الإسرائيليات، والموضوعات في الموضع السابق، والله أعلم.

على أستاههم [١]. ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ مرفوع؛ لأنه فعل مستقبل وموضعه نصب. و﴿ما﴾ بمعنى المصدر، أي بظلمهم. وقد مضى في «البقرة» ما في هذه الآية من المعاني والأحكام. والحمد لله.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ أي عن أهل القرية؛ فعبر عنهم بها لما كانت مستقرا لهم أو سبب اجتماعهم. نظيره ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]. وقوله عليه السلام: «اهتز العرش لموت سعد بن معاذ» [٢] يعني أهل العرش من الملائكة، فرحا واستبشارا بقدومه، رضي الله عنه. أي واسأل اليهود الذين هم جيرانك عن أخبار أسلافهم وما مسخ الله منهم قردة وخنازير. هذا سؤال تقرير وتوبيخ. وكان ذلك علامة لصدق النبي ﷺ؛ إذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلم. وكانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، لأنا من سبط خليله إبراهيم، ومن سبط إسرائيل وهم بكر الله، ومن سبط موسى كليم الله؛ ومن سبط ولده عزير، فنحن من أولادهم. فقال الله عز وجل لنبيه: سلهم يا محمد عن القرية، أما عذبتهم بذنوبهم؛ وذلك بتغيير فرع من فروع الشريعة.

واختلف في تعيين هذه القرية؛ فقال ابن عباس وعكرمة والسدي: هي أيلة. وعن ابن عباس أيضا أنها مدين بين أيلة والطور [٣]. الزهري: طبرية [٤]. قتادة وزيد بن أسلم: هي ساحل من سواحل الشأم، بين مدين وعينون، يقال لها: مقناة [٥]. وكان اليهود يكتمون هذه القصة لما فيها من السبة عليهم. ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أي كانت بقرب البحر؛ تقول: كنت بحضرة الدار أي بقربها. ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي يصيدون الحيتان، وقد نهوا عنه؛ يقال: سبت اليهود؛ تركوا العمل في سبتهم. وسُبِت الرجل للمفعول سُباتا أخذه ذلك، مثل الخرس، وأسبت سكن فلم يتحرك. والقوم صاروا في السبت. واليهود دخلوا في السبت، وهو اليوم المعروف، وهو من الراحة والقطع [٦]. ويجمع أسْبُت وسُبُوت وأسْبات. وفي الخبر عن رسول الله ﷺ «من احتجم يوم السبت فأصابه برص فلا يلومن إلا نفسه» [٧]. قال علماؤنا: وذلك لأن الدم يجمد يوم السبت، فإذا مددته لتستخرجه لم يجر وعاد برصا. وقراءة الجماعة «يَعْدُون». وقرأ أبو نهيك «يُعدّون» بضم الياء وكسر العين وشد الدال. الأولى من الاعتداء والثانية من الإعداد؛ أي يهيئون الآلة لأخذها. وقرأ ابن السميقع: «في الأسبات» على جمع السبت. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ وقرئ: «أسباتهم». ﴿شُرَّعًا﴾ أي شوارع ظاهرة على الماء كثيرة. وقال الليث: حيتان شرع رافعة رؤوسها. وقيل: معناه أن حيتان البحر كانت

(١) صحيح: البخاري (٤٦٤١) في التفسير، ومسلم (٣٠١٥) في التفسير وقد سبق.

(٢) صحيح: البخاري (٣٨٠٣) في مناقب الأنصار، ومسلم (٢٤٦٦) في فضائل الصحابة عن جابر رضى الله عنه.

(٣ ـ ٦) هى آثار الله أعلم بصحتها من ناحية المتن ففي الإسناد إلى ابن عباس ضعف وانقطاع، وبقية الأقوال مقطوعة على التابعين ممن ليس بمعصوم فالله أعلم، وانظر الطبري (٩٠/ ٩٨) في تفسيره.

(٧) ضعيف: ضعفه الألباني (٥٣٤٦) في ضعيف الجامع وعزاه للحاكم والبيهقي عن أبي هريرة رضى الله عنه.

ترد يوم السبت عنقا [١] من البحر فتزاحم أيلة. ألهمها الله تعالى أنها لا تصاد يوم السبت؛ لنهيه تعالى اليهود عن صيدها. وقيل: إنها كانت تشرع على أبوابهم؛ كالكباش البيض رافعة رؤوسها. حكاه بعض المتأخرين؛ فتعدوا فأخذوها في السبت؛ قاله الحسن. وقيل: يوم الأحد، وهو الأصح على ما يأتي بيانه. ﴿وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ﴾ أي لا يفعلون السبت؛ يقال: سبت يسبت إذا عظم السبت. وقرأ الحسن «يُسبِتون» بضم الياء، أي يدخلون في السبت؛ كما يقال: أجمعنا وأظهرنا وأشهرنا، أي دخلنا في الجمعة والظهر والشهر. ﴿لا تَأْتِيهِمْ﴾ أي: حيتانهم. ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي نشدد عليهم في العبادة ونختبرهم. والكاف في موضع نصب. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بفسقهم. وسئل الحسين بن الفضل: هل تجد في كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتا، والحرام يأتيك جزفا جزفا؟ قال: نعم، في قصة داود وأيلة ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ﴾. وروي في قصص هذه الآية أنها كانت في زمن داود عليه السلام، وأن إبليس أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا الحياض؛ فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء، فيأخذونها يوم الأحد. وروى أشهب عن مالك قال: زعم ابن رومان أنهم كانوا يأخذ الرجل خيطا ويضع فيه وهقة [٢]، وألقاها في ذنب الحوت، وفي الطرف الآخر من الخيط وتد وتركه كذلك إلى الأحد، ثم تطرق الناس حين رأوا من صنع هذا لا يبتلى حتى كثر صيد الحوت، ومشى به في الأسواق، وأعلن الفسقة بصيده؛ فقامت فرقة من بني إسرائيل ونهت، وجاهرت بالنهي واعتزلت. وقيل: إن الناهين قالوا: لا نساكنكم؛ فقسموا القرية بجدار. فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن للناس لشأنا؛ فعلوا على الجدار فنظروا فإذا هم قردة؛ ففتحوا الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسابها من الإنس، ولم تعرف الإنس أنسابهم من القردة؛ فجعلت القردة تأتي نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي؛ فيقول: ألم ننهكم! فتقول برأسها نعم [٣]. قال قتادة: صار الشبان قردة والشيوخ خنازير، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم. فعلى هذا القول إن بني إسرائيل لم تفترق إلا فرقتين. ويكون المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي قال الفاعلون للواعظين حين وعظوهم: إذا علمتم أن الله مهلكنا فلم تعظوننا؟ فمسخهم الله قردة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي قال الواعظون: موعظتنا إياكم معذرة إلى ربكم؛ أي: إنما يجب علينا أن نعظكم لعلكم تتقون. أسند هذا القول الطبري عن ابن الكلبي [٤]. وقال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق، وهو الظاهر من الضمائر في الآية. فرقة عصت وصادت، وكانوا نحوا من سبعين ألفا. وفرقة نهت واعتزلت، وكانوا اثنى عشر ألفا، وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص، وإن هذه الطائفة قالت للناهية: لم تعظون قوما - تريد العاصية - الله

(١) عنقا: أي طوائف وجماعات وقطيعًا ـ كما في اللسان ـ.

(٢) وهق: في اللسان: الحبل المغار يرمي فيه أنشوطة (عقدة) فتؤخذ فيه الدابة والإنسان.

(٣) انظر التعقيب قبل ثلاثة هوامش.

(٤) وهو منهم فلا سبيل إلى تصديقه، وانظر تفسير الطبري.

مهلكهم أو معذبهم على غلبة الظن، وما عهد من فعل الله تعالى حينئذ بالأمم العاصية. فقالت الناهية: موعظتنا معذرة إلى الله لعلهم يتقون. ولو كانوا فرقتين لقالت الناهية للعاصية: ولعلكم تتقون، بالكاف. ثم اختلف بعد هذا؛ فقالت فرقة: إن الطائفة التي لم تنه ولم تعص هلكت مع العاصية عقوبة على ترك النهي؛ قاله ابن عباس (١). وقال أيضا: ما أدري ما فعل بهم؛ وهو الظاهر من الآية (٢). وقال عكرمة: قلت لابن عباس لما قال ما أدري ما فعل بهم: ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم فقالوا: لم تعظون قوما الله مهلكهم؟ فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا؛ فكساني حلة. وهذا مذهب الحسن. ومما يدل على أنه إنما هلكت الفرقة العادية لا غير قوله ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأعراف: ١٦٥]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ (٣) [البقرة: ٦٥] الآية. وقرأ عيسى وطلحة «معذرة» بالنصب، ونصبه عند الكسائي من وجهين: أحدهما على المصدر. والثاني على تقدير فعلنا ذلك معذرة. وهي قراءة حفص عن عاصم، والباقون بالرفع: وهو الاختيار؛ لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا اعتذارا مستأنفا من أمر ليموا عليه، ولكنهم قيل لهم: لم تعظون؟ فقالوا: موعظتنا معذرة. ولو قال رجل لرجل: معذرة إلى الله وإليك من كذا، يريد اعتذارا؛ لنصب. هذا قول سيبويه. ودلت الآية على القول بسد الذرائع. وقد مضى في «البقرة». ومضى فيها الكلام في الممسوخ هل ينسل أم لا، مبينا (٤). والحمد لله. ومضى في آل عمران والمائدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. (٥) ومضى في «النساء» (٦) اعتزال أهل الفساد ومجانبتهم، وأن من جالسهم كان مثلهم؛ فلا معنى للإعادة.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾

النسيان يطلق على الساهي. والعامد: التارك؛ لقوله تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي تركوه عن قصد؛ ومنه ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]. ومعنى ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي شديد. وفيه إحدى عشرة قراءة: الأولى: قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي «بئيس» على وزن فعيل. الثانية: قراءة أهل مكة «بِئِيس» بكسر الباء والوزن واحد. والثالثة: قراءة أهل المدينة «بِيس» الباء مكسورة بعدها ياء ساكنة بعدها سين مكسورة منونة، وفيها قولان. قال الكسائي: الأصل فيه «بييس» خفيفة الهمزة، فالتقت ياءان فحذفت إحداهما وكسر أوله: كما يقال: رغيف وشهيد. وقيل: أراد «بئس» على وزن فعل؛ فكسر أوله وخفف الهمزة وحذف الكسرة؛ كما يقال: رَحِم ورِحْم. الرابعة: قراءة الحسن، الباء مكسورة بعدها همزة ساكنة بعدها سين مفتوحة. الخامسة: قرأ أبو عبدالرحمن المقرئ «بَئِسٍ» الباء

(١ ـ ٣) إسناد ضعيف إلى ابن عباس فيه يحيى بن سليم الطائفي، صدوق سيئ الحفظ، وفيه ابن جريج عن رجل عن عكرمة وهو مدلس وقد عنعنه كما أن فيه جهالة، الطبري (٩/ ١٠١).

(٤) انظر الآية (٦٥) من سورة البقرة.

(٥) الآية (١١٠) من سورة آل عمران، والمائدة (٧٩).

(٦) الآية (١٤٠) من سورة النساء.

مفتوحة والهمزة مكسورة والسين مكسورة منونة. السادسة: قال يعقوب القارئ: وجاء عن بعض القراء «بعذاب بَئِسَ» الباء مفتوحة والهمزة مكسورة والسين مفتوحة. السابعة: قراءة الأعمش «بيئس» على وزن فيعل. وروي عنه «بيأس» على وزن فيعل، وروي عنه «بَئِّسٍ» بباء مفتوحة وهمزة مشددة مكسورة، والسين في كله مكسورة منونة، أعني قراءة الأعمش، العاشرة: قراءة نصر بن عاصم «بعذاب بَيَّس» الباء مفتوحة والياء مشددة بغير همز، قال يعقوب القارئ: وجاء عن بعض القراء «بئيس» الباء مكسورة بعدها همزة ساكنة بعدها ياء مفتوحة. فهذه إحدى عشرة قراءة ذكرها النحاس. قال علي بن سليمان: العرب تقول جاء ببنات بيس أي بشيء رديء، فمعنى «بعذاب بيس» بعذاب رديء، وأما قراءة الحسن فزعم أبو حاتم أنه لا وجه لها، قال: لأنه لا يقال مررت برجل بئس، حتى يقال: بئس الرجل، أو بئس رجلا، قال النحاس: وهذا مردود من كلام أبي حاتم؛ حكى النحويون: إن فعلت كذا وكذا فبها ونعمت. يريدون فبها ونعمت الخصلة. والتقدير على قراءة الحسن: بعذاب بئس العذاب.

﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي فلما تجاوزوا في معصية الله. ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ يقال: خسأته فخسأ؛ أي باعدته وطردته، ودل على أن المعاصي سبب النقمة: وهذا لا خفاء به، فقيل: قال لهم ذلك بكلام يسمع، فكانوا كذلك، وقيل: المعنى كوناهم قردة.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٦٧ ﴾

أي أعلم أسلافهم أنهم إن غيروا ولم يؤمنوا بالنبي الأمي بعث الله عليهم من يعذبهم، وقال أبو علي« آذن» بالمد، أعلم. و« أذّن» بالتشديد، نادى، وقال قوم: آذن وأذن بمعنى أعلم؛ كما يقال: أيقن وتيقن. قال زهير:

فقلتُ تَعلمْ إنَّ للصيد غرةً فإلاَّ تضيعهَا فإنكَ قاتله

وقال آخر:

تَعلَّمْ إنَّ شرَّ النَّاسِ حي يُنَادِى فِي شِعَارِهِمْ يسارُ

أي: اعلم، ومعنى ﴿يَسُومُهُمْ﴾ يذيقهم؛ وقد تقدم في «البقرة». قيل: المراد بختنصر، وقيل: العرب. وقيل: أمة محمد ﷺ وهو أظهر؛ فإنهم الباقون إلى يوم القيامة، والله أعلم. قال ابن عباس ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ هنا أخذ الجزية(1). فإن قيل: فقد مسخوا، فكيف تؤخذ منهم الجزية؟ فالجواب أنها تؤخذ من أبنائهم وأولادهم، وهم أذل قوم، وهم اليهود. وعن سعيد بن جبير ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ قال: الخراج، ولم يجب نبي قط الخراج، إلا موسى عليه السلام هو أول من وضع الخراج، فجباه ثلاث عشرة سنة، ثم أمسك، ونبينا عليه السلام(2).

(١) ضعيف: الطبري (٩/ ١١٠) من طريق منقطع عن علي بن أبي طلحة، ومن طريق العوفيين.

(٢) الطبري (٩/ ١٩١) وفيه ابن حميد متهم.

obeikandi.com

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي فرقناهم في البلاد. أراد به تشتيت أمرهم، فلم تجمع لهم كلمة. ﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ رفع على الابتداء. والمراد من آمن بمحمد عليه السلام. ومن لم يبدل منهم ومات قبل نسخ شرع موسى، أو هم الذين وراء الصين؛ كما سبق. ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ منصوب على الظرف. قال النحاس: ولا نعلم أحدا رفعه، والمراد الكفار منهم. ﴿وَبَلَوْنَاهُم﴾ أي اختبرناهم. ﴿ بِالْحَسَنَاتِ﴾ أي بالخصب والعافية. ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي الجدب والشدائد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ليرجعوا عن كفرهم.

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ يعني أولاد الذين فرقهم في الأرض. قال أبو حاتم «الخلْف» بسكون اللام: الأولاد، الواحد والجميع فيه سواء. و«الخلَف» بفتح اللام البدل، ولدا كان أو غريبا. وقال ابن الأعرابي« الخَلَف» بالفتح الصالح، وبالجزم الطالح. قال لبيد:

ذَهَب الذينَ يعاشُ في أكنافِهمْ وبقيتُ في خلفٍ كجلدِ الأجربِ

ومنه قيل للرديء من الكلام: خلف. ومنه المثل السائر «سكت ألفا ونطق خلفا». فخلف في الذم بالإسكان، وخلف بالفتح في المدح. هذا هو المستعمل المشهور. قال ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله»(١) . وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر. قال حسان بن ثابت:

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع

وقال آخر.

إنَّا وَجدنَا خَلفًا بئْسَ الخلفْ أغلقْ عنا بَابهُ ثُمَّ حلفْ

لاَ يدخلُ البوابُ إلا من عرف عبدا إذا ما ناء بالحمل وقفْ

ويروى: خصف؛ أي ردم. والمقصود من الآية الذم. ﴿ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ قال المفسرون: هم اليهود، ورثوا كتاب الله فقرؤوه وعلموه، وخالفوا حكمه وأتوا محارمه مع دراستهم له. فكان هذا توبيخا لهم وتقريعا. ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾ ثم أخبر عنهم أنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم ونهمهم. ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وهم لا يتوبون. ودل على أنهم لا يتوبون.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ والعرض: متاع الدنيا؛ بفتح الراء. وبإسكانها ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير. والإشارة في هذه الآية إلى الرشا والمكاسب الخبيثة. ثم ذمهم

(١) حسن : وقد سبق .

باغترارهم في قولهم : ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وأنهم بحال إذا أمكنتهم ثانية ارتكبوها، فقطعوا باغترارهم بالمغفرة وهم مصرون، وإنما يقول: سيغفر لنا من أقلع وندم.

قلت: وهذا الوصف الذي ذم الله تعالى به هؤلاء موجود فينا. أسند الدارمي أبو محمد: حدثنا محمد بن المبارك حدثنا صدقة بن خالد عن ابن جابر عن شيخ يكنى أبا عمرو عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سيبلى القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت، يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصروا قالوا: سنبلغ، وإن أساؤوا قالوا سيغفر لنا، إنا لا نشرك بالله شيئا[(١)] . وقيل: إن الضمير في ﴿يأتهم﴾ ليهود المدينة؛ أي وإن يأت يهود يثرب الذين كانوا على عهد النبي ﷺ عرض مثله يأخذوه كما أخذه أسلافهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ .

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ يريد التوراة. وهذا تشديد في لزوم قول الحق في الشرع والأحكام، وألا يميل الحكام بالرشا إلى الباطل.

قلت: وهذا الذي لزم هؤلاء وأخذ عليهم به الميثاق في قول الحق، لازم لنا على لسان نبينا ﷺ وكتاب ربنا، على ما تقدم بيانه في «النساء»، ولا خلاف فيه في جميع الشرائع، والحمد لله.

الثانية : قوله تعالى ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أي قرؤوه، وهم قريبو عهد به. وقرأ أبو عبدالرحمن «وادارسوا ما فيه» فأدغم التاء في الدال. قال ابن زيد: كان يأتيهم المحق برشوة فيخرجون له كتاب الله فيحكمون له به، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة وأخرجوا له كتابهم الذي كتبوه بأيديهم وحكموا له[(٢)] . وقال ابن عباس : ﴿أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ وقد قالوا الباطل في غفران ذنوبهم الذي يوجبونه ويقطعون به[(٣)] . وقال ابن زيد: يعني في الأحكام التي يحكمون بها؛ كما ذكرنا[(٤)] . وقال بعض العلماء: إن معنى ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أي محوه بترك العمل به والفهم له؛ من قولك: درست الريح الآثار، إذا محتها. وخط دارس وربع دارس، إذا أمحى وعفا أثره. وهذا المعنى مواطئ - أي موافق - لقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة:١٠١] الآية. وقوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران:١٨٧]. حسب ما تقدم بيانه في «البقرة» .

---

(١) ضعيف : الدارمي : (٢/ ٤٣٩) (٣٣٤٦) في سننه ـ كتاب فضائل القرآن وفيه جهالة الشيخ المكنى بـ(أبي عمرو) هذا .

(٢) انظر الطبري (٩/ ١١٤) في تفسيره .

(٣) ضعيف : منقطع بين ابن جريج وابن عباس رضى الله عنهما . وانظر الطبري (٩/ ١١٥) .

(٤) انظر قبل السابق .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي بالتوراة، أي بالعمل بها؛ يقال: مسك به وتمسك به أي استمسك به. وقرأ أبو العالية وعاصم في رواية أبي بكر « يُمَسِّكُونَ » بالتخفيف من أمسك يمسك. والقراءة الأولى أولى؛ لأن فيها معنى التكرير والتكثير للتمسك بكتاب الله تعالى وبدينه فبذلك يمدحون. فالتمسك بكتاب الله والدين يحتاج إلى الملازمة والتكرير لفعل ذلك. وقال كعب بن زهير:

فَمَا تمسكَ بالعهدِ الذي زَعمتَ إلا كَما تَمسِكُ الماءَ الغَرَابيلُ

فجاء به على طبعه يذم بكثرة نقض العهد.

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ ﴿نتقنا﴾ معناه رفعنا. وقد تقدم بيانه في «البقرة» ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أي كأنه لارتفاعه سحابة تظل. ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي بجد. وقد تقدم [1].

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ أي واذكر لهم مع ما سبق من تذكير المواثيق في كتابهم ما أخذت من المواثيق من العباد يوم الذر. وهذه آية مشكلة، وقد تكلم العلماء في تأويلها وأحكامها، فنذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليه فقال قوم: معنى الآية أن الله تعالى أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعض قالوا: ومعنى: ﴿أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ دلهم بخلقه على توحيده؛ لأن كل بالغ يعلم ضرورة أن له ربا واحدا. ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي قال. فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم، والإقرار منهم؛ كما قال تعالى في السموات والأرض: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١]. ذهب إلى هذا القفال وأطنب. وقيل: إنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وإنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها.

قلت: وفي الحديث عن النبي ﷺ غير هذين القولين، وأنه تعالى أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم عليه السلام [2]. وروى مالك في موطئه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا

(١) الآية (٦٣) من سورة البقرة.

(٢) صحيح: وسوف يأتي بطوله في الأثرين التاليين.

﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ فقال عمر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»، فقال رجل: ففيم العمل؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار» (١). قال أبو عمر: هذا حديث منقطع الإسناد؛ لأن مسلم بن يسار لم يلق عمر. وقال: فيه يحيى بن معين: مسلم بن يسار لا يعرف، بينه وبين عمر نعيم بن ربيعة، ذكره النسائي، ونعيم غير معروف بحمل العلم. لكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعبدالله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين وغيرهم، روى الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال: إن رسول الله ﷺ قال«لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل رجل منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال: يا رب من هؤلاء قال: هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال أي رب من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود فقال: رب كم جعلت عمره قال: ستين سنة قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم عليه السلام جاءه ملك الموت فقال أو لم يبق من عمري أربعون سنة قال أو لم تعطها ابنك داود قال: فجحد آدم فجحدت ذريته ونسي آدم فنسيت ذريته» (٢). في غير الترمذي: فحينئذ أمر بالكتاب والشهود. في رواية: فرأى فيهم الضعيف والغني والفقير والذليل والمبتلى والصحيح. فقال له آدم: يا رب، ما هذا؟ ألا سويت بينهم! قال: أردت أن أشكر. وروى عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس» (٣). وجعل الله لهم عقولا كنملة سليمان، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأن لا إله غيره. فأقروا بذلك والتزموه، وأعلمهم بأنه سيبعث إليهم الرسل؛ فشهد بعضهم على بعض، قال أبي بن كعب: وأشهد عليهم السموات السبع، فليس من أحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد (٤).

واختلف في الموضع الذي أخذ فيه الميثاق حين أخرجوا على أربعة أقوال؛ فقال ابن عباس: ببطن نعمان، واد إلى جنب عرفة (٥). وروي عنه أن ذلك برهبا - أرض بالهند - الذي هبط فيه آدم عليه

---

(١) ضعيف: وقد بيّن المصنف علته، مالك (٢/ ٨٩٨، ٨٩٩) في القدر، وأبو داود (٤٧٠٣) في السنة، والترمذي (٣٠٧٥) في التفسير، وضعفه الألباني في هذين الوصفين.

(٢) صحيح: الترمذي (٣٠٦٨) في التفسير، وصححه الألباني

(٣) ضعيف مرفوعًا حسن موقوفًا: الطبري (٩/ ١٢١) في تفسيره على أن في إسناده مقالا لكن طرقه يشد بعضها بعضًا والله أعلم.

(٤) حسن بطرقه: الطبري (٩/ ١٢٤) في تفسيره.

(٥) كذا عند الطبري (٩/ ١١٩) بسند حسن لشواهده والله أعلم.

السلام. وقال يحيى بن سلام قال ابن عباس في هذه الآية: أهبط الله آدم بالهند، ثم مسح على ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، ثم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ (١) قال يحيى: قال الحسن: ثم أعادهم في صلب آدم عليه السلام. وقال الكلبي: بين مكة والطائف. وقال السدي: في السماء الدنيا حين أهبط من الجنة إليها مسح على ظهره فأخرج من صفحة ظهره اليمنى ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ، فقال لهم: ادخلوا الجنة برحمتي. وأخرج من صفحة ظهره اليسرى ذرية سوداء وقال لهم: ادخلوا النار ولا أبالي (٢). قال ابن جريج: خرجت كل نفس مخلوقة للجنة بيضاء، وكل نفس مخلوقة للنار سوداء (٣).

الثانية: قال ابن العربي رحمه الله (٤): «فإن قيل فكيف يجوز أن يعذب الخلق وهم لم يذنبوا، أو يعاقبهم على ما أراده منهم وكتبه عليهم وساقهم إليه، قلنا: ومن أين يمتنع ذلك، أعقلا أم شرعا؟ فإن قيل: لأن الرحيم الحكيم منا لا يجوز أن يفعل ذلك، قلنا: لأن فوقه آمرا يأمره وناهيا ينهاه، وربنا تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ولا يجوز أن يقاس الخلق بالخالق، ولا تحمل أفعال العباد على أفعال الإله، وبالحقيقة الأفعال كلها لله جل جلاله، والخلق بأجمعهم له، صرفهم كيف شاء، وحكم بينهم بما أراد، وهذا الذي يجده الآدمي إنما تبعث عليه رقة الجبلة وشفقة الجنسية وحب الثناء والمدح؛ لما يتوقع في ذلك من الانتفاع، والباري تعالى متقدس عن ذلك كله، فلا يجوز أن يعتبر به».

الثالثة: واختلف في هذه الآية، هل هي خاصة أو عامة؟ فقيل: الآية خاصة؛ لأنه تعالى قال ﴿مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ فخرج من هذا الحديث من كان من ولد آدم لصلبه. وقال جل وعز: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ فخرج منها كل من لم يكن له آباء مشركون، وقيل: هي مخصوصة فيمن أخذ عليه العهد على ألسنة الأنبياء. وقيل: بل هي عامة لجميع الناس؛ لأن كل أحد يعلم أنه كان طفلا فغذي وربي، وأن له مدبرا وخالقا. فهذا معنى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾. ومعنى ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي إن ذلك واجب عليهم. فلما اعترف الخلق لله سبحانه بأنه الرب ثم ذهلوا عنه ذكرهم بأنبيائه وختم الذكر بأفضل أصفيائه لتقوم حجته عليهم فقال له: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]. ثم مكنه من السيطرة، وأتاه السلطنة، ومكن له دينه في الأرض. قال الطرطوشي: إن هذا العهد يلزم البشر وإن كانوا لا يذكرونه في هذه الحياة، كما يلزم الطلاق من شهد عليه به وقد نسيه.

الرابعة: وقد استدل بهذه الآية من قال: إن من مات صغيرا دخل الجنة لإقراره في الميثاق الأول. ومن بلغ العقل لم يغنه الميثاق الأول. وهذا القائل يقول: أطفال المشركين في الجنة، وهو الصحيح في الباب. وهذه المسألة اختلف فيها لاختلاف الآثار، والصحيح ما ذكرناه. وسيأتي الكلام في هذا في

(١) كذا عند الطبري (٩/ ١١٩) بسند حسن لشواهده والله أعلم.
(٢) هذا من قول الحسن ولا يصح لكونه مقطوعًا وبعضه عن ابن عباس كما في السابق عند الطبري والله أعلم.
(٣) كذا عند الطبري (٩/ ١٢١).
(٤) أحكام القرآن (٢/ ٨٠١) لابن العربي المالكي.

«الروم» إن شاء الله. وقد أتينا عليها في كتاب «التذكرة» والحمد لله.

الخامسة: قوله تعالى ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدل اشتمال من قوله ﴿مِن بَنِي آدَمَ﴾. وألفاظ الآية تقتضي أن الأخذ إنما كان من بني آدم، وليس لآدم في الآية ذكر بحسب اللفظ. ووجه النظم على هذا: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم ذريتهم، وإنما لم يذكر ظهر آدم لأن المعلوم أنهم كلهم بنوه. وأنهم أخرجوا يوم الميثاق من ظهره. فاستغنى عن ذكره لقوله ﴿مِن بَنِي آدَمَ﴾. ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ الكوفيون وابن كثير بالتوحيد وفتح التاء، وهي تقع للواحد والجمع؛ قال الله تعالى ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] فهذا للواحد؛ لأنه إنما سأل هبة ولد فبشر بيحيى، وأجمع القراء على التوحيد في قوله ﴿مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ [مريم: ٥٨] ولا شيء أكثر من ذرية آدم. وقال ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ فهذا للجمع. وقرأ الباقون «ذرياتهم» بالجمع، لأن الذرية لما كانت تقع للواحد أتى بلفظ لا يقع للواحد فجمع لتخلص الكلمة إلى معناها المقصود إليه لا يشركها فيه شيء وهو الجمع؛ لأن ظهور بني آدم استخرج منها ذريات كثيرة متناسبة، أعقاب بعد أعقاب، لا يعلم عددهم إلا الله؛ فجمع لهذا المعنى.

السادسة: قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ تقدم القول فيها في «البقرة» عند قوله ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [البقرة: ٨١] مستوفى، فتأمله هناك. ﴿أَن تَقُولُوا﴾ «أو يقولوا» قرأ أبو عمرو بالياء فيهما. ردهما على لفظ الغيبة المتكرر قبله، وهو قوله ﴿مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾. وقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أيضا لفظ غيبة. وكذا ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾ فحمله على ما قبله وما بعده من لفظ الغيبة. وقرأ الباقون بالتاء فيهما؛ ردوه على لفظ الخطاب المتقدم في قوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾. ويكون ﴿شَهِدْنَا﴾ من قول الملائكة. لما قالوا ﴿بَلَىٰ﴾ قالت الملائكة ﴿شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا﴾ ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ أي لئلا تقولوا. وقيل: معنى ذلك أنهم لما قالوا بلى، فأقروا له بالربوبية، قال الله تعالى للملائكة: اشهدوا قالوا شهدنا بإقراركم لئلا تقولوا أو تقولوا. وهذا قول مجاهد والضحاك والسدي. وقال ابن عباس وأبي بن كعب: قوله ﴿شَهِدْنَا﴾ هو من قول بني آدم ، والمعنى: شهدنا أنك ربنا وإلهنا، وقال ابن عباس: أشهد بعضهم على بعض؛ فالمعنى على هذا قالوا بلى شهد بعضنا على بعض؛ فإذا كان ذلك من قول الملائكة فيوقف على ﴿بَلَىٰ﴾ ولا يحسن الوقف عليه إذا كان من قول بني آدم؛ لأن ﴿أَن﴾ متعلقة بما قبل بلى، من قوله ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ لئلا يقولوا. وقد روى مجاهد عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا»(٢). أي شهدنا عليكم بالإقرار بالربوبية لئلا تقولوا. فهذا يدل على التاء. قال مكي: وهو الاختيار لصحة معناه، ولأن الجماعة عليه. وقد قيل: إن قوله ﴿شَهِدْنَا﴾ من قول الله تعالى والملائكة. والمعنى: فشهدنا على إقراركم؛ قاله أبو مالك، وروي عن السدي أيضا. ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ أي اقتدينا بهم. ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ بمعنى: لست تفعل هذا. ولا عذر للمقلد في التوحيد.

---

(١) صحيح: وقد سبق مرفوعًا عن ابن عباس رضى الله عنهما، حسن إلى أبي كما عند الطبري (٩/ ١٢٣) في تفسيره.

(٢) سبق أن الموقوف أصح من المرفوع.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

ذكر أهل الكتاب قصة عرفوها في التوراة. واختلف في تعيين الذي أوتي الآيات. فقال ابن مسعود وابن عباس: هو بلعام بن باعوراء [١]، ويقال ناعم، من بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام، وكان بحيث إذا نظر رأى العرش، وهو المعني بقوله ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ ولم يقل آية، وكان في مجلسه اثنتا عشرة ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه. ثم صار بحيث أنه كان أول من صنف كتابا في أن «ليس للعالم صانع»، قال مالك بن دينار: بعث بلعام بن باعوراء إلى ملك مدين ليدعوه إلى الإيمان؛ فأعطاه وأقطعه فاتبع دينه وترك دين موسى؛ ففيه نزلت هذه الآيات، روى المعتمر بن سليمان عن أبيه قال: كان بلعام قد أوتي النبوة، وكان مجاب الدعوة، فلما أقبل موسى في بني إسرائيل يريد قتال الجبارين، سأل الجبارون بلعام بن باعوراء أن يدعو على موسى فقام ليدعو فتحول لسانه بالدعاء على أصحابه. فقيل له في ذلك؛ لا أقدر على أكثر مما تسمعون؛ واندلع لسانه على صدره. فقال: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة، وسأمكر لكم، فإني أرى أن تخرجوا إليهم فتياتكم فإن الله يبغض الزنى، فإن وقعوا فيه هلكوا؛ ففعلوا فوقع بنو إسرائيل في الزنى، فأرسل الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفا. وقد ذكر هذا الخبر بكماله الثعلبي وغيره [٢]. وروي أن بلعام بن باعوراء دعا ألا يدخل موسى مدينة الجبارين، فاستجيب له وبقي في التيه. فقال موسى: يا رب، بأي ذنب بقينا في التيه. فقال: بدعاء بلعام. قال: فكما سمعت دعاءه علي فاسمع دعائي عليه، فدعا موسى أن ينزع الله عنه الاسم الأعظم؛ فسلخه الله ما كان عليه، وقال أبو حامد في آخر كتاب منهاج العارفين له: وسمعت بعض العارفين يقول إن بعض الأنبياء سأل الله تعالى عن أمر بلعام وطرده بعد تلك الآيات والكرامات، فقال الله تعالى: لم يشكرني يوما من الأيام على ما أعطيته، ولو شكرني على ذلك مرة لما سلبته [٣]. وقال عكرمة: كان بلعام نبيا وأوتي كتابا [٤]. وقال مجاهد: إنه أوتي النبوة؛ فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم عليه. قال الماوردي: وهذا غير صحيح؛ لأن الله تعالى لا يصطفي لنبوته إلا من علم أنه لا يخرج عن طاعته إلى معصيته. وقال عبدالله بن عمرو بن العاص وزيد بن أسلم: نزلت في أمية

---

(١) هنا ستبدأ القصص الواهية في الظهور، خاصة مسألة رفعة درجة بلعام بن باعوراء، سواء أنه كان يرى العرش، أو اجتماع الطلبة حوله، أو انحطاط الدرجة بعد ذلك، وهذا مما لا سند له من قريب أو بعيد، والوارد صحيحًا فقط هو أنه بلعام بن باعوراء أو (بن أبر) أو (باعر) فقد روى، أو (بلعم) فهذه أسانيد صحيحة إلى الصحابيين عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس رضى عنهما كما عند النسائي (١١١٩٣) في الكبرى، والحاكم (٢/ ٣٥٥) في المستدرك والطبري (٩/ ١٢٨) في تفسيره، عن ابن مسعود، وروى الطبري قول ابن عباس رضى الله عنهما بأسانيد مختلفة أصحها رواية مما هو عن ابن عباس رضى الله عنهما.

(٢) انظر الطبري (٩/ ١٣٣) مطولاً وهو مقطوع كما تراه.

(٣) وجدته في آخر كتاب منهاج العابدين ـ عاقبة الحمد والشكر ص١٨٧ بتحقيقي، وهو كلام لا يصح وانظر التالي.

(٤) هو قول ضعيف: وانظر الطبري (٩/ ١٣٢) ولكنه ذكره عن مجاهد، والمعتمر عن أبيه دون عكرمة وكيف يطرد الله نبيًا اصطفاه وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته؟!

حسن إلى ابن عمرو رضى الله عنهما: وبقية الأقوال عند الطبري (٩/ ١٣٠) أسباب النزول للواحدي ص١٨١.

ابن أبي الصلت الثقفي ، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولا في ذلك الوقت، وتمنى أن يكون هو ذلك الرسول، فلما أرسل الله محمدا ﷺ حسده وكفر به. وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه» (١).

وقال سعيد بن المسيب: نزلت في أبي عامر بن صيفي (٢)، وكان يلبس المسوح في الجاهلية؛ فكفر بالنبي ﷺ. وذلك أنه دخل على النبي ﷺ المدينة فقال: يا محمد، ما هذا الذي جئت به؟ قال: «جئت بالحنيفية دين إبراهيم». قال: فإني عليها. فقال النبي ﷺ «لست عليها لأنك أدخلت فيها ما ليس منها». فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا. فقال النبي ﷺ «نعم أمات الله الكاذب منا كذلك» وإنما قال هذا يعرض برسول الله ﷺ حيث خرج من مكة. فخرج أبو عامر إلى الشأم ومر إلى قيصر وكتب إلى المنافقين: استعدوا فإني آتيكم من عند قيصر بجند لنخرج محمدا من المدينة؛ فمات بالشام وحيدا. وفيه نزل ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧] وسيأتي في براءة (٣). وقال ابن عباس في رواية: نزلت في رجل كان له ثلاث دعوات يستجاب له فيها، وكانت له امرأة يقال لها « البسوس» فكان له منها ولد؛ فقالت: اجعل لي منها دعوة واحدة. فقال: لك واحدة، فما تأمرين؟ قالت: ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل. فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه؛ فدعا الله عليها أن يجعلها كلبة نباحة. فذهب فيها دعوتان؛ فجاء بنوها وقالوا: لا صبر لنا عن هذا، وقد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها، فادع الله أن يردها كما كانت؛ فدعا فعادت إلى ما كانت، وذهبت الدعوات فيها (٤). والقول الأول أشهر وعليه الأكثر. قال عبادة ابن الصامت: نزلت في قريش، آتاهم الله آياته التي أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ فانسلخوا منها ولم يقبلوها. قال ابن عباس: كان بلعام من مدينة الجبارين (٥). وقيل: كان من اليمن. ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي من معرفة الله تعالى، أي نزع منه العلم الذي كان يعلمه. وفي الحديث عن النبي ﷺ «العلم علمان علم في القلب فذلك العلم النافع وعلم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على ابن آدم» (٦). فهذا مثل علم بلعام وأشباهه، نعوذ بالله منه؛ ونسأل التوفيق والممات على التحقيق. والانسلاخ: الخروج؛ يقال: انسلخت الحية من جلدها أي خرجت منه. وقيل: هذا من المقلوب، أي

(١) ضعيف : قال ابن كثير (٢/ ٦١٤) في البداية قال ابن صاعد : حديث غريب ثم قال فلا أعرفه ، والله أعلم ، وقد رواه ابن الأنباري في المصاحف ، وابن عساكر عن ابن عباس كما في كنز العمال (٧٩٨٠) .

(٢) وهو والد الصحابي الجليل (حنظلة الغسّيل رضى الله عنه) والقول عن ابن عباس عند ابن أبي حاتم (٦/ ٢٧٩) لكن من طريق قتادة عنه وهو منقطع .

(٣) مرسل : سعيد بن المسيب رضى الله عنه لم يدرك زمن النبوة ، وإن كان من أجلة التابعين ، وانظر البحر المحيط (٤/ ٤٢٢) لأبي حيان .

(٤) رواه الواحدي ص ١٨١ ، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٨٢) بسند ضعيف إلى ابن عباس رضى الله عنهما ، وفيه أبو سعد الأعور ، وهو : ضعيف .

(٥) منقطع : بين علي بن أبي طلحة وابن عباس كما في الطبري (٩/ ١٣٠) .

(٦) ضعيف : رواه الخطيب عن الحسن عن جابر كما في تاريخ بغداد (٤/ ٣٤٦) ورواه الحكيم الترمذي عن الحسن البصري مرسلاً وجوده العراقي ، غير أن العلامة الألباني رحمه الله ـ قد ضعفه برقم (٣٨٧٨) في ضعيف الجامع .

انسلخت الآيات منه. ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي لحق به؛ يقال: أتبعت القوم أي لحقتهم. وقيل: نزلت في اليهود والنصارى، انتظروا خروج محمد ﷺ فكفروا به.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ يريد بلعام. أي لو شئنا لأمتناه قبل أن يعصي فرفعناه إلى الجنة. ﴿ بِهَا﴾ أي بالعمل بها. ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ أي ركن إليها؛ عن ابن جبير والسدي (١). مجاهد: سكن إليها؛ أي سكن إلى لذاتها (٢). وأصل الإخلاد اللزوم. يقال: أخلد فلان بالمكان إذا أقام به ولزمه. قال زهير:

لِمنْ الديارِ غشيتَها بالغرقَدِ كَالوَحْيِ فِي حجرِ المسيلِ المخلَّدِ

يعني المقيم؛ فكأن المعنى لزم لذات الأرض فعبر عنها بالأرض، لأن متاع الدنيا على وجه الأرض. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي ما زين له الشيطان. وقيل: كان هواه مع الكفار. وقيل: اتبع رضا زوجته، وكانت رغبت في أموال حتى حملته على الدعاء على موسى. ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ ابتداء وخبر. ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ شرط وجوابه. وهو في موضع الحال، أي فمثله كمثل الكلب لاهثا. والمعنى: أنه على شيء واحد لا يرعوي عن المعصية؛ كمثل الكلب الذي هذه حالته. فالمعنى: أنه لاهث على كل حال، طردته أو لم تطرده. قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث؛ كذلك الذي يترك الهدى لا فؤاد له، وإنما فؤاده منقطع (٣). قال القتيبي: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال المرض وحال الصحة وحال الري وحال العطش. فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته فقال: إن وعظته ضل وإن تركته ضل؛ فهو كالكلب إن تركته لهث وإن طردته لهث؛ كقوله تعالى: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ [الأعراف: ١٩٣] قال الجوهري: لَهث الكلب «بالفتح» يلهث لهثا ولُهاثا «بالضم» إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش؛ وكذلك الرجل إذا أعيا.

وقوله تعالى: ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ لأنك إذا حملت على الكلب نبح وولى هاربا، وإذا تركته شد عليك ونبح؛ فيتعب نفسه مقبلا عليك ومدبرا عنك فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان. قال الترمذي الحكيم في نوادر الأصول: إنما شبهه بالكلب من بين السباع لأن الكلب ميت الفؤاد، وإنما لهاثه لموت فؤاده. وسائر السباع ليست كذلك فلذلك لا يلهثن. وإنما صار الكلب كذلك لأنه لما نزل آدم ﷺ إلى الأرض شمت به العدو، فذهب إلى السباع فأشلاهم (٤) على آدم، فكان الكلب من أشدهم طلبا. فنزل جبريل بالعصا التي صرفت إلى موسى بمدين وجعلها آية له إلى

(١، ٢) الطبري (٩/ ١٣٦) وابن أبي حاتم (٦/ ٢٨٥) والإسناد حسن إلى ابن جبير.
(٣) إسناده صحيح إلى ابن جريج. الطبري (٩/ ١٣٨).
(٤) أشلاهم: أغراهم.

فرعون وملئه، وجعل فيها سلطانا عظيما وكانت من آس الجنة؛ فأعطاها آدم ﷺ يومئذ ليطرد بها السباع عن نفسه، وأمره فيما روي أن يدنو من الكلب ويضع يده على رأسه، فمن ذلك ألفه الكلب ومات الفؤاد منه لسلطان العصا، وألف به وبولده إلى يومنا هذا، لوضع يده على رأسه، وصار حارسا من حراس ولده. وإذا أدب وعلم الاصطياد تأدب وقبل التعليم؛ وذلك قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ (١) [المائدة: ٤] السدي: كان بلعام بعد ذلك يلهث كما يلهث الكلب (٢).

وهذا المثل في قول كثير من أهل العلم بالتأويل عام في كل من أوتي القرآن فلم يعمل به. وقيل: هو في كل منافق. والأول أصح. قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي إن تحمل عليه بدابتك أو برجلك يلهث أو تتركه يلهث (٣).

وكذلك من يقرأ الكتاب ولا يعمل بما فيه. وقال غيره: هذا شر تمثيل؛ لأنه مثله في أنه قد غلب عليه هواه حتى صار لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا بكلب لاهث أبدا، حمل عليه أو لم يحمل عليه؛ فهو لا يملك لنفسه ترك اللهثان.

وقيل: من أخلاق الكلب الوقوع بمن لم يخفه على جهة الابتداء بالجفاء، ثم تهدأ طائشته بنيل كل عوض خسيس. ضربه الله مثلا للذي قبل الرشوة في الدين حتى انسلخ من آيات ربه. فدلت الآية لمن تدبرها على ألا يغتر أحد بعمله ولا بعلمه؛ إذ لا يدري بما يختم له. ودلت على منع أخذ الرشوة لإبطال حق أو تغييره. وقد مضى بيانه في «المائدة». ودلت أيضا على منع التقليد لعالم إلا بحجة يبينها؛ لأن الله تعالى أخبر أنه أعطى هذا آياته فانسلخ منها فوجب أن يخاف مثل هذا على غيره وألا يقبل منه إلا بحجة.

قوله تعالى: ﴿ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي هو مثل جميع الكفار.

وقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ﴾ يقال: ساء الشيء قبح، فهو لازم، وساء يسوء مساءة، فهو متعد، أي قبح مثلهم. وتقديره: ساء مثلا مثل القوم؛ فحذف المضاف، ونصب ﴿مَثَلاً﴾ على التمييز. قال الأخفش: فجعل المثل القوم مجازا. والقوم مرفوع بالابتداء أو على إضمار مبتدأ. التقدير: ساء المثل مثلا هو مثل القوم. وقدره أبو علي: ساء مثلا مثل القوم. وقرأ عاصم الجحدري والأعمش «ساء مثلُ القوم» رفع مثلا بساء.

﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)﴾

تقدم معناه في غير موضع، وهذه الآية ترد على القدرية كما سبق، وترد على من قال إن الله تعالى هدى جميع المكلفين ولا يجوز أن يضل أحدا.

---

(١) كلام لا يصح من قريب أو بعيد، وهو منسوب إلى وهب كما ذكره المصنف عند سورة البقرة، وعزاه للحكيم الترمذي وعلق عليه هناك.

(٢، ٣) الطبري (٩/ ١٣٨).

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

أخبر تعالى أنه خلق للنار أهلا بعدله. ثم وصفهم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أى: بمنزلة من لا يفقه؛ لأنهم لا ينتفعون بها، ولا يعقلون ثوابا ولا يخافون عقابا. و﴿أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الهدى. و﴿آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ المواعظ. وليس الغرض نفي الإدراكات عن حواسهم جملة كما بيناه في «البقرة». ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأنهم لا يهتدون إلى ثواب، فهم كالأنعام؛ أي: همتهم الأكل والشرب، وهم أضل لأن الأنعام تبصر منافعها ومضارها، وتتبع مالكها، وهم بخلاف ذلك. وقال عطاء: الأنعام تعرف الله، والكافر لا يعرفه. وقيل: الأنعام مطيعة لله تعالى، والكافر غير مطيع. و﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ أي: تركوا التدبر وأعرضوا عن الجنة والنار.

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أمر بإخلاص العبادة لله، ومجانبة المشركين والملحدين. قال مقاتل وغيره من المفسرين: نزلت الآية في رجل من المسلمين، كان يقول في صلاته: يا رحمن يا رحيم. فقال رجل من مشركي مكة: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربا واحدا، فما بال هذا يدعو ربين اثنين؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (١).

الثانية: جاء في كتاب الترمذي وسنن ابن ماجة وغيرهما حديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نص فيه أن لله تسعة وتسعين اسما (٢)؛ في أحدهما ما ليس في الآخر. وقد بينا ذلك في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى). قال ابن عطية - وذكر حديث الترمذي - وذلك الحديث ليس بالمتواتر، وإن كان قد قال فيه أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث. وإنما المتواتر منه قوله ﷺ: « أن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة» (٣). ومعنى ﴿أحصاها﴾ عدها وحفظها. وقيل غير هذا مما بيناه في

---

(١) معضل: مقاتل بينه وبين رسول الله ﷺ أزمنة وأزمنة وذكره البغوي (٣/ ٣٠٦، ٣٠٧) في تفسيره هكذا بلا سند.

(٢، ٣) صحيح: البخاري (٧٣٩٢) في التوحيد، ومسلم (٢٦٧٧) في الذكر والدعاء بغير تلك الأسماء التي أدرجت في الحديث، وقد قال ابن كثير - رحمه الله - (٤/ ١٦٦) في تفسيره بتحقيقي - ط - دار الفجر (والذي عوّل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج (أي زائد) والحديث المدرج: هو الحديث الذي زاد فيه الراوي شيئًا ليس منه أصلاً، وبذلك يكون حديثًا ضعيفًا - وإنما ذلك رواه الوليد بن مسلم، وعبد الملك بن محمد الصغاني وكلاهما متفق على ضعفه - عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن عن جعفر بن محمد، وسفيان بن عيينة، وأبي زيد اللغوي) أ.هـ كلام الحافظ.

كتابنا. وذكرنا هناك تصحيح حديث الترمذي، وذكرنا من الأسماء ما اجتمع عليه وما اختلف فيه مما وقفنا عليه في كتب أئمتنا ما ينيف على مائتي اسم. وذكرنا قبل تعيينها في مقدمة الكتاب اثنين وثلاثين فصلا فيما يتعلق بأحكامها، فمن أراده وقف عليه هناك وفي غيره من الكتب الموضوعة في هذا الباب. والله الموفق للصواب، لا رب سواه.

الثالثة: واختلف العلماء من هذا الباب في الاسم والمسمى، وقد ذكرنا ما للعلماء من ذلك في «الكتاب الأسنى». قال ابن الحصار: وفي هذه الآية وقوع الاسم على المسمى ووقوعه على التسمية. فقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ وقع على المسمى، وقوله: ﴿الأَسْمَاءُ﴾ وهو جمع اسم واقع على التسميات. يدل على صحة ما قلناه قوله ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾، والهاء في قوله: ﴿فَادْعُوهُ﴾ تعود على المسمى سبحانه وتعالى، فهو المدعو. والهاء في قوله ﴿بِهَا﴾ تعود على الأسماء، وهي التسميات التي يدعى بها لا بغيرها. هذا الذي يقتضيه لسان العرب. ومثل ذلك قول رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد» الحديث [1]. وقد تقدم في «البقرة» شيء من هذا. والذي يذهب إليه أهل الحق أن الاسم هو المسمى، أو صفة له تتعلق به، وأنه غير التسمية. قال ابن العربي عند كلامه على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾: فيه ثلاثة أقوال. قال بعض علمائنا: في ذلك دليل على أن الاسم المسمى؛ لأنه لو كان غيره لوجب أن تكون الأسماء لغير الله تعالى. الثاني: قال آخرون: المراد به التسميات؛ لأنه سبحانه واحد والأسماء جمع.

قلت: ذكر ابن عطية في تفسيره أن الأسماء في الآية بمعنى التسميات إجماعا من المتأولين لا يجوز غيره. وقال القاضي أبو بكر في كتاب التمهيد: وتأويل قول النبي ﷺ: «لله تسعة وتسعون اسما من أحصاها دخل الجنة» أي: أن له تسعة وتسعين تسمية بلا خلاف [2]، وهي عبارات عن كون الله تعالى على أوصاف شتى، منها ما يستحقه لنفسه ومنها ما يستحقه لصفة تتعلق به، وأسماؤه العائدة إلى نفسه هي هو، وما تعلق بصفة له فهي أسماء له. ومنها صفات لذاته. ومنها صفات أفعال. وهذا هو تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: التسميات الحسنى. الثالث: قال آخرون منهم: ولله الصفات.

الرابعة: سمى الله سبحانه أسماءه بالحسنى لأنها حسنة في الأسماع والقلوب؛ فإنها تدل على

---

(١) صحيح: البخاري (٣٥٣٢) في المناقب، مسلم (٢٣٥٤) في الفضائل عن جبير بن مطعم رضى الله عنه.

(٢) هي ليست تسعة وتسعين عددًا وحصرًا ولوكان المراد كذا لقال (إن أسماء الله تسعة وتسعون اسما ....) كما قال الدكتور الأشقر صـ ٦٦ في الأسماء والصفات وقال ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ : (أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد معين لقوله ﷺ في الحديث المشهور : «أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك» . أحمد (١/ ٣٩١) (عن ابن مسعود) قال : وما استأثر الله تعالى به في علم الغيب لا يمكن أحدًا حصرًا ولا الإحاطة به .... فمعنى الحديث (إن لله تسعة وتسعين اسمًا » أن هذا العدد أن من شأنه أن من أحصاه دخل الجنة ، فهى جملة مكملة لما قبلها ، وليست مستقلة ، ونظير هذا أن تقول : عندي مائة درهم أعددتها للصدقة ، فإنه لا يمنع أن يكون عندك دراهم أخرى لم تعدها للصدقة ، ولم يصح عن النبي ﷺ تعيين هذه الأسماء ، والحديث المروي عنه في تعيينها ضعيف .

توحيـده وكرمه وجوده ورحـمته وإفضـاله. والحسنى مصدر وصف به. ويجـوز أن يقدر ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ فعلى، مؤنث الأحسن؛ كالكبرى تأنيث الأكبر، والجمع الكبر والحسن.

وعلى الأول أفرد كمـا أفرد وصف ما لا يعقل؛ كمـا قال تعالى: ﴿مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] و﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ: ١٠].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: اطلبوا منه بأسـمائه؛ فيطلب بـكل اسم ما يليق به، تقول: يا رحيم ارحمني، يا حكيم احكم لي، يا رازق ارزقني، يا هادي اهدني، يا فتاح افتح لي، يا تواب تب علي؛ هكذا. فإن دعوت باسم عام قلت: يا مالك ارحمني، يا عزيز احكم لي، يا لطيف ارزقني. وإن دعوت بالأعم الأعـظم فقلت: يا الله؛ فـهو مـتـضمن لكل اسم. ولا تقـول: يا رزاق اهدني؛ إلا أن تريد يا رزاق ارزقـني الخيـر. قـال ابن العـربي [١]: وهكذا، رتب دعـاءك تكن من المخلصين. وقد تقدم في «البقرة» شرائط الدعاء، وفي هذه السورة أيضا. والحمد لله.

السادسة: أدخل القاضي أبو بكر بـن العربي عدة من الأسمـاء في أسمائه سـبحانه، مـثل متم نوره، وخيـر الوارثين، وخيـر الماكرين، ورابع ثلاثة، وسـادس خمسـة، والطيب، والمعلم؛ وأمـثال ذلك. قال ابن الحصار: واقتدى في ذلك بابن برجان، إذ ذكر في الأسماء «النظيف» وغير ذلك مما لم يرد في كتاب ولا سنة.

قلت: أمـا ما ذكـر من قولـه: «مما لم يرد في كتـاب ولا سنة» فـقد جـاء في صـحيح مـسلم «الطيب»[٢]. وخرج الترمذي «النظيف» [٣]. وخرج عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه «رب أعني ولا تعن عليّ وانصرني ولا تنصر علي وامكر لي ولا تمكر علي» [٤] الحديث. وقال فيه: حديث حسن صحيح. فعلى هذا جائز أن يقال: يا خير الماكرين امكر لي ولا تمكر عليّ. والله أعلم. وقد ذكرنا «الطيب، والنظيف» في كتابنا وغيره مما جـاء ذكره في الأخبار، وعن السلف الأخيار، وما يجوز أن يسمى به ويدعى، وما يجوز أن يسمى به ولا يدعى، وما لا يجوز أن يسمى به ولا يدعى، حسب ما ذكره الشيخ أبو الحسن الأشعري، وهناك يتبين لك ذلك إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ الإلحاد: الميل وترك القصد؛ يقال: ألحد الرجل في الدين. وألحد إذا مال، ومنه اللحد في القبر؛ لأنه في ناحيته. وقرئ «يَلْحَدُونَ» لغتان والإلحاد يكون بثلاثة أوجه: أحدها: بالتغـيير فيـها كما فـعله المشركون، وذلك أنهم عـدلوا بها عمـا هي عليه فسمـوا بها أوثانهم؛ فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيـز، ومناة من المنان قاله ابن عباس وقتادة. الثاني: بالزيادة فيها. الثالث: بالنقصان منها؛ كما يفعله الجهال الذين يختـرعون أدعية يسمون فيها الله تعالى

(١) انظر أحكام القرآن (٢/ ٦١٨).

(٢) صحيح: مسلم (١٠١٥) في الزكاة عن أبي هريرة رضى الله عنه.

(٣) ضعيف: الترمذي (٢٧٩٩) في الأدب عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه وضعفه الألباني هناك.

(٤) صحيح: أبو داود (١٥١٠) في الصلاة، والترمذي (٣٥٥١) في الدعوات، وصححه الألباني هناك. قلت: ويقال: يمكر بمن يستحق سبحانه، لأن هذه صفة لا اسم من أسمائه سبحانه.

بغير أسمائه، ويذكرون بغير ما يذكر من أفعاله؛ إلى غير ذلك مما لا يليق به. قال ابن العربي [(١)] فحذار منها، ولا يدعون أحدكم إلا بما في كتاب الله والكتب الخمسة؛ وهي البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي، فهذه الكتب التي يدور الإسلام عليها، وقد دخل فيها ما في الموطأ الذي هو أصل التصانيف، وذروا ما سواها، ولا يقولن أحدكم أختار دعاء كذا وكذا؛ فإن الله قد اختار له وأرسل بذلك إلى الخلق رسوله ﷺ.

الثانية: معنى الزيادة في الأسماء التشبيه، والنقصان التعطيل. فإن المشبهة وصفوه بما لم يأذن فيه، والمعطلة سلبوه ما اتصف به، ولذلك قال أهل الحق: إن ديننا طريق بين طريقين، لا بتشبيه ولا بتعطيل. وسئل الشيخ أبو الحسن البوشنجي عن التوحيد فقال: إثبات ذات غير مشبهة بالذوات، ولا معطلة من الصفات. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ معناه اتركوهم ولا تحاجوهم ولا تعرضوا لهم. فالآية على هذا منسوخة بالقتال؛ قاله ابن زيد. وقيل: معناه الوعيد؛ كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١] وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ [الحجر: ٣]. وهو الظاهر من الآية؛ لقوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. والله أعلم.

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾

في الخبر أن النبي ﷺ قال: «هم هذه الأمة» [(٢)] وروي أنه قال: «هذه لكم وقد أعطى الله قوم موسى مثلها» [(٣)] وقرأ هذه الآية وقال: «إن من أمتي قوما على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم» [(٤)] فدلت الآية على أن الله عز وجل لا يخلي الدنيا في وقت من الأوقات من داع يدعو إلى الحق.

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

أخبر تعالى عمن كذب بآياته أنه سيستدرجهم. قال ابن عباس: هم أهل مكة [(٥)]. والاستدراج هو الأخذ بالتدريج، منزلة بعد منزلة. والدرج: لف الشيء؛ يقال: أدرجته ودرجته. ومنه أدرج الميت في أكفانه. وقيل: هو من الدرجة؛ فالاستدراج أن يحط درجة بعد درجة إلى المقصود. قال الضحاك: كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة [(٦)]. وقيل لذي النون: ما أقصى ما يخدع به العبد؟ قال: بالألطاف والكرامات؛ لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر؛ وأنشدوا:

أَحسنتَ ظنكَ بالأيامِ إذْ حَسنتْ ... وَلَمْ تَخَفْ سوءَ مَا يأتي به القَدَرُ
وَسالمتْكَ الليالي فَاغْتررت بِهَا ... وَعِندَ صَفْوَ الليالي يحدثُ الكَدَرُ

---

(١) أحكام القرآن (٢/ ٨١٨).

(٢ ـ ٤) هذه كلها مراسيل: فالأول عن قتادة، وابن جريج فهو معضل والثاني عن قتادة، والثالث عن الربيع بن أنس مرسلاً وروى الأول والثاني الطبري (٩/ ١٤٤، ١٤٥) والثالث عند ابن أبي حاتم (٦/ ٢٩٣) في تفسيره وذكر حديث قتادة مقطوعًا عليه دون رفعه.

(٥) ذكره ابن أبي حاتم عن السدي (٦/ ٢٩٣) ولفظه (عذاب بدر).

(٦) انظر تفسير البغوي (٣/ ٣٠٨) دون سند هناك.

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي أطيل لهم المدة وأمهلهم وأؤخر عقوبتهم. ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ أي مكري. ﴿مَتِينٌ﴾ أي شديد قوي. وأصله من المتن، وهو اللحم الغليظ الذي عن جانب الصلب. قيل: نزلت في المستهزئين من قريش، قتلهم الله في ليلة واحدة بعد أن أمهلهم مدة. نظيره ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ أي فيما جاءهم به محمد ﷺ. والوقف على ﴿يَتَفَكَّرُوا﴾ حسن. ثم قال: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ رد لقولهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]. وقيل: نزلت بسبب أن رسول الله ﷺ قام ليلة على الصفا يدعو قريشا، فخذا فخذا؛ فيقول «يا بني فلان». يحذرهم بأس الله وعقابه، فقال قائلهم: إن صاحبهم هذا لمجنون، بات يصوت حتى الصباح (١).

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ عجب من إعراضهم عن النظر في آياته؛ ليعرفوا كمال قدرته، حسب ما بيناه في سورة «البقرة». والملكوت من أبنية المبالغة ومعناه الملك العظيم. وقد تقدم.

الثانية: استدل بهذه الآية - وما كان مثلها من قوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ [ق: ٦] وقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] الآية. وقوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] - من قال بوجوب النظر في آياته والاعتبار بمخلوقاته. قالوا: وقد ذم الله تعالى من لم ينظر، وسلبهم الانتفاع بحواسهم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩] الآية.

وقد اختلف العلماء في أول الواجبات، هل هو النظر والاستدلال، أو الإيمان الذي هو التصديق الحاصل في القلب الذي ليس من شرط صحته المعرفة، فذهب القاضي وغيره إلى أن أول الواجبات النظر والاستدلال؛ لأن الله تبارك وتعالى لا يعلم ضرورة، وإنما يعلم بالنظر والاستدلال بالأدلة التي نصبها لمعرفته، وإلى هذا ذهب البخاري رحمه الله حيث بوب في كتابه «باب العلم قبل القول والعمل لقول الله عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]». قال القاضي: من لم يكن عالما بالله فهو جاهل، والجاهل به كافر. قال ابن رشد في مقدماته: وليس هذا بالبين؛ لأن الإيمان يصح باليقين الذي

(١) مرسل: الطبري (٩/ ١٤٦)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٩٣) عن قتادة بلاغًا.

قد يحصل لمن هداه الله بالتقليد، وبأول وهلة من الاعتبار بما أرشد الله إلى الاعتبار به في غير ما آية. قال: وقد استدل الباجي على من قال: إن النظر والاستدلال أول الواجبات بإجماع المسلمين في جميع الأعصار على تسمية العامة والمقلد مؤمنين، قال: فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحا لما صح أن يسمى مؤمنا إلا من عنده علم بالنظر والاستدلال، قال: وأيضا فلو كان الإيمان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال لجاز للكفار إذا غلب عليهم المسلمون أن يقولوا لهم: لا يحل لكم قتلنا؛ لأن من دينكم أن الإيمان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال فأخرونا حتى ننظر ونستدل، قال: وهذا يؤدي إلى تركهم على كفرهم، وألا يقتلوا حتى ينظروا ويستدلوا.

قلت: هذا هو الصحيح في الباب، قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» [(١)]. وترجم ابن المنذر في كتاب الأشراف (ذكر صفة كمال الإيمان) أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وأن كل ما جاء به محمد حق، وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام - وهو بالغ صحيح العقل - أنه مسلم. وإن رجع بعد ذلك وأظهر الكفر كان مرتدا يجب عليه ما يجب على المرتد. وقال أبو حفص الزنجاني: وكان شيخنا القاضي أبو جعفر أحمد بن محمد السمناني يقول: أول الواجبات الإيمان بالله وبرسوله وبجميع ما جاء به، ثم النظر والاستدلال المؤديان إلى معرفة الله تعالى؛ فيتقدم وجوب الإيمان بالله تعالى عنده على المعرفة بالله. قال: وهذا أقرب إلى الصواب وأرفق بالخلق؛ لأن أكثرهم لا يعرفون حقيقة المعرفة والنظر والاستدلال، فلو قلنا: إن أول الواجبات المعرفة بالله لأدى إلى تكفير الجم الغفير والعدد الكثير، وألا يدخل الجنة إلا آحاد الناس، وذلك بعيد؛ لأن الرسول ﷺ قطع بأن أكثر أهل الجنة أمته، وأن أمم الأنبياء كلهم صف واحد وأمته ثمانون صفا، وهذا بين لا إشكال فيه، والحمد لله.

الثالثة : ذهب بعض المتأخرين والمتقدمين من المتكلمين إلى أن من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها والأبحاث التي حرروها لم يصح إيمانه وهو كافر؛ فيلزم على هذا تكفير أكثر المسلمين، وأول من يبدأ بتكفيره آباؤه وأسلافه وجيرانه. وقد أورد على بعضهم هذا فقال: لا تشنع علي بكثرة أهل النار. أو كما قال.

قلت: وهذا القول لا يصدر إلا من جاهل بكتاب الله وسنة نبيه؛ لأنه ضيق رحمة الله الواسعة على شرذمة يسيرة من المتكلمين، واقتحموا في تكفير عامة المسلمين، أي هذا من قول الأعرابي الذي كشف عن فرجه ليبول، وانتهره أصحاب النبي ﷺ: اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا. فقال النبي ﷺ: «لقد حجرت واسعا» [(٢)]. خرجه البخاري والترمذي وغيرهما من الأئمة. أترى هذا الأعرابي عرف الله بالدليل والبرهان والحجة والبيان ؟ وأن رحمته وسعت كل شيء، وكم من مثله محكوم له بالإيمان. بل اكتفى ﷺ من كثير ممن أسلم بالنطق بالشهادتين، وحتى إنه اكتفى بالإشارة

(١) صحيح : وقد سبق أكثر من مرة .

(٢) صحيح : البخاري (٦٠١٠) في الأدب .

في ذلك. ألا تراه لما قال للسوداء: «أين الله»؟ قالت: في السماء. قال «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» (١). ولم يكن هناك نظر ولا استدلال، بل حكم بإيمانهم من أول وهلة، وإن كان هناك عن النظر والمعرفة غفلة، والله أعلم.

الرابعة: ولا يكون النظر أيضا والاعتبار في الوجوه الحسان من المرد والنسوان. قال أبو الفرج الجوزي: قال أبو الطيب طاهر بن عبدالله الطبري: بلغني عن هذه الطائفة التي تسمع السماع أنها تضيف إليه النظر إلى وجه الأمرد، وربما زينته بالحلي والمصبغات من الثياب، وتزعم أنها تقصد به الازدياد في الإيمان بالنظر والاعتبار والاستدلال بالصنعة على الصانع. وهذه النهاية في متابعة الهوى ومخادعة العقل ومخالفة العلم. قال أبو الفرج: وقال الإمام أبو الوفاء بن عقيل لم يحل الله النظر إلا على صورة لا ميل للنفس إليها، ولا حظ للهوى فيها؛ بل عبرة لا يمازجها شهوة، ولا يقارنها لذة. ولذلك ما بعث الله سبحانه امرأة بالرسالة، ولا جعلها قاضيا ولا إماما ولا مؤذنا؛ كل ذلك لأنها محل شهوة وفتنة. فمن قال: أنا أجد من الصور المستحسنة عبرا كذبناه. وكل من ميز نفسه بطبيعة تخرجه عن طباعنا كذبناه، وإنما هذه خدع الشيطان للمدعين. وقال بعض الحكماء: كل شيء في العالم الكبير له نظير في العالم الصغير، ولذلك قال تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] وقال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. وقد بينا وجه التمثيل في أول «الأنعام». فعلى العاقل أن ينظر إلى نفسه ويتفكر في خلقه من حين كونه ماء دافقا إلى كونه خلقا سويا، يعان بالأغذية ويربى بالرفق، ويحفظ باللين حتى يكتسب القوى، ويبلغ الأشد. وإذا هو قد قال: أنا، وأنا، ونسي حين أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، وسيعود مقبورا؛ فيا ويحه إن كان محسورا. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ⑫ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٦] فينظر أنه عبد مربوب مكلف، مخوف بالعذاب إن قصر، مرتجيا بالثواب إن ائتمر، فيقبل على عبادة مولاه فإنه وإن كان لا يراه يراه ولا يخشى الناس والله أحق أن يخشاه، ولا يتكبر على أحد من عباد الله؛ فإنه مؤلف من أقذار، مشحون من أوضار (٢)، صائر إلى جنة إن أطاع أو إلى نار. وقال ابن العربي (٣): وكان شيوخنا يستحبون أن ينظر المرء في الأبيات الحكيمة التي جمعت هذه الأوصاف العلمية:

كَيفَ يزهُو من رَجيعُه(٤) أبَدَ الدَّهْرِ ضجيعُه
فَهُو منْهُ وإليْه وَأخُوه ورَضيعُه
وَهُوَ يدْعوه إلى الحشْـ ـس بصغر فيطيعُه

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ معطوف على ما قبله؛ أي وفيما خلق الله من الأشياء. ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي وفي آجالهم التي عسى أن تكون قد قربت؛ فهو في موضع خفض

---

(١) صحيح: مسلم (٥٣٧) في المساجد في حديث طويل رواه معاوية بن الحكم السُّلمي رضى الله عنه.
(٢) الأوضار: ج (وضر) وهو الوسخ.
(٣) أحكام القرآن (٢/ ١١٨) لابن العربى.
(٤) رجيع: البول والعذرة ـ كما في اللسان.

معطوف على ما قبله. وقال ابن عباس: أراد باقتراب الأجل يوم بدر ويوم أحد. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بأي قرآن غير ما جاء به محمد ﷺ يصدقون، وقيل: الهاء للأجل، على معنى بأي حديث بعد الأجل يؤمنون حين لا ينفع الإيمان؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف.

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٨٦﴾

قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ﴾ بين أن إعراضهم لأن الله أضلهم، وهذا رد على القدرية. ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ بالرفع على الاستئناف، وقرئ بالجزم حملا على موضع الفاء وما بعدها. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي يتحيرون. وقيل: يترددون، وقد مضى في سورة «البقرة» مستوفى.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ﴿أَيَّانَ﴾ سؤال عن الزمان؛ مثل متى. قال الراجز:

أَيانَ تَقضي حاجتي أَيانا أَمَا تَرى لِنجحِها أَوانَا

وكانت اليهود تقول للنبي ﷺ: إن كنت نبيا فأخبرنا عن الساعة متى تقوم (١). وروي أن المشركين قالوا ذلك لفرط الإنكار. و﴿مُرْسَاهَا﴾ في موضع رفع بالابتداء عند سيبويه، والخبر ﴿أَيَّانَ﴾. وهو ظرف مبني على الفتح، بني لأن فيه معنى الاستفهام. و﴿مُرْسَاهَا﴾ بضم الميم، من أرساها الله، أي أثبتها، أي متى مثبتها، أي متى وقوعها. وبفتح الميم من رست، أي ثبتت ووقفت؛ ومنه ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٣]. قال قتادة: أي ثابتات (٢). ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ ابتداء وخبر، أي لم يبينها لأحد؛ حتى يكون العبد أبدا على حذر ﴿لا يُجَلِّيهَا﴾ أي لا يظهرها. ﴿لِوَقْتِهَا﴾ أي في وقتها ﴿إِلاَّ هُوَ﴾. والتجلية: إظهار الشيء؛ يقال: جلا لي فلان الخبر إذا أظهره وأوضحه، ومعنى ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ خفي علمها على أهل السموات والأرض، وكل ما خفي، علمه فهو ثقيل على الفؤاد، وقيل: كبر مجيئها على أهل السموات والأرض (٣)؛ عن الحسن وغيره، ابن جريج والسدي: عظم وصفها على أهل السموات والأرض (٤). وقال قتادة وغيره: المعنى لا تطيقها السماوات والأرض لعظمها: لأن السماء تنشق والنجوم تتناثر والبحار تنضب (٥). وقيل: المعنى ثقلت المسألة عنها. ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ أي فجأة، مصدر في موضع الحال ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي عالم بها كثير السؤال عنها، قال ابن فارس: الحفي العالم بالشيء. والحفي: المستقصي في السؤال. قال

(١) ضعيف: فقد جاء من طريق ضعيف كما في تفسيره (٩/ ١٥٠، ١٥١).
(٢) انظر المحرر الوجيز (٦/ ١٦٦) لابن عطية الأندلسي.
(٣) صحيح إلى الحسن: الطبري (٩/ ١٤٩).
(٤) السابق نفسه.
(٥) السابق نفسه.

الأعشى:

فَـإنْ تَسْـألي عَني فَيا رُبَّ سَائِل حَـفي عَنْ الأعْشَى بِهِ حَيْثُ أَصْعَدَا

يقال: أحفى في المسألة وفي الطلب، فهو محف وحفي على التكثير، مثل مخصب وخصيب. قال محمد بن يزيد: المعنى يسألونك كأنك حفي بالمسألة عنها [(١)]، أي: ملح، يذهب إلى أنه ليس في الكلام تقديم وتأخير. وقال ابن عباس وغيره: هو على التقديم والتأخير، والمعنى: يسألونك عنها كأنك حفي بهم أي حفي ببرهم وفرح بسؤالهم. وذلك لأنهم قالوا: بيننا وبينك قرابة فأسر إلينا بوقت الساعة. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ ليس هذا تكريرا، ولكن أحد العلمين لوقوعها والآخر لكنهها.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا﴾ أي لا أملك أن أجلب إلى نفسي خيرا ولا أدفع عنها شرا؛ فكيف أملك علم الساعة. وقيل: لا أملك لنفسي الهدى والضلال. ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ في موضع نصب بالاستثناء. والمعنى: إلا ما شاء الله أن يملكني يمكنني منه.

وأنشد سيبويه:

مَهْمَا شَاءَ بِالنَّاسِ يفعلُ

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ المعنى لو كنت أعلم ما يريد الله عز وجل مني من قبل أن يعرفنيـه لفعلته. وقيل: لو كنت أعلم متى يكون لي النصر في الحرب لقاتلت فلم أغلب.

وقال ابن عباس: لو كنت أعلم سنة الجدب لهيأت لها في زمن الخصب ما يكفيني [(٢)]. وقيل: المعنى لو كنت أعلم التجارة التي تنفق لاشتريتها وقت كسادها. وقيل: المعنى لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من الـعمل الصالح [(٣)]؛ عن الحسن وابن جـريج. وقيل: المعنى لو كنت أعلم الغيب لأجبت عن كل ما أسـأل عنه. وكله مراد، والله أعلم. ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا استئناف كلام، أي ليس بي جنون، لأنهم نسبوه إلى الجنون. وقيل: هو متصل، والمعنى لو علمت الغيب لما مسني سـوء ولحذرت، ودل على هذا قوله تعالى ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١٥]

---

(١) السابق (٩/ ١٥٠).

(٢) كذا بنحوه عند ابن أبي حاتم (٦/ ٣٠٢) في تفسيره من طريق الضحاك وهو منقطع.

(٣) انظر الطبري (٩/ ١٥٢) في تفسيره عن ابن جريج به

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى : قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة آدم. ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء. ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليأنس بها ويطمئن، وكان هذا كله في الجنة. ثم ابتدأ بحالة أخرى هي في الدنيا بعد هبوطهما فقال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ كناية عن الوقاع. ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾ كل ما كان في بطن أو على رأس شجرة فهو حَمْلٌ بالفتح. وإذا كان على ظهر أو على رأس فهو حِملٌ بالكسر. وقد حكى يعقوب في حمل النخلة الكَسْر. وقال أبو سعيد السيرافي: يقال في حمل المرأة حَمل وحِمل، يشبه مرة لاستبطانه بحَمل المرأة، ومرة لبروزه وظهوره بحمل الدابة. والحمل أيضا مصدر حَمَل عليه يحمل حملا إذا صال. ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ يعني المني؛ أي استمرت بذلك الحمل الخفيف، يقول: تقوم وتقعد وتقلب، ولا تكترث بحمله إلى أن ثقل؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما. وقيل: المعنى فاستمر بها الحمل، فهو من المقلوب؛ كما تقول: أدخلت القلنسوة في رأسي، وقرأ عبدالله بن عمر « فمارت به » بألف والتخفيف؛ من مار يمور إذا ذهب وجاء وتصرف، وقرأ ابن عباس ويحيى بن يعمر « فمرَت به » خفيفة من المرية، أي شكت فيما أصابها؛ هل هو حمل أو مرض، أو نحو ذلك.

الثانية : قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ صارت ذات ثقل؛ كما تقول: أثمر النخل، وقيل: دخلت في الثقل؛ كما تقول: أصبح وأمسى. ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ الضمير في ﴿دَّعَوَا﴾ عائد على آدم وحواء، وعلى هذا القول ما روي في قصص هذه الآية أن حواء لما حملت أول حمل لم تدر ما هو. وهذا يقوي قراءة من قرأ « فمرَت به » بالتخفيف. فجزعت بذلك؛ فوجد إبليس السبيل إليها، قال الكلبي: إن إبليس أتى حواء في صورة رجل لما أثقلت في أول ما حملت فقال: ما هذا الذي في بطنك؟ قالت: ما أدري ! قال: إني أخاف أن يكون بهيمة. فقالت ذلك لآدم عليه السلام، فلم يزالا في هم من ذلك. ثم عاد إليها فقال: هو من الله بمنزلة، فإن دعوت الله فولدت إنسانا أفتسمينه بي؟ قالت: نعم، قال: فإني أدعو الله. فأتاها وقد ولدت فقال: سميه باسمي، فقالت: وما اسمك ؟ قال: الحارث، ولو سمى لها نفسه لعرفته - فسمته عبد الحارث [1]. . ونحو هذا مذكور من ضعيف الحديث، في الترمذي [2] وغيره، وفي الإسرائيليات كثير ليس لها ثبات؛ فلا يعول عليها من له قلب، فإن آدم

(١، ٢) أحسن المصنف إذا حكم بضعف ووضع هذا الأثر المكذوب ، وهو أثر مكذوب ففيه كذب على الله ، وافتراء على أنبياء الله ، وقد جاء مرفوعًا عند الترمذي (٣٠٧٧) في التفسير ، والطبري (٩/ ١٥٥) وفيه عمر بن إبراهيم البصري ولا يحتج به ، وهو من قول سمرة كما حكم ابن كثير (١/ ٣٧٩، ٣٨٠) ثم قال ابن كثير : (ويحتمل أنه ـ أي سمرة ـ قد تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب ، وكذبه أبو شهبة ص ٢١٠ في الإسرائيليات ونقل تضعيف الآلوسي له، والأصح أنه وقع في أمة بني آدم في زمن غير آدم كما =

وحواء عليـهما السلام وإن غـرهما بالله الغرور فـلا يلدغ المؤمن من جحر مـرتين، على أنه قد سطر وكتب، قال: قال رسول الله ﷺ: «خدعهما مرتين خدعـهما في الجنة وخدعهما في الأرض» (١). وعضد هذا بقراءة السلمي «أتشـركون» بالتاء، ومعنى ﴿صَالِحًا﴾ يريد ولدا سويا. ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ .

الثالثة: اختلف العلماء في تأويل الشرك المضـاف إلى آدم وحواء. قال المفسرون: كان شركا في التسمـية والصفة، لا في العبادة والربوبيـة. وقال أهل المعاني: إنهما لم يذهبـا إلى أن الحارث ربهما بتسميـتهما ولدهما عبـد الحارث، لكنهما قصدا إلى أن الحـارث كان سبب نجاة الولد فسمـياه به كما يسمي الرجل نفسه عبد ضيفه على جهة الخضوع له، لا على أن الضيف ربه؛ كما قال حاتم:

وَإني لعبدُ الضيفِ مَا دامَ ثَاويا وَمَا فِي إلا تِيكَ مِن شيَمةِ العبْدِ

وقال قـوم: إن هذا راجع إلى جنس الآدمـيين والتـبيـين عن حال المشـركين من ذرية آدم عليـه السلام، وهو الذي يعول عليه. فقوله: ﴿جَعَلا لَهُ﴾ يعني الذكر والأنثى الكافرين، ويعني به الجنسان. ودل على هذا ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولم يقل يشركان. وهذا قول حسن. وقيل: المعنى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ من هيئة واحدة وشكل واحد ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي من جنسها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ يعني الجنسين. وعلى هذا القول لا يكون لآدم وحـواء ذكر في الآية؛ فإذا آتاهما الولد صالحـا سليما سويا كما أراداه صرفاه عن الفطرة إلى الشـرك، فهذا فعل المشركين. قال ﷺ «ما من مولود إلا يولد على الفطرة - في رواية على هذه المـلة - أبواه يهودانه وينصـرانه ويمجسـانه» (٢). قال عكـرمة: لم يخص بها آدم، ولكن جعلها عامة لجـميع الخلق بعد آدم. وقال الحسين بن الفضل: وهذا أعجب إلى أهل النظر؛ لما في الـقول الأول من المضـاف من العظـائم بنبي الله آدم. وقـرأ أهل المدينة وعـاصم: «شركا» على التوحيد. وأبو عمرو وسـائر أهل الكوفة بالجمع، على مثل فعلاء، جمع شريك. وأنكر الأخفش سـعيـد القراءة الأولى، وهي صحـيحـة على حذف المضاف، أي جـعلا له ذا شـرك؛ مثل ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]فيرجع المعنى إلى أنهم جعلوا له شركاء.

الرابعة: ودلت الآية على أن الحمل مـرض من الأمراض. روى ابن القاسم ويحـيى عن مالك قال: أول الحمل يسـر وسرور، وآخره مـرض من الأمراض. وهذا الذي قاله مـالك: «إنه مرض من الأمراض» يعطيه ظاهر قوله: ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ وهذه الحالة مشاهدة فـي الحمال، ولأجل عظم الأمر وشدة الخطب جـعل موتها شـهادة؛ كمـا ورد في الحديث (٣). وإذا ثبت هذا من ظاهر الآية فـحال الحامل حال المريض في أفعاله. ولا خلاف بين علماء الأمـصار أن فعل المريض فيما يهب ويحابي في

= قال الحسن والله أعلم كما عند الطبري (٩/ ١٥٨) فقال : كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم وفاة : عني بهذا ذرية آدم من أشرك منهم بعده .

(١) مرسل :الطبري (٩/ ١٥٦) في تفسيره .

(٢) صحيح :البخاري (١٣٥٨) في الجنائز ، مسلم (٢٦٥٨) في القدر .

(٣) هذا صحيح :وقـد رواه أبو داود (٣١١١) في الجنائز ، والنسائي (١٩٣) في الكبرى عن جـابر بن عتيك رضى الله عنه وفيه (الشهادة سبع سوى القتل . . . .) وذكر في آخره « . . . . والمرأة تموت بجمع شهيدة» .

ثلثه. وقال أبو حنيفة والشافعي: وإنما يكون ذلك في الحامل بحال الطلق، فأما قبل ذلك فلا. واحتجوا بأن الحمل عادة والغالب فيه السلامة. قلنا: كذلك أكثر الأمراض غالبه السلامة . وقد يموت من لم يمرض.

الخامسة : قال مالك: إذا مضت للحامل ستة أشهر من يوم حملت، لم يجز لها قضاء في مالها إلا في الثلث. ومن طلق زوجته وهي حامل طلاقا بائنا ،فلما أتى عليها ستة أشهر، فأراد ارتجاعها لم يكن له ذلك؛ لأنها مريضة ونكاح المريضة لا يصح.

السادسة : قال يحيى: وسمعت مالكا يقول في الرجل يحضر القتال: إنه إذا زحف في الصف للقتال لم يجز له أن يقضي في ماله شيئا إلا في الثلث، وإنه بمنزلة الحامل والمريض المخوف عليه ما كان بتلك الحال. ويلتحق بهذا المحبوس للقتل في قصاص. وخالف في هذا أبو حنيفة والشافعي وغيرهما. قال ابن العربي [(١)]: وإذا استوعبت النظر لم ترتب في أن المحبوس على القتل أشد حالا من المريض، وإنكار ذلك غفلة في النظر؛ فإن سبب الموت موجود عندهما، كما أن المرض سبب الموت، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣] . وقال رويشد الطائي:

يَا أيها الراكبُ المزجِي مَطيَتهُ ... سَائل بني أسد مَا هَذه الصوتُ
وقل لهم بَادِروا بالعذَرِ وَالتمسُوا ... قَوْلا يبرئكم إني أناَ المَوتُ

ومما يدل على هذا قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] . فكيف يقول الشافعي وأبو حنيفة: الحال الشديدة إنما هي المبارزة؛ وقد أخبر الله عز وجل عن مقاومة العدو وتداني الفريقين بهذه الحالة العظمى من بلوغ القلوب الحناجر، ومن سوء الظنون بالله، ومن زلزلة القلوب واضطرابها؛ هل هذه حالة ترى على المريض أم لا؟ هذا ما لا يشك فيه منصف، وهذا لمن ثبت في اعتقاده، وجاهد في الله حق جهاده، وشاهد الرسول وآياته؛ فكيف بنا؟

السابعة : وقد اختلف علماؤنا في راكب البحر وقت الهول؛ هل حكمه حكم الصحيح أو الحامل. فقال ابن القاسم: حكمه حكم الصحيح. وقال ابن وهب وأشهب: حكمه حكم الحامل إذا بلغت ستة أشهر. قال القاضي أبو محمد: وقولهما أقيس؛ لأنها حالة خوف على النفس كإثقال الحمل. قال ابن العربي [(٢)]: وابن القاسم لم يركب البحر، ولا رأى دودا على عود. ومن أراد أن يوقن بالله أنه الفاعل وحده لا فاعل معه، وأن الأسباب ضعيفة لا تعلق لموقن بها، ويتحقق التوكل والتفويض فليركب البحر.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ أي أيعبدون ما لا يقدر على خلق شيء. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾

(١) أحكام القرآن (٢/ ٨٢١) .
(٢) السابق (٢/ ٨٢٢) .

أي الأصنام مخلوقة. وقال: ﴿يُخْلَقُونَ﴾ بالواو والنون لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع، فأجريت مجرى الناس؛ كقوله: ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨]. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ أي إن الأصنام، لا تنصر ولا تنتصر.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ قال الأخفش: أي وإن تدعو الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ قال أحمد بن يحيى: لأنه رأس آية، يريد أنه قال: ﴿أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ ولم يقل أم صمتم، وصامتون وصمتم عند سيبويه واحد، وقيل: المراد من سبق في علم الله أنه لا يؤمن. وقرئ ﴿لا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ مشددا ومخففا لغتان بمعنى. وقال بعض أهل اللغة«أتبعه» - مخففا - إذا مضى خلفه ولم يدركه، و«اتّبعه» - مشددا - إذا مضى خلفه فأدركه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ حاجهم في عبادة الأصنام. ﴿تَدْعُونَ﴾ تعبدون. وقيل: تدعونها آلهة. ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي من غير الله، وسميت الأوثان عبادا لأنها مملوكة لله مسخرة. الحسن: المعنى أن الأصنام مخلوقة أمثالكم. ولما اعتقد المشركون أن الأصنام تضر وتنفع أجراها مجرى الناس فقال﴿فَادْعُوهُمْ﴾ ولم يقل فادعوهن. وقال: ﴿عِبَادٌ﴾، وقال﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ ولم يقل إن التي. ومعنى ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ أي فاطلبوا منهم النفع والضر. ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن عبادة الأصنام تنفع. قال ابن عباس: معنى فادعوهم فاعبدوهم. ثم وبخهم الله تعالى وسفه عقولهم فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي أنتم أفضل منهم فكيف تعبدونهم. والغرض بيان جهلهم؛ لأن المعبود يتصف بالجوارح. وقرأ سعيد بن جبير « إن الذين تدعون من دون الله عبادًا أمثالكم » بتخفيف « إنْ» وكسرها لالتقاء الساكنين، ونصب « عبادا » بالتنوين، « أمثالَكُم » بالنصب. والمعنى: ما الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم، أي هي حجارة وخشب؛ فأنتم تعبدون ما أنتم أشرف منه. قال النحاس: وهذه قراءة لا ينبغي أن يقرأ بها من ثلاث جهات: أحدها: أنها مخالفة للسواد. والثانية: أن سيبويه يختار الرفع في خبر إن إذا كانت بمعنى ما، فيقول: إن زيد منطلق؛ لأن عمل « ما » ضعيف، و « إنْ » بمعناها فهي أضعف منها. والثالثة: أن الكسائي زعم أن ﴿إن﴾ لا تكاد تأتي في كلام العرب بمعنى « ما » ، إلا أن يكون بعدها إيجاب؛ كما قال عز وجل: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠]. ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ الأصل أن تكون اللام مكسورة، فحذفت الكسرة لثقلها. ثم قيل: في الكلام حذف، المعنى: فادعوهم إلى أن يتبعوكم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين أنهم آلهة. وقرأ أبو جعفر وشيبة :« أم لهم أيد

يبطُشون بها » بضم الطاء، وهي لغة. واليد والرجل والأذن مؤنثات يصغرن بالهاء. وتزاد في اليد ياء في التصغير، ترد إلى أصلها فيقال: يدية بالتشديد لاجتماع الياءين.

قوله تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي: الأصنام. ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أنتم وهي. ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي فلا تؤخرون. والأصل « كيدوني» حذفت الياء لأن الكسرة تدل عليها. وكذا ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾. والكيد المكر. والكيد الحرب؛ يقال: غزا فلم يلق كيدا.

قوله تعالى ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ أي الذي يتولى نصري وحفظي الله، وولي الشيء: الذي يحفظه ويمنع عنه الضرر، والكتاب: القرآن. ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أي يحفظهم. وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ جهارا غير سر يقول: «ألا إن آل أبي - يعني فلانا - ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين»[1]. وقال الأخفش: وقرئ ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ يعني : جبريل. النحاس: هي قراءة عاصم الجحدري. والقراءة الأولى أبين؛ لقوله ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ كرره ليبين أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر. ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ﴾ شرط، والجواب ﴿لا يَسْمَعُوا﴾. ﴿وَتَرَاهُمْ﴾ مستأنف. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ في موضع الحال. يعني الأصنام. ومعنى النظر فتح العينين إلى المنظور إليه؛ أي: وتراهم كالناظرين إليك. وخبر عنهم بالواو وهي جماد لا تبصر؛ لأن الخبر جرى على فعل من يعقل. وقيل: كانت لهم أعين من جواهر مصنوعة فلذلك قال ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ﴾ وقيل: المراد بذلك المشركون، أخبر عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم.

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات. فقوله ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين. ودخل في قوله ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار. وفي قوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة.

قلت : هذه الخصال تحتاج إلى بسط، وقد جمعها رسول الله ﷺ لجابر بن سليم. قال جابر بن

(١) صحيح : وقد سبق .

سليم أبو جري: ركبت قعودي ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله ﷺ، فأنخت قعودي بباب المسجد، فدلوني على رسول الله ﷺ، فإذا هو جالس عليه برد من صوف فيه طرائق حمر؛ فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فقال: «وعليك السلام». فقلت: إنا معشر أهل البادية، قوم فينا الجفاء؛ فعلمني كلمات ينفعني الله بها. قال: «ادن» ثلاثا، فدنوت فقال: «أعد علي» فأعدت عليه فقال: «اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئا وأن تلقى أخاك بوجه منبسط وأن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، وإن امرؤ سبك بما لا يعلم منك فلا تسبه بما تعلم فيه، فإن الله جاعل لك أجرا وعليه وزرا ولا تسبن شيئا مما خولك الله تعالى». قال أبو جري: فوالذي نفسي بيده، ما سببت بعده شاة ولا بعيرا (١). أخرجه أبو بكر البزار في مسنده بمعناه. وروى أبو سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق» (٢). وقال ابن الزبير: ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس. وروى البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبدالله بن الزبير في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ قال: ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس (٣). وروى سفيان بن عيينة عن الشعبي أنه قال: إن جبريل نزل على النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «ما هذا يا جبريل»؟ فقال: «لا أدري حتى أسأل العالم» في رواية: «لا أدري حتى أسأل ربي» فذهب فمكث ساعة ثم رجع فقال: «إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك» (٤). فنظمه بعض الشعراء فقال:

مكَارِمُ الأخْلاق في ثَلاثَة ... مَنْ كَمِلَتْ فيه فَذَلكَ الفتَى
إعطاءَ مَنْ تحْرِمهُ ووَصلُ مَنْ ... تقطعهُ والعفو عَمنْ اعتَدَى

وقال جعفر الصادق: أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (٥). وقال الشاعر:

كُلُّ الأمور تَزولُ عنك وَتنقضي ... إلا الثناءَ فَإنهُ لكَ بَاقي
وَلَوْ أنني خُيرتُ كُلَّ فَضيلَةٍ ... مَا اخترتُ غَيرَ مكَارِمَ الأخلاقِ

وقال سهل بن عبدالله: كلم الله موسى بطور سيناء. قيل له: بأي شيء أوصاك ؟ قال: بتسعة أشياء، الخشية في السر والعلانية، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغني، وأمرني أن أصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأعفو عمن ظلمني، وأن يكون نطقي ذكرا، وصمتي فكرا، ونظري عبرة.

قلت: وقد روي عن نبينا محمد أنه قال، «أمرني ربي بتسع الإخلاص في السر والعلانية والعدل

---

(١) صحيح : أحمد (٥/ ٦٣) في المسند ، والطيالسي (١٢٠٨) .
(٢) ضعفه الألباني : البزار وأبو نعيم ، والحاكم عن أبي هريرة رضى الله عنه وجوّده المنذري في الترغيب والترهيب ، وضعفه الألباني (٢٠٤٣) في ضعيف الجامع .
(٣) صحيح : البخاري (٤٦٤٣، ٤٦٤٤) في التفسير منفردًا به عن مسلم .
(٤) مرسل : الطبري (٩/ ١٦٥) وفيه ابن عيينة عن رجل .
(٥) صحيح : أحمد (٢/ ٣٨١) وصححه الألباني (٢٣٤٩) في صحيح الجامع عن أبي هريرة رضى الله عنه .

في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر وأن أعفو عمن ظلمني وأصل من قطعني وأعطي من حرمني وأن يكون نطقي ذكرا وصمتي فكرا ونظري عبرة» [١]. وقيل: المراد بقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي الزكاة؛ لأنها يسير من كثير. وفيه بعد؛ لأنه من عفا إذا درس. وقد يقال: خذ العفو منه، أي لا تنقص عليه وسامحه. وسبب النزول يرده، والله أعلم. فإنه لما أمره بمحاجة المشركين دله على مكارم الأخلاق، فإنها سبب جر المشركين إلى الإيمان. أي اقبل من الناس ما عفا لك من أخلاقهم وتيسر؛ تقول: أخذت حقي عفوا صفوا، أي سهلا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي بالمعروف. وقرأ عيسى بن عمر: «العُرُف» بضمتين؛ مثل الحُلُم؛ وهما لغتان، والعرف والمعروف والعارفة: كل خصلة حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن إليها النفوس. قال الشاعر:

مَنْ يَفْعَلْ الخيرَ لا يَعْدم جَوازِيَه ... لاَ يَذْهَبُ العُرْفَ بينَ الله والنَّاسِ

وقال عطاء: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ يعني بلا إله إلا الله.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أي إذا أقمت عليهم الحجة وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك فأعرض عنهم؛ صيانة له عليهم ورفعا لقدره عن مجاوبتهم. وهذا وإن كان خطابا لنبيه عليه السلام فهو تأديب لجميع خلقه. وقال ابن زيد وعطاء: هي منسوخة بآية السيف. وقال مجاهد وقتادة: هي محكمة؛ وهو الصحيح لما رواه البخاري عن عبدالله بن عباس قال: قدم عيينة بن حصن ابن حذيفة بن بدر فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولا كانوا أو شبانا. فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فتستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه؛ فاستأذن لعيينة. فلما دخل قال: يا بن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل! قال: فغضب عمر حتى هم بأن يقع به. فقال: الحُرّ يا أمير المؤمنين، إن الله قال لنبيه عليه السلام: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين. فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل [٢].

قلت: فاستعمال عمر رضي الله عنه لهذه الآية واستدلال الحر بها يدل على أنها محكمة لا منسوخة. وكذلك استعملها الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما؛ على ما يأتي بيانه. وإذا كان الجفاء على السلطان تعمدا واستخفافا بحقه فله تعزيره. وإذا كان غير ذلك فالإعراض والصفح والعفو؛ كما فعل الخليفة العدل.

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: لما نزل قوله تعالى ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال عليه السلام «كيف يا رب والغضب» فنزلت [٣] ﴿وَإِمَّا

(١) معضل فهو ضعيف: رواه ابن عائشة عن أمية به، وذكر الطرف الأخير منه، وقال الذهبي (٦/ ١٥١) في الميزان: هذا معضل، وانظر مسند الشهاب (٢/ ١٨٩).

(٢) صحيح: البخاري (٢٦٤٢) في التفسير منفرداً به عن مسلم.

(٣) معضل: الطبري (٩/ ١٦٧) عن ابن زيد به.

﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ ونزغ الشيطان: وساوسه، وفيه لغتان: نزغ ونغز، يقال: إياك والنزاغ والنغاز، وهم المورشون. الزجاج: النزغ أدنى حركة تكون، ومن الشيطان أدنى وسوسة. قال سعيد بن المسيب: شهدت عثمان وعليا وكان بينهما نزغ من الشيطان فما أبقى واحد منهما لصاحبه شيئا، ثم لم يبرحا حتى استغفر كل واحد منهما لصاحبه. ومعنى ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: يصيبنك ويعرض لك عند الغضب وسوسة بما لا يحل. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي اطلب النجاة من ذلك بالله. فأمر تعالى أن يدفع الوسوسة بالالتجاء إليه والاستعاذة به؛ ولله المثل الأعلى، فلا يستعاذ من الكلاب إلا برب الكلاب، وقد حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده. قال: هذا يطول، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنع من العبور ما تصنع؟ قال: أكابده وأرده جهدي. قال: هذا يطول عليك، ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك.

الثانية: النغز والنزغ والهمز والوسوسة سواء؛ قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] وقال: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]. وأصل النزغ الفساد؛ يقال: نزغ بيننا؛ أي أفسد. ومنه قوله: ﴿نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠] أي: أفسد. وقيل: النزغ الإغواء والإغراء؛ والمعنى متقارب.

قلت: ونظير هذه الآية ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول له من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته» (١). وفيه عن عبدالله قال: سئل النبي ﷺ عن الوسوسة قال: «تلك محض الإيمان» (٢). وفي حديث أبي هريرة: «ذلك صريح الإيمان» (٣) والصريح الخالص. وهذا ليس على ظاهره؛ إذ لا يصح أن تكون الوسوسة نفسها هي الإيمان، لأن الإيمان اليقين، وإنما الإشارة إلى ما وجدوه من الخوف من الله تعالى أن يعاقبوا على ما وقع في أنفسهم. فكأنه قال جزعكم من هذا هو محض الإيمان وخالصه؛ لصحة إيمانكم، وعلمكم بفسادها. فسمى الوسوسة إيمانا لما كان دفعها والإعراض عنها والرد لها وعدم قبولها والجزع منها صادرا عن الإيمان. وأما أمره بالاستعاذة فلكون تلك الوساوس من آثار الشيطان. وأما الأمر بالانتهاء فعن الركون إليها والالتفات نحوها. فمن كان صحيح الإيمان واستعمل ما أمره به ربه ونبيه نفعه وانتفع به. وأما من خالجته الشبهة وغلب عليه الحس ولم يقدر على الانفكاك عنها فلا بد من مشافهته بالدليل العقلي؛ كما قال ﷺ للذي خالطته شبهة الإبل الجرب حين قال النبي ﷺ: «لا عدوى». وقال أعرابي: فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فإذا دخل فيها البعير الأجرب أجربها؟ فقال ﷺ: «فمن أعدى الأول» (٤) فاستأصل الشبهة من أصلها. فلما يئس الشيطان من أصحاب محمد ﷺ بالإغراء والإضلال أخذ يشوش عليهم أوقاتهم بتلك

(١) صحيح: البخاري (٣٢٧٦) في بدء الخلق، مسلم (١٣٤) في الإيمان.
(٢) صحيح: مسلم (١٣٣) في الإيمان.
(٣) صحيح: مسلم (١٣٢) في الإيمان.
(٤) صحيح: البخاري (٥٧٧٥) في الطب، مسلم (٢٢٢١) في السلام عن أبي هريرة رضى الله عنه به.

الألقيات. والوساوس: الترهات؛ فنفرت عنها قلوبهم وعظم عليهم وقوعها عندهم فجاؤوا - كما في الصحيح - فقالوا: يا رسول الله، إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: «أو قد وجدتموه؟» قالوا: نعم. قال: «ذلك صريح الإيمان رغما للشيطان حسب ما نطق به القرآن في قوله ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢]. فالخواطر التي ليست بمستقرة ولا اجتلبتها الشبهة فهي التي تدفع بالإعراض عنها؛ وعلى مثلها يطلق اسم الوسوسة. والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يريد الشرك والمعاصي. «إذا مسهم طيف من الشيطان» هذه قراءة أهل البصرة وأهل مكة. وقراءة أهل المدينة وأهل الكوفة «طائف». وروي عن سعيد بن جبير «طيّف» بتشديد الياء. قال النحاس: كلام العرب في مثل هذا «طيْف» بالتخفيف؛ على أنه مصدر من طاف يطيف. قال الكسائي: هو مخفف من «طيف» مثل ميْت وميّت. قال النحاس: ومعنى «طيف» في اللغة ما يتخيل في القلب أو يرى في النوم؛ وكذا معنى طائف، وقال أبو حاتم: سألت الأصمعي عن طيف؛ فقال: ليس في المصادر فيعل. قال النحاس: ليس هو بمصدر، ولكن يكون بمعنى طائف، والمعنى إن الذين اتقوا المعاصي إذا لحقهم شيء تفكروا في قدرة الله عز وجل وفي إنعامه عليهم فتركوا المعصية؛ وقيل: الطيف والطائف معنيان مختلفان فالأول: التخيل. والثاني: الشيطان نفسه، فالأول مصدر طاف الخيال يطوف طيفا؛ ولم يقولوا من هذا طائف في اسم الفاعل. قال السهيلي: لأنه تخيل لا حقيقة له، فأما قوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [القلم:١٩] فلا يقال فيه: طيف؛ لأنه اسم فاعل حقيقة، ويقال: إنه جبريل، قال الزجاج: طفت عليهم أطوف، وطاف الخيال يطيف. وقال حسان:

فَدعْ هَذَا ولَكنْ من لَطيفٍ يُؤرقني إذَا ذَهبَ العشَاءُ

مجاهد: الطيف: الغضب (١). ويسمى الجنون والغضب والوسوسة طيفا؛ لأنه لمة من الشيطان تشبه بلمة الخيال. ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي منتهون. وقيل: فإذا هم على بصيرة. وقرأ سعيد بن جبير: «تذّكروا» بتشديد الذال. ولا وجه له في العربية؛ ذكره النحاس.

الثانية: قال عصام بن المصطلق: دخلت المدينة فرأيت الحسن بن علي عليهما السلام، فأعجبني سمته وحسن روائه؛ فأثار مني الحسد ما كان يجنه صدري لأبيه من البغض؛ فقلت: أنت ابن أبي طالب! قال: نعم. فبالغت في شتمه وشتم أبيه؛ فنظر إلي نظرة عاطف رؤوف، ثم قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فقرأ إلى قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ ثم قال لي: خفض عليك، استغفر الله لي ولك إنك لو استعنتنا أعناك،

---

(١) كذا نقله الطبري (٩/ ١٦٨) عن مجاهد رضى الله عنه.

ولو استرفدتنا أرفدناك، ولو استرشدتنا أرشدناك. فتوسم في الندم على ما فرط مني فقال﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] أمن أهل الشأم أنت؟ قلت: نعم. فقال:

شنشنة أعرفها من أخزم (١)

حياك الله وبياك، وعافاك، وآداك (٢)؛ انبسط (٣) إلينا في حوائجك وما يعرض لك، تجدنا عند أفضل ظنك، إن شاء الله. قال عصام: فضاقت علي الأرض بما رحبت، ووددت أنها ساخت بي؛ ثم تسللت منه لواذا (٤)، وما على وجه الأرض أحب إلي منه ومن أبيه.

قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل: المعنى وإخوان الشياطين وهم الفجار من ضلال الإنس تمدهم الشياطين في الغي. وقيل للفجار إخوان الشياطين لأنهم يقبلون منهم. وقد سبق في هذه الآية ذكر الشيطان. هذا أحسن ما قيل فيه؛ وهو قول قتادة والحسن والضحاك. ومعنى ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي لا يتوبون ولا يرجعون. وقال الزجاج: في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى: والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصرا ولا أنفسهم ينصرون، وإخوانهم يمدونهم في الغي؛ لأن الكفار إخوان الشياطين. ومعنى الآية: إن المؤمن إذا مسه طيف من الشيطان تنبه عن قرب؛ فأما المشركون فيمدهم الشيطان. و﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل: يرجع إلى الكفار على القولين جميعا. وقيل: يجوز أن يرجع إلى الشيطان. قال قتادة: المعنى ثم لا يقصرون عنهم ولا يرحمونهم (٥). والإقصار: الانتهاء عن الشيء، أي لا تقصر الشياطين في مدهم الكفار بالغي. وقوله: ﴿فِي الْغَيِّ﴾ يجوز أن يكون متصلا بقوله﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ ويجوز أن يكون متصلا بالإخوان. والغي: الجهل. وقرأ نافع «يُمِدونهم» بضم الياء وكسر الميم. والباقون بفتح الياء وضم الميم. وهما لغتان مد وأمد. ومد أكثر، بغير الألف؛ قاله مكي. النحاس: وجماعة من أهل العربية ينكرون قراءة أهل المدينة؛ منهم أبو حاتم وأبو عبيد، قال أبو حاتم: لا أعرف لها وجها، إلا أن يكون المعنى يزيدونهم في الغي. وحكى جماعة من أهل اللغة منهم أبو عبيد أنه يقال إذا كثر شيء شيئا بنفسه مده، وإذا كثره بغيره قيل أمده؛ نحو ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]. وحكي عن محمد بن يزيد أنه احتج لقراءة أهل المدينة قال: يقال مددت له في كذا أي زينته له واستدعيته أن يفعله. وأمددته في كذا أي أعنته برأي أو غير ذلك. قال مكي: والاختيار الفتح؛ لأنه يقال: مددت في الشر، وأمددت في الخير؛ قال الله تعالى﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]. فهذا يدل على قوة الفتح في هذا الحرف؛ لأنه في الشر، والغي هو الشر، ولأن الجماعة عليه. وقرأ عاصم الجحدري: «يمادونهم في الغي». وقرأ عيسى بن عمر: «يَقْصُرون» بفتح الياء وضم الصاد وتخفيف القاف. الباقون «يُقْصَرون» بضده، وهما لغتان. قال امرؤ القيس:

سَما لك شوق بعد ما كَان أقصرا

---

(١) شنشنة: صفة وعادة ـ كما في اللسان.
(٢) آداك: أعانك وقوّاك ـ كما في اللسان.
(٣) انبسط: اترك الاحتشام ـ كما في اللسان.
(٤) لواذا: استتارًا ـ كما في اللسان.
(٥) صحيح إليه: الطبري (٩/ ١٧٠) في تفسيره.

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ أي تقرؤها عليهم. ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ لولا بمعنى هلا، ولا يليها على هذا المعنى إلا الفعل ظاهرا أو مضمرا وقد تقدم القول فيها فى «البقرة» مستوفى. ومعنى ﴿اجْتَبَيْتَهَا﴾ اختلقتها من نفسك. فأعلمهم أن الآيات من قبل الله عز وجل، وأنه لا يقرأ عليهم إلا ما أنزله عليه. يقال: اجتبيت الكلام أي ارتجلته واختلقته واخترعته إذا جئت به من عند نفسك. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ أي من عند الله لا من عند نفسي. ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يعني القرآن، جمع بصيرة، هي الدلالة والعبرة. أي هذا الذي دللتكم به على أن الله عز وجل واحد. بصائر، أي يستبصر بها. وقال الزجاج ﴿بَصَائِرُ﴾ أي طرق. والبصائر طرق الدين. قال الجعفي:

رَاحُوا بَصَائِرُهُمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ وَبَصِيرَتي يَعْدُو بِهَا عَتَد وَأَى

﴿ وَهُدًى﴾ رشد وبيان. ﴿وَرَحْمَةٌ ﴾ أي ونعمة

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ قيل: إن هذا نزل في الصلاة، روي عن ابن مسعود وأبي هريرة وجابر والزهري وعبيد الله بن عمير وعطاء بن أبي رباح وسعيد بن المسيب. قال سعيد: كان المشركون يأتون رسول الله ﷺ إذا صلى؛ فيقول بعضهم لبعض بمكة: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾[فصلت:٢٦] . فأنزل الله جل وعز جوابا لهم ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا ﴾[١] . وقيل: إنها نزلت في الخطبة؛ قاله سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وعمرو بن دينار وزيد بن أسلم والقاسم بن مخيمرة ومسلم بن يسار وشهر بن حوشب وعبدالله بن المبارك[٢] . وهذا ضعيف؛ لأن القرآن فيها قليل، والإنصات يجب في جميعها؛ قاله ابن العربي. النقاش: والآية مكية، ولم يكن بمكة خطبة ولا جمعة. وذكر الطبري عن سعيد بن جبير[٣] أيضا أن هذا في الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام فهو عام. وهو الصحيح لأنه يجمع جميع ما أوجبته هذه الآية وغيرها من السنة في الإنصات. قال النقاش: أجمع أهل التفسير أن هذا الاستماع في الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة. النحاس: وفي اللغة يجب أن يكون في كل شيء، إلا أن يدل دليل على اختصاص شيء. وقال الزجاج: يجوز أن يكون ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ اعملوا بما فيه ولا تجاوزوه. والإنصات: السكوت للاستماع والإصغاء والمراعاة. أنصت ينصت إنصاتا؛ ونصت أيضا؛ قال الشاعر:

قَالَ الإِمَامَ عَلَيكُم أَمرَ سَيدكُمْ فَلَمْ نُخَالِفْ وَأَنصتنَا كَمَا قَالاَ

---

(١) ذكرها الطبري (٩/ ١٧٤، ١٧٥) عدا جابر رضى الله عنه والإسناد ضعيف إلى ابن مسعود وأبي هريرة ، وانظر الدارقطني (١/ ٣٢٦) وانظر الواحدي ص١٨٨ وص ١٨٩ في أسباب النزول .

(٢، ٣) انظر السابق نفسه .

ويقال: أنصتوه وأنصتوا له؛ قال الشاعر:

إذا قَالَتْ حَذَام فأنصتُوهَا فَإنَّ القولَ مَا قَالَتْ حذَام

وقال بعضهم في قوله ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾: كان هذا لرسول الله ﷺ خاصا ليعيه عنه أصحابه.

قلت: هذا فيه بعد، والصحيح القول بالعموم؛ لقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ والتخصيص يحتاج إلى دليل. وقال عبدالجبار بن أحمد في فوائد القرآن له: إن المشركين كانوا يكثرون اللغط والشغب تعنتا وعنادا؛ على ما حكاه الله عنهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. فأمر الله المسلمين حالة أداء الوحي أن يكونوا على خلاف هذه الحالة وأن يستمعوا، ومدح الجن على ذلك فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآية. وقال محمد بن كعب القرظي: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ في الصلاة أجابه من وراءه؛ إذا قال: بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا مثل قوله، حتى يقضي فاتحة الكتاب والسورة. فلبث بذلك ما شاء الله أن يلبث؛ فنزل ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فأنصتوا. وهذا يدل على أن المعنى بالإنصات ترك الجهر على ما كانوا يفعلون من مجاوبة رسول الله ﷺ [١]. وقال قتادة في هذه الآية: كان الرجل يأتي وهم في الصلاة فيسألهم كم صليتم، كم بقي؛ فأنزل الله تعالى [٢] ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾. وعن مجاهد هذا أيضا: كانوا يتكلمون في الصلاة بحاجتهم [٣]؛ فنزل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. وقد مضى في الفاتحة الاختلاف في قراءة المأموم خلف الإمام. ويأتي في «الجمعة» حكم الخطبة، إن شاء الله تعالى.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ نظيره ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] وقد تقدم. قال أبو جعفر النحاس: ولم يختلف في معنى ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ أنه في الدعاء.

قلت: قد روي عن ابن عباس أنه يعني بالذكر القراءة في الصلاة. وقيل: المعنى اقرأ القرآن بتأمل وتدبر. ﴿تَضَرُّعًا﴾ مصدر، وقد يكون في موضع الحال. ﴿وَخِيفَةً﴾ معطوف عليه. وجمع خيفة خوف؛ لأنه بمعنى الخوف؛ ذكره النحاس. وأصل خيفة خوفة، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها. خاف الرجل يخاف خوفا وخيفة ومخافة، فهو خائف، وقوم خوف على الأصل، وخيف على اللفظ. وحكى الفراء أنه يقال أيضا في جمع خيفة خيف. قال الجوهري: والخيفة الخوف، والجمع خيف، وأصله الواو. ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾ أي دون الرفع في القول. أي أسمع نفسك؛ كما قال: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] أي بين الجهر والمخافتة. ودل هذا على أن رفع الصوت بالذكر ممنوع؛ على

---

(١) مرسل: محمد بن كعب القرظي تابعي جليل، ورواه ابن أبي حاتم (٦/ ٣٣٠) في تفسيره.

(٢، ٣) مرسلان: وفي السند إلى مجاهد ضعف، كما عند الطبري (٩/ ١٧٥).

ما تقدم في غير موضع. ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ قال قتادة وابن زيد: الآصال العشيات [١]. والغدو جمع غدوة. وقرأ أبو مجلز «بالغدو والإيصال» وهو مصدر آصلنا، أي دخلنا في العشي. والآصال جمع أصل؛ مثل طنب وأطناب؛ فهو جمع الجمع، والواحد أصيل، جُمع على أصُل؛ عن الزجاج. الأخفش: الآصال جمع أصيل؛ مثل يمين وأيمان. الفراء: أصل جمع أصيل، وقد يكون أصُل واحدا، كما قال الشاعر:

ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

الجوهري: الأصيل الوقت بعد العصر إلى المغرب، وجمعه أصل وآصال وأصائل؛ كأنه جمع أصيلة؛ قال الشاعر:

لعمري لأنت البيت أكرم أهله وأقعد في أفيائه بالأصائل

ويجمع أيضا على أصلان؛ مثل بعير وبعران؛ ثم صغروا الجمع فقالوا أصيلان، ثم أبدلوا من النون لاما فقالوا: أصيلال؛ ومنه قول النابغة:

وقفت فيها أصيلالا أسائلها عيت جوابا وما بالربع من أحد

وحكى اللحياني: لقيته أصيلالا. ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي: عن الذكر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة بإجماع. وقال: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ والله تعالى بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته، وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده؛ عن الزجاج. وقال غيره: لأنهم في موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله. وقيل: لأنهم رسل الله؛ كما يقال: عند الخليفة جيش كثير. وقيل: هذا على جهة التشريف لهم، وأنهم بالمكان المكرم؛ فهو عبارة عن قربهم في الكرامة لا في المسافة. ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ أي ويعظمونه وينزهونه عن كل سوء. ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ قيل: يصلون. وقيل: يذلون، خلاف أهل المعاصي.

الثانية: والجمهور من العلماء في أن هذا موضع سجود للقارئ. وقد اختلفوا في عدد سجود القرآن؛ فأقصى ما قيل: خمس عشرة. أولها خاتمة الأعراف، وآخرها خاتمة العلق. وهو قول ابن حبيب وابن وهب - في رواية - وإسحاق، ومن العلماء من زاد سجدة الحجر قوله تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٩٨] على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. فعلى هذا تكون ست عشرة. وقيل: أربع عشرة؛ قاله ابن وهب في الرواية الأخرى عنه، فأسقط ثانية الحج. وهو قول أصحاب الرأي والصحيح سقوطها؛ لأن الحديث لم يصح بثبوتها، ورواه ابن ماجة وأبو داود في سننهما عن عبدالله ابن منين من بني عبد كلال عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن؛ منها ثلاث في المفصل، وفي الحج سجدتان [٢]. وعبدالله بن منين لا يحتج به؛ قاله أبو

(١) انظر السابق (٩/ ١٧٦).

(٢) ضعيف: أبو داود (١٤٠١) في الصلاة، وضعفه الألباني هناك.

محمد عبدالحق. وذكر أبو داود أيضا من حديث عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله، أفي سورة الحج سجدتان؟. قال: «نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما» (١). في إسناده عبدالله بن لهيعة، وهو ضعيف جدًا. وأثبتهما الشافعي وأسقط سجدة ص. وقيل: إحدى عشرة سجدة، وأسقط آخرة الحج وثلاث المفصل. وهو مشهور مذهب مالك. وروي عن ابن عباس وابن عمر وغيرهم. وفي سنن ابن ماجة عن أبي الدرداء قال: سجدت مع النبي ﷺ إحدى عشرة سجدة ليس فيها من المفصل شيء الأعراف والرعد والنحل وبني إسرائيل ومريم والحج سجدة ،والفرقان وسليمان سورة النمل والسجدة ص وسجدة الحواميم (٢). وقيل: عشر، وأسقط آخرة الحج وص وثلاث المفصل؛ ذكر عن ابن عباس. وقيل: إنها أربع، سجدة آلم تنزيل وحم تنزيل والنجم والعلق. وسبب الخلاف اختلاف النقل في الأحاديث والعمل، واختلافهم في الأمر المجرد بالسجود في القرآن، هل المراد به سجود التلاوة أو سجود الفرض في الصلاة؟

الثالثة: واختلفوا في وجوب سجود التلاوة؛ فقال مالك والشافعي: ليس بواجب. وقال أبو حنيفة: هو واجب. وتعلق بأن مطلق الأمر بالسجود على الوجوب، وبقوله عليه السلام: «إذا قرأ ابن آدم سجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويله» (٣). وفي رواية أبي كريب: «يا ويلي»، وبقوله عليه السلام إخبارا عن إبليس لعنه الله: «أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار» (٤). أخرجه مسلم. ولأن النبي ﷺ كان يحافظ عليه، وعول علماؤنا على حديث عمر الثابت - خرجه البخاري - أنه قرأ آية سجدة على المنبر، فنزل فسجد وسجد الناس معه، ثم قرأها في الجمعة الأخرى فتهيأ الناس للسجود، فقال: «أيها الناس على رسلكم! إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء» (٥). وذلك بمحضر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين من الأنصار والمهاجرين. فلم ينكر عليه أحد فثبت الإجماع به في ذلك. وأما قوله: «أمر ابن آدم بالسجود» فإخبار عن السجود الواجب. ومواظبة النبي ﷺ تدل على الاستحباب! والله أعلم.

الرابعة: ولا خلاف في أن سجود القرآن يحتاج إلى ما تحتاج إليه الصلاة من طهارة حدث ونجس ونية واستقبال قبلة ووقت، إلا ما ذكر البخاري عن ابن عمر أنه كان يسجد على غير طهارة(٦). وذكره ابن المنذر عن الشعبي، وعلى قول الجمهور هل يحتاج إلى تحريم ورفع يدين عنده وتكبير وتسليم؟ اختلفوا في ذلك؛ فذهب الشافعي وأحمد وإسحاق إلى أنه يكبر ويرفع للتكبير لها، وقد روي في الأثر عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان إذا سجد كبر، وكذلك إذا رفع كبر (٧). ومشهور

(١) ضعيف : أبو داود (١٤٠٢) في الصلاة وضعفه الألباني هناك .
(٢) ضعيف : الترمذي (٥٦٨) في الصلاة ، ابن ماجه (١٠٥٥، ١٠٥٦)في إقامة الصلاة وضعفه الألباني هناك .
(٣، ٤) صحيح : مسلم (٨١) في الإيمان .
(٥) صحيح : البخاري (١٠٧٧) في سجود القرآن .
(٦) علقه البخاري باب (٥) في كتاب سجود القرآن ، ووصله الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ بسند فيه جهالة وعزاه لابن أبي شيبة ـ رحمه الله ـ .
(٧) ضعيف : أبو داود (١٤١٣) في الصلاة وهو منكر بذكر التكبير كما قال العلامة الألباني ـ رحمه الله ـ .

مذهب مالك أنه يكبر لها في الخفض والرفع في الصلاة. واختلف عنه في التكبير لها في غير الصلاة؛ وبالتكبير لذلك قال عامة الفقهاء، ولا سلام لها عند الجمهور، وذهب جماعة من السلف وإسحاق إلى أنه يسلم منها، وعلى هذا المذهب يتحقق أن التكبير في أولها للإحرام، وعلى قول من لا يسلم يكون للسجود فحسب، والأول أولى؛ لقوله عليه السلام: «مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم» [١] وهذه عبادة لها تكبير، فكان لها تحليل كصلاة الجنازة بل أولى، لأنها فعل وصلاة الجنازة قول. وهذا اختيار ابن العربي [٢].

الخامسة: وأما وقته فقيل: يسجد في سائر الأوقات مطلقا؛ لأنها صلاة لسبب. وهو قول الشافعي وجماعة. وقيل: ما لم يسفر الصبح، أو ما لم تصفر الشمس بعد العصر، وقيل: لا يسجد بعد الصبح ولا بعد العصر، وقيل: يسجد بعد الصبح ولا يسجد بعد العصر. وهذه الثلاثة الأقوال في مذهبنا. وسبب الخلاف معارضة ما يقتضيه سبب قراءة السجدة من السجود المرتب عليها لعموم النهي عن الصلاة بعد العصر وبعد الصبح، واختلافهم في المعنى الذي لأجله نهي عن الصلاة في هذين الوقتين، والله أعلم.

السادسة: فإذا سجد يقول في سجوده: اللهم احطط عني بها وزرا، واكتب لي بها أجرا، واجعلها لي عندك ذخرا [٣]. رواه ابن عباس عن النبي ﷺ؛ ذكره ابن ماجه.

السابعة: فإن قرأها في صلاة، فإن كان في نافلة سجد إن كان منفردا أو في جماعة وأمن التخليط فيها. وإن كان في جماعة لا يأمن ذلك فيها فالمنصوص جوازه، وقيل: لا يسجد. وأما في الفريضة فالمشهور عن مالك النهي عنه فيها، سواء كانت صلاة سر أو جهر، جماعة أو فرادى. وهو معلل بكونها زيادة في أعداد سجود الفريضة، وقيل: معلل بخوف التخليط على الجماعة؛ وهذا أشبه. وعلى هذا لا يمنع منه الفرادى ولا الجماعة التي يأمن فيها التخليط.

الثامنة: روى البخاري عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الإنشقاق: ١] فسجد؛ فقلت: ما هذه؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه [٤]. انفرد بإخراجه. وفيه «وقيل لعمران بن حصين: الرجل يسمع السجدة ولم يجلس لها؟ قال: أرأيت لو قعد لها! كأنه لا يوجبه عليه. وقال سلمان: ما لهذا غدونا. وقال عثمان: إنما السجدة على من استمعها. وقال الزهري: لا يسجد إلا أن يكون طاهرا، فإذا سجدت وأنت في حضر فاستقبل القبلة، فإن كنت راكبا فلا عليك، حيث كان وجهك. وكان السائب لا يسجد لسجود القاص» [٥] والله أعلم.

---

(١) صحيح وقد سبق.

(٢) أحكام القرآن (٢/ ٨٣١).

(٣) حسن: الترمذي (٥٧٩) في الصلاة، وابن ماجه (١٠٥٣) في الإقامة.

(٤) صحيح: البخاري (١٠٧٨) في سجود القرآن، ومسلم (٥٧٨/ ١٠٧، ١٠٨) في المساجد ومواضع الصلاة.

(٥) علقها البخاري باب (١٠) في سجود القرآن، وصححه عمران، وعن سلمان وعن عثمان، والسائب بأسانيد صحاح.